

القس منسى يوحنا



طريق السماء



كلمة عن المؤلف

نيح الله نفسه

ولد الفقيه العزيز سنة ١٨٩٩ بناحية هور مركز ملوى من أبوين مسيحيين تقيين كريمي المحدث عريقى النسب. ومات أبوه وهو فى سن الطفولة فعنت أمه بتربيته تحت رعاية جده الوقور ونظراً لما كانت عليه رحمة الله من الصلاح والورع والحكمة وكرم النفس والبر بالفقراء والمساكين والعطف على الأراامل واليتامى والمجربين فقد تشرب الفقيه منها هذه السجايا الحميدة وترعرع فى كنفها وغما فى أحضان الفضل والتقوى وخصه الله فوق ذلك بذكاء حاد وعقل راجح وفكر ثاقب .

وكان حبه لكنيسته الأرثوذكسية غريزة متأصلة فى نفسه وبلغت شدة تعلقه بها أنه ألم بالكثير مما يتلى فيها وهو طالب بالمدارس الابتدائية ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من العمر. ثم دفعته غيرته على تقدم الكنيسة ونائها على أن يكرس حياته لخدمتها فالتحق بالمدرسة الكليريكية وهو فى السادسة عشرة من عمره بعد تردد حضرة مديرها فى قبوله نظراً لصغره والزعيم بأنه وهو فى هذه السن لا يقوى على تحمل أعباء الدراسة بها ولكن ما ان مرت بضعة شهور على وجوده بالمدرسة المذكورة حتى أصبح موضع أعجاب حضرات مديرها وأساتذتها لما أظهره من النبوغ الفائق واستمر كل سننى الدراسة فيها متفوقاً على أقرانه مضرب المثل بينهم فى نبل الأخلاق وعلو الهمة وقوة الارادة وشدة العزيمة وإصالة الرأى . ولم يكن يكتفى بما يتلقاه فى المدرسة من الدروس المقررة بل كان يحصل على كل مفيد من الكتب الكنسية ومن مؤلفات العلماء اللاهوتيين والمؤرخين ويدرسها بعناية تامة ، فاتسعت بذلك مداركه وكثرت معلوماته وعظمت ثقافته .

ولما أن تخرج من المدرسة الاكليريكية عين واعاظ لكنيسة ملوى القبطية
فقبل فيها بادئ ذى بدء مقابلة شاب فى العشرين من عمره ولكن سرعان ما وجد
فيه شعبا واعظاً تقياً قديراً ، ومعلماً فاضلاً حكيماً . ومرشداً صالحاً أميناً فأحبه
جميع أفراد الشعب حباً جماً وأنزلوه أحسن منزلة فى نفوسهم . وان أنسى لا أنسى
موقفهم الرائع حينما قرأوا فى احدى الصحف أن الطيب الذكر نيافة مطران المنيا
السابق قرر نقله من كنيستهم الى كنيسة سمالوط فلقد ثارت عند ذلك ثائرتهم
وقاموا قومة رجل واحد معترضين على نقله وألقوا من بينهم وفدا قابل نيافة المطران
فتفضل نيافته وهذا خواطرهم بنفيه اشاعة نقله نقياً باتاً ، وأبلغهم أن واعظهم عندما
زار كنيسة سمالوط تلبية لدعوة أعضائها تعلق به أهلها وأخذوا يهدون السبيل
لتعيينه فى كنيستهم ولكن نيافته لم يوافقهم على ذلك لما يعلمه من شدة محبة شعب
ملوى له ودرجة تمسكهم بوجوده بينهم .

وأذكر بهذه المناسبة أن اثنين من أصحاب النياقة المطارنة عرضا عليه الخدمة
معها نظير مرتب كبير يغرى ولكنه فضل البقاء بكنيسة ملوى نظراً لما وجده فى
أهلها من المحبة والاخلاص والوفاء غير ناظر الى الماديات لأنه لم يكن يبغي سوى
خدمة الكنيسة والعمل على تقدمها .

ولقد رسم كاهنا لكنيسة ملوى فى يناير سنة ١٩٢٥ بناء على تزكية اجماعية
من شعبها وكان يوم رسامته يوماً مشهوداً اشترك فى الاحتفال به جميع أهل المدينة
على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم وكان الكل يهتفون بعضهم بعضاً .

وكانت حياة الفقيد — نبح الله نفسه — سلسلة جهاد متواصلة الحلقات فانه
علاوة على اضطلاعاه بمسؤوليات الخدمة بالكنيسة واقتداد الرعية والقيام بالوعظ
والتعليم كان يدأب دائماً على الاطلاع والبحث والتأليف والنشر ، ولقد تمكن فى
غضون تسع سنوات من تأليف خمسة عشر مؤلفاً قيماً من بينها كتاب تاريخ
الكنيسة القبطية ، هذا فضلاً عما كان ينشره فى الصحف والمجلات من البحوث
الروحانية والأدبية وعن تحمله أعباء ادارة وتحرير مجلة الفردوس .

ولقد برز الفقيد أبان الحركة الوطنية فكان خطيب ملوى الذى يشار اليه

بالبنان يدعو دائماً الى الاتحاد والاخاء والجهاد فى سبيل اسعاد الوطن العزيز.

واليه يرجع الكثير من الفضل فى حل أهالى ملوى على الاكتفاء. باقامة المآتم لمدة ثلاثة أيام وكان من عادة البعض اقامتها لمدة أسبوع والبعض الآخر لمدة خمسة عشر يوماً .

وظل الفقيد مع ما كان يقوم به من الخدمات العامة السالفة الذكر نشطاً فى خدمة الكنيسة عاملاً قوياً فى سبيل نهضتها وقد ألف اتحاداً من حضرات زملائه قساوسة ووعاظ كنائس المجاورة وأخذ يعمل معهم على . انعاش هذه الكنائس باقامة مجامع بها يتبادلون الوعظ فيها وكان لهذه المجامع بعون الله أثرها الفعال .

ومع ما بلغه الفقيد من سمو المكانة فى النفوس بسعة علمه وغزارة فضله وعلو همته فإنه كان بعيداً كل البعد عن الزهو والخيلاء مثلاً للتواضع وانكار الذات .

ولقد حلت به فى سنى حياته القصيرة تجارب متنوعة فتحملها بالصبر مقدماً عنها لله خالص الشكر. جرب فى أبنائه فكان كلما رزق ابناً اختطفه الموت منه ، وجرب كثيراً فى صحته . ثم فجّع فى اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٩٢٨ أى قبل انتقاله الى جوار ربه بعام ونصف عام بوفاة المرحومة والدته العزيزة التى يرجع اليها الفضل فى تربيته وتهذيبه كما فصلنا ، فخرس بوفاتها أعز من فى الوجود إليه وأكثرهم حنواً وعطفاً عليه وكان حزنه عليها شديداً لدرجة أنه كان يصلى بالألحان الحزينة مناجياً روحها الطاهرة وبالرغم من شدة وقع هذه المصائب فى نفسه فإنها لم تنل من عزيمته أو تضعف من مجهوداته الجبارة فى خدمة كنيسته وأتمت تلك الخدمة التى كرس حياته لأجلها والتى ظل يؤديها بكل أمانة ونشاط حتى أقعده المرض عنها مرغماً .

وفى يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ تحدث إلى من كدناؤا فى زيارته للاستفسار عن صحته قائلاً لهم « سأموت الليلة فأرجو أن تصلوا على فى ملوى وتدفنوني فى هور. فكان شأنه فى ذلك شأن غيره من الأبرار القديسين الذين

يشعرون بدنو الأجل وقرب الساعة . وما وافت الساعة الثانية عشرة من مساء اليوم المذكور الا وفاضت روحه الطاهرة الى بارها فلاقى وجه ربه راضياً مرضياً .

وفى ضيحة اليوم السابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٣٠ سرى نعيه بسرعة البرق فى جميع أنحاء ملوى وهور والبلاد المجاورة فاضطربت النفوس وخفقت القلوب وسالت العبرات .

وأقبل القوم على داره ووجوههم واجمة وقلوبهم دامية ، كل يريد أن يلثم يديه متبركاً منه ومودعاً له قبل أن يلف فى كفيه ويدرج فى نعشه . واكتظت شوارع المدينة بالأهلين من جميع الطبقات والمذاهب والملل وظلوا واقفين وكان على رؤوسهم الطير منتظرين ميعاد تشييع جنازته حتى إذا ما أطل عليهم نعشه محمولاً على الأعناق صرخوا صرخة الحزن من الأعماق وتزاحوا حواليه وخلفه باكين مولولين ، وكان اخواننا المسلمون يتهافتون على حمل نعشه قائلين للمسيحيين «دعونا نقوم بواجب الوفاء له فلقد أخلص فى حياته الود لنا بمثل ما أخلص لكم وخدمنا كما خدمكم وليس حزننا عليه بأخف من حزنكم» وسار موكب جنازته تلازمه الروعة وبحدوده الجلال حتى وصل الى الكنيسة القبطية حيث صلى على الفقيد لفيف من الكهنة وأبنته كثير من الخطباء ثم استأنفت الجنازة بعد ذلك سيرها حتى خرج به القوم من ملوى الى مدفنه ببلدة هور، خرجوا به من المدينة التى تغانى فى خدمة كنيسها وفى حب شعبها .

صفتات موسى يوم ذلك الطور	خرجوا به والكل باك حوله
فى كل قلب موجد محفور	حتى أتوا جدثا كأن ضريحه

وبعد أن ورى الفقيد التراب انصرف الجمع وهم سيكون شبابه الغض ويترحمون عليه ويذكرون فضائله ويعددون مآثره .

ووردت الى عائلته رسائل التعازى من جهات القطر ومن كافة الطوائف وكلها تم عن تقدير مرسلها لعظم الخسارة فى فقدته كما رثاه فى المجالات الدينية كثير من عارفى فضله .

ونكتفى هنا بأن نأثى بنص الكلمة التى نشرها بمجلة اليقظة الغراء جناب
الأب المحترم المتنيح القمص ابراهيم لوقا راعى الكنيسة القبطية بمصر الجديدة :-

« رقد فى الرب فى ليلة ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ القس منسى يوحنا راعى كنيسة
ملوى القبطية وهو لا يزال فى ريعان شبابه وزهرة عمره وكان لنعيه رنة حزن عميق
وأسف شديد ليس فى ملوى فقط ولكن فى معظم أنحاء القطر نظراً لما كان عليه
نيح الله نفسه من الصفات الطيبة والامتيازات الخاصة .

لقد كان القس منسى خادماً غيوراً يدأب بلا انقطاع على القيام بمسؤوليات
خدمته وكان واعظاً قديراً ممن تفتخر بهم منابر الوعظ والخطابة وكان مؤرخاً ضليعاً
وباحثاً مدققاً وكان مؤلفاً واسع الاطلاع كثير النشر فقد وضع عدة كتب روحية
وتاريخية ولاهوتية علاوة على مجلة (الفردوس) التى ظل يصدرها حتى دعاه الرب
لملاقاته فى عالم الراحة الأبدية .

وكان الراحل الكريم - نيح الله نفسه فى فردوس النعيم - قد شرع فى طبع
كتاب ثمين عنوانه (شمس البر) مع مؤلفات أخرى ولم يمهله القدر حتى يتم طبعها
فكتب قبيل انتقاله بدقائق معدودة خطاباً لأحد أصدقائه الخصوصيين حضرة
الخوارجا منصور ميخائيل يوصى فيه بتكليف محرر هذه المجلة باتمام طبع هذه
المؤلفات وأن يخصص دخلها لأحد المشاريع الخيرية وقد شرع محرر هذه المجلة فعلاً
فى اتمام هذا المشروع احتراماً لوصية الراحل العزيز .

ومحرر هذه المجلة يؤلمه كل الألم أن يخط بقلمه نعي هذا الراعى الأمين لما كان
بينها من المودة الأخوية والرابطة القلبية ولكن هكذا شاءت ارادة الرب ، والتسليم
واجب محتوم .

ونحن نسأل الله أن يسكب نعمة الغراء السماوى على قلب جده الشيخ الوقور
وزوجته الفاضلة وأن يمنحهما قوة الصبر والاحتمال . .

وكذلك نأثى بنص كتاب التعزية الذى بعث به السيد الفاضل القس توفيق
جيد سكرتير سنودس النيل :-

حضرة الأخ الفاضل وهبه أفندى

سلام لكم من أب الرأفة واله كل تعزية الذى يعزينا فى كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى كل ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها منه :

اليوم فقط وقع بصرى على هذا الخبر المفجع ، فكان وقعه على نفسى وقع الصاعقة . حقاً لقد شعرت اننى أمام خطب جلل وأمام كارثة مدلهمة وأمام بلوى محرقة . كيف لا وقد خسرتنا شاباً من أنقى الشبان وأرقاهم علماً وخلقاً . بل خسرتنا عاملاً فى كرم الرب من أفضل العمال وأقواهم فصاحة وكتابة ونطقاً لا بل خسرتنا أخاً وصديقاً هو وليد مسقط رأسنا وقد رفع رأسنا فى مركزنا ومدير يتنا وسائر بلاد قطرنا شمالاً وجنوباً ، غرباً وشرقاً ، فيالها من خسارة فادحة تدمع أمامها العيون وتدمى لها القلوب .

ولكننى أسمع صوتاً يقول : « أجل . لئن كنتم قد خسرتموه ياسكان الفانية فانتنا قد ربناه نحن سكان السماء ، فالراحل لم يفقد بل هو موجود وما هو الا قد غير مكانه وياها من مبادلة رابحة أن يبدل العالم السفلى بالعالم العلوى . أرض الشقاء والعناء بساء الراحة والهناء .

وأدى الأضطراب والدموع بحجة الأمن والهجوم . أجساد الأشرار الناقصين بأرواح الأبرار المكملين . نعم فلقد أبلى بلاء حسناً فى معترك الحياة وأنجز فى فترة قصيرة من العمر ما يعجز عن انجازه الكثيرون فى عمر مديد فاستحق أن ينقل من ميدان الجهاد الى مقر المكافأة والثواب ، ولسان حاله قول الرسول المعبوط «جاهدت الجهاد الحسن . أكملت السعى . حفظت الإيمان . وأخيراً وضع لى إكليل البر» .

فتشجع ياأخى ولا تحزع — أصبر ولا تضجر — أشكر ولا تكفر . والله الذى قال « كانسان تعزیه أمه هكذا أعزیکم أنا يقول الرب » وهو يعزیکم تعزیه مناسبة مع التجربة

لقد جاهد فقيد الكنيسة الشاب جهاد الأبطال ورقد الرب فنال إكليل الحياة .
جعل الله من سيرته العاطرة خير مثال يحتذيه العاملون المخلصون .



دعاء

قال الرب لنشنائيل «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الانسان».

لأن المسيح لم يدخل الى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية بل الى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩ : ٢٤).

أيها الآب القدوس يامن تريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون . أتقدم اليك بنفس منسحقة وقلب منكسر طالباً منك أن تجعل هذا الكتاب طريقاً صالحاً وسبيلاً مستقيماً الى السماء ، وكما سخرت النجم السماوى لكى يهتدى المجوس الى مكان ولادة ملك اليهود ، هكذا اجعل هذا الدليل مرشداً صالحاً وقائداً أميناً للكثيرين فيأتى بهم ويهديهم الى غلصهم العظيم وعجبهم الكريم يسوع المسيح لكى يهتموا بدمه الطاهر للنجاة من الهلاك الأبدى لأنه لا دينونة على الذين هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح إذ أنه هو النور الحقيقى وباب السماء والطريق والحق والحياة .

لك معه ومع روحك القدوس المجد من الآن والى الأبد آمين ،

* * *

الفصل الاول

فى الحياة الفانية والحياة الباقية

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية ولكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣ : ١٤)

ان السيد المسيح له المجد قد أكد لنا فناء هذه الحياة وزوالها بقول مؤثر واضح صريح أيده بمثل رائع هو أجل عبرة لمن يعتبر، ذلك هو مثل انسان كان قلبه منهمكاً انهماكاً شديداً فى محبة العالم وملذات الحياة فأخذ يرتب حسب ارشاد عقله جميع مصالحه العالمية لمستقبل بعيد المدى كأنه خالد فى الأرض وقادر على أن يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد . وبينما هو مفكر فى هذه الأمور إذا بالحكم الأعلى واقاه وطالبه بالودعة فى ساعة لا ينتظرها قائلاً له «ياغى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعدتها لمن تكون» (لو ١٢ : ٢٠).

فما أجهل المرء الذى يظن أن الحياة فى هذا العالم تدوم ، ولا يدري أن هذه الأرض ليست بدار خلود فلا نلث فيها قليلاً حتى يخطفنا الموت منها ويردنا الى المكان الذى أخذنا منه .

ان كثيرين يميلون الى الخلود والبقاء فى هذه الدنيا ولكنهم لا يدركون حقيقة حالهم فان نظرة واحدة الى قبور الذين سلفوا ، ولفتة صغيرة الى توابيت الموتى التى تمر بنا فى كل ساعة تكفى لأن تقنع قلوب الجميع بأنهم على هذه الأرض سائحون ولا بد يوماً يرحلون منها لأنهم «بنسمة الله يهيدون وبريح أنفه يفنون» (أى ٤ : ٩).

تطلع بعينيك تشاهد أمماً عديدة وممالك كبيرة بلغت من العظمة أقصاها ومن القوة منبتها . هذه كلها ستصبح بعد حين فى حكم العدم والنسيان . وقبلها

كانت توجد ممالك أسمى شادت مجدها على أمتن الحصون وأعصى القلاع وأحرزت من السلطة والقوة والجاه ما جعل الكثيرين يضمنون لها الثبات والخلود . ولكن أين هي الآن ؟ لقد تداعت أركانها واندثرت معالمها وأدركها الفناء .

أجل . الممالك تنمو وتسمو ولكنها لا تسمو الا للسقوط ولا تعلو الا للانحطاط . كم من مرة قرأنا فى سجل التاريخ عن قيام ممالك وسقوطها وسمعنا عن تنويع ملوك وموتهم . الزوال هو الجبار القوى الذى يتبع أثر مجد هذه الحياة وقد وصل الى أقاصى العالم وختم كل الأشياء الأرضية بعلامة « الفناء » . أن نبوخذنصر عندما رأى وهو يتمشى على سطح قصره مدينه بابل العظيمة وأسوارها الشاحخة العريضة قال مفتخراً « أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها لبنت الملك بقوة اقتدارى ولجلال مجدى » (دا ٤ : ٣٠) وكيف لا يفتخر مثله بمدينه كان علو سورها ثلاثمائة وخسون قدماً . وكان عرضه كافياً لأن تمر عليه ثلاث عربات متجانبه فى صف واحد ؟ ولم لا يتباهى بها ويحسبها دائمة البقاء ؟

كان الرومان يدعون رومة عاصمة مملكتهم « المدينة الخالدة » ولا جناح عليهم فى ذلك لأنهم كانوا يحكمون على الأمور حسب ظواهرها . بيد أن بابل المدينة العظيمة تلاشت ومملكة رومة الواسعة الأطراف بادت : وهكذا ترى كل ممالك العالم تدور جميعها على فلك واحد وتنزل منزلة واحدة وهى النشأة فالتناء فالجحد فالانحلال فالسقوط فالقضاء .

وما يصح على الجماعات ينطبق على الأفراد أيضاً فليس معى ثم حتى تراه الآن فى الوجود الا ولأجله نهاية ، ولا يعيش انسان الا ويزول . فقبلك كان قوم من البشر أمثالنا وكانوا يحسون الحياة كما نحيا نحن ، وكان منهم كثيرون يمتلكون القناطير من الذهب وكان منهم أصحاب مراتب عالية وجاه عظيم . ولكن لما انصرم حبل حياتهم لحقوا بمن سبقوهم وضممتهم الأرض كما ضمت أسلافهم . وقد كان من هؤلاء ملوك ووزراء وعظماء وقواد وأبطال جبابرة دوخوا البلاد بفتوحاتهم وغزواتهم . ولكن أين هم ؟ وأين جيروتهم وقوتهم وصولتهم ؟ لقد داسها الموت

ودكها المنون فكانت كأنها لم تكن كما قال المرتل «أذكر كيف أنا زائل . الى أى باطل خلقت جميع بنى آدم» (مز ٨٩ : ٤٧).

فلا بد أن جميع البشر يموتون ويختفى ذكرهم من الدنيا وكل انسان يموت فينسى ويحل غيره فيخلفه من يستولى على عمله وبيته وأراضيه وشرفه وألقابه كما خلف هو غيره ويزول اسمه من أفكار الناس زوال جسده من بيته ومن بين أقربائه كقول أيوب الصديق « كل أيام جهادى أصبر الى أن يأتى بدلى » (أى ١٤ : ١٤).

فناموس الفناء هو عام على كل المخلوقات حتى الكواكب يصيبها السقوط ، وقيل أنه شوهد عن بعد قاص « حرائق هائلة » ولا حظ الفلكيون انحلال عوالم وسقوط دوائر عظيمة كنا نظن أنها تبقى لأمعة الى الأبد . فلا بد إذن أن يفنى جميع الناس رغماً عما يعملون ويجدون فى تخليد اسمهم وذكرهم على الأرض . فقد بنى القدماء أهراماً وحاربوا حروباً كثيرة وإلهم أشار أيوب بقوله « حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيرى الأرض الذين بنوا أهراماً لأنفسهم » (أى ٣ : ١٣ و ١٤) وغيرهم شادوا بيوتاً رفعوا عمادها وأحرزوا لنسلهم شرفاً رفيعاً ومقاماً سامياً فذهبت جميع مساعيهم سدى ولم تنأ بالفايدة التى قصدوها وجدوا فى السير للحصول عليها . فقد فنى أجسادهم وعفت آثارهم ونسيت أسماؤهم واندثر ذكرهم فكأنهم ما كانوا . فالإنسان « كزهر العشب يزول . لأن الشمس أشرقت بالحر فبيست العشب فسقط زهره وفنى جبال منظره » (يع ١ : ١٠ و ١١).

كان الرومانيون يعبدون قياصرتهم ويحسبونهم آلهة فإذا مات أحدهم قالوا أنه ذهب وطلع نجماً فى القبة الزرقاء ولكنك إذا ذهبت الى رومة وتفقدت بقايا تلك المدينة القديمة رأيت أنه قد طلع على خرائب قصور قياصرتها الشوك والحسك . فما أجدر أن يقال أن أساء الناس مكتوبة على صفحات الماء فهى تمحى سريعاً وتزول من أذهان خلفائهم ولا يبقى لهم ذكر بين الناس رغم ما يفعلون لابقاء أسمائهم وتخليد ذكراهم كما قال الجامعة « ليس ذكر للأولين والآخرين أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم » (جا ١ : ١١).

ولكن مع ذلك نجد كثيرين من بنى البشر يظنون أنهم مخلوقون لهذه الأرض وان

هذه الحياة مقرهم ومقامهم ولذا تراهم يجهدون أنفسهم في سبيل الحصول على خيراتها والتمتع بملذاتها ففي «باطنهم أن بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دورقدور» (مز ٤٩ : ١١) غير أن هؤلاء في ضلال مبين لأن هذه الأرض بالنسبة اليها ليست وطناً لنا بل هي بمثابة طريق أو سبيل للوطن الحقيقي والحياة العتيدة .

قال الرسول بولس «لأننا نعلم أنه ان نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى» (٢ كور ٥ : ١) وبيت خيمتنا الأرضي الذي يشير اليه الرسول يفهم على ثلاثة أنواع أى يقصد به ثلاثة منازل نسكنها مادمننا في هذه الحياة ، وهي تحقق لنا الفناء وتؤكد لنا الزوال —

الأول : هذا العالم السفلى العنصرى الذى يشهد لنا عنه الكتاب الألهى بأنه لا بد أن يبيد ويزول بقوله «ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها» (٢ بط ٣ : ١٠) ومن ذلك ينبغى حيث أن أرواحنا غير قابلة للفناء أن نهتف مع الرسول قائلين «ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة».

الثانى : منازلنا المادية التى نسكنها والتى مهما بذلنا الجهد فى تحسينها وتزيينها لا بد لنا أن نتركها كما يقول القديس أوغسطينوس «لا تقل أن بيتك هو ملكك لأنك ورثته من أبك لأن ذلك يدل على أن أباك قد جاز فيه وتركه ومضى وهكذا أنت تجوز فيه وتركه لأنك وهو أيضاً يعبر فيه جائزاً ويتركه لغيره».

الثالث : جسدنا هذا المائت القابل للفساد . ليس هو مسكن أرواحنا على حصر الكلام بل هو بمنزلة المظلة كقول الرسول بطرس «عالمناً أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح» (٢ بط ١ : ١٤) أى أن جسدنا هو مثل الخيام التى يستظل بها المتغربون فى البرارى ولهذا نحن نتنهذ من ثقله كما يشهد بذلك الرسول بولس قائلاً «فاننا نحن الذين فى الخيمة نحن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكنى يبتلع المائت من الحياة» (٢ كور ٥ : ٤).

فاذن أين هو منزلك الحقيقي ؟ ليس هو الا اللحد لجسدك والمسكن الأبدى

لروحك . قال الجامعة « فيرجع التراب الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاهها » (جا ١٢ : ٧) فلهذا يكون من الجهل العظيم أن يهتم المسافر فى اقتناء أملاك فى احدى المدن التى يعبر عليها وهو يتأكد أنه لا يبقى بها فيجب عليك اذن أيها الانسان أن لا تدع عينيك تنظران الى كل ما تراه فى أرض العبور وان لا تجعل قلبك يتعلق بشئ معاً .

كم من الناس شرعوا فى بناء بيوت ولكن الموت لم يمهلهم حتى يتموها وكم من أناس قاسوا التعب الشديد فى بناء البيوت حتى أتموا بناءها ولكنهم لم يسكنوها سوى مدة قصيرة ثم خرجوا منها محمولين على الأعناق دون أن يكون لهم أمل فى الرجوع اليها مرة ثانية . فسيلنا اذن أن نوجه قلوبنا حيث تكون نهايتها لأنه مهما توفرت أسباب الراحة فى الحياة الدنيا فلا بد من تركها لأنها « فانية » ولنحرص جهدنا لكى نبلغ (الباقية) الخالدة . قال سليمان الحكيم « كل الأنهار تجري الى البحر والبحر ليس يملآن . الى المكان الذى جرت منه الأنهار الى هناك تذهب راجعة » (جا ١ : ٧) فكل شئ بطبيعته يطلب مركزه الأول ويميل اليه ، هكذا ينبغي لنفوسنا أن نحن للسما وتشتاق للاله لأن السما مسكنها الأبدى والله مصدرها الذى خرجت منه . قال أحدهم « لودفعت حجراً الى العلا لرأيتته قلقاً مضطرباً لا يهدأ حتى يرجع الى الأرض مركزه ، والسماك لا يعيش خارج الماء لأن هناك غايته . والطير لا يستريح فى قفصه كما لو كان طليقاً حراً وهذه رغبته . والعضو المرضوض لا راحة له إلا إذا عاد الى أصله كما أنه لا هناء للمسافر حتى يبلغ غاية سفره » هكذا عبثاً تقود نفسك الى حيث توجد الملاذ العالمية لترىحها وتشبعها فهى لا تستريح إلا إذا استقرت فى حضن مبدعها . خلق الله كل الأشياء لأجل الإنسان وخلق الإنسان لأجله وحده ولكن من المؤلم أن نرى كل المخلوقات تتمم الغاية التى لأجلها وجدت أى أن تخدم الانسان وتقوم بمطالبه ولكن الانسان وحده لا يعرف الغاية التى خلق لأجلها ولا يبالى بالاله الذى أوجده .

فاعلم أيها الانسان أن الله لم يخلقك للأرض بل للسما ، لم يخلقك للفانى بل للباقي وهذا الرسول يقول « اهتموا بما فوق لا بما على الأرض » (كو ٣ : ٢) فن العيث أن تقضى حياتك هنا فى طلب الفانيات فابحث بآمالك وأشواقك الى الوطن

المعلوى واسمع قول المخلص «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية» (يو ٦: ٢٧) لا تشيد أساساتك على الأشياء المنظورة ولا تبني بيتك على أساس واه بل ارفع قلبك الى السماء، «اعملوا لكم أكياساً لا تفنى وكنزاً لا ينفذ في السموات حيث لا يقرب سارق ولا يبلى سوس لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً» (لو ١٢: ٣٣ و ٣٤) فالطبيعة الروحية لم تخلق لأموال هذه الحياة المادية بل لأموال أفضل، فمن يشغلها بما ليس لها فقد حوّلها عن غايتها وانحرف بها الى الهلاك الأبدي. قال داود النبي «من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه. البطاهر اليدين والنقي القلب الذي لم يحمل نفسه الى الباطل ولا حلف كذباً» (مز ٢٤: ٤ و ٣).

* * *

الفصل الثانى

فى ان هذه الحياه ليست نصيباً لنا

«نصيبى هو الرب قالت نفسى من أجل ذلك أرجوه» (مرا ٣: ٢٥)
يمتاز الانسان عن سائر المخلوقات لأنه الله خلقه برأس مستقيم ترتفع الى السماء
بينما ترى رؤوس كل المخلوقات الحية منحنية نحو الأرض، وذلك يدل على أن
للانسان مركزاً خاصاً عند الله دون باقى المخلوقات التى لا تتعدى حياتها الأرض
ويثبت لنا هذه الحقيقة الرسول بولس فى قوله «فإذن نحن واثقون كل حين
وعالمون أننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب» (٢ كو ٥: ٦).

ولا نجد برهاناً على أن هذه الأرض ليست نصيباً لنا أقطع من شهادة الوحى
الالهى وشهادة الاختبار فيها يؤكدان لنا بأنها دار شقاء وتعب وأن الذى يرغب فى
امتداد حياته عليها يشتهى امتداد زمن عذابه كمن كان مسجوناً فى سجن ردىء
وإذا ما جاء يوم اطلاقه أثر البقاء فى ضيق السجن . فالذى يقصر الله أتعابه ويختاره
قبل حينه انما يمنع عنه الآلام والأتعاب كما قال أيوب «الانسان مولود المرأة قليل
الأيام وشبعان تعباً ان كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا
يتجاوزه . فاقصر عنه ليسترىح الى أن يسر كالأجير بانتهاء يومه»
(أى ١٤: ١، ٥، ٦).

فأيام حياتنا مع كونها قصيرة لكنها رديئة جداً وهؤلاء يعقوب البار يشهد عنها
قائلاً «قليلة ورديئة» (تك ٤٧: ٩) ويقول المرتل «أفخرها تعب وبلية»
(مز ٩٠: ١٠) ولو سئل جميع المشرفين على الموت من بنى آدم عن هذه الحياة
لصرخوا بأعلى صوتهم قائلين «هى حزن وشقاء، فنحن نعيش فى فساد الجسد ولا
نجد فى الملاذ الكاذبة راحة وسروراً بل خوفاً يعذب الجسد وحزناً يحرق العظام».

ولكن مما يدعو الى الأسف انه بالرغم عما فى الحياة الحاضرة من الألم والبؤس فان الناس يميلون اليها ويشتهونها ، وما أصدق قول بعضهم «الحياة شقاء محبوب ولكنها معشوقة . يشكو الناس مرارة ما يجدون فيها فاذا دنا يوم الفراق تقطعت الأكباد حسرة وارتعدت الأعضاء خيفة » ويؤكد ذلك ما قالته إحدى الفتيات « كل ما ليس أليما فى هذه الحياة سخيـف . وكل ما ليس سخيـفا أليم . سينقضى كل شىء لأنى أريد كل شىء وأنا لذلك فى هم مفزع أرسل حولى صيحات الألم ولكنى مع ذلك أحب الحياة . وأجد فيها كل شىء طيبا لذيذا حتى الدموع والألم أحب الحياة بالرغم من كل شىء . أحب أن أحيـا ومن القسوة أن أموت » .

فيا لجهل الانسان الذى يحب البقاء فى الحياة مع اشتراطها على كل من يبقى فيها أن تعذبه وتؤلمه وما أكثر الذين يقبلون هذا الشرط ليعيشوا . قال أحد ملوك اليونان « كون الانسان ملكا لا خير فيه » فاذا تؤمل اذن من دوام البقاء فى الحياة أيها التعميس وأمراضك تتابع وتتواصل . قال جان جاك روسو « ان الدواء الناجع لشقاء أمراض الناس هو الموت » فكم من أناس طلبوا أن تطول حياتهم فطالت ولكنهم لم يجدوا فيها الا الشقاء تخلصوا منها بالانتحار ، وقد قيل أن امرأة بعد أن احتفلت ببلوغها المائة عام وجدت ميتة بالاختناق وعرف بعد ذلك أنها انتحرت تخلصا من الحياة فكل هذا يدل على أن هذه الحياة ليست مركز راحتنا ولا موضع نعيمنا .

أى شىء فى هذه الدنيا يحجب لنا البقاء فيها ؟ هل الأخطار التى لا تكف والأضرار التى لا تنقطع ؟ ان الله أعطى الاسرائيليين وهم فى مصر عذابا حتى لا يشتهوا البقاء فيها ونحن أيضا أعطى لنا فى الأرض شقاء حتى لا نحسبها مقرا لنا . فكان ينبغى أن نتوق الى يوم الرحيل بفرح ولكن وا أسفاه فأننا عندما نشعر بأن الله يدعونا اليه ننزعج ونضطرب . وقد شابهنا افرام الذى شبه الكتاب بحمامة رعنا (هو : ٧ : ١١) ذلك لأن الحمامة لجهلها تود البقاء فى عشها معها قتلت فيه فراخها أو كسريضها ومهما صادفت فيه من الآلام والأهوال . هكذا نحن منع كوننا فى الحياة نقاسى كل أنواع الشقاء فأننا نخشى أن نتركها أو نرحل منها .

ان خروجنا من هذا العالم أفضل جدا وأكبر رحمة بنا من دخولنا اليه من كل الوجوه «يوم الممات خير من يوم الولادة» صحيح أنه ان ولد انسان فى العالم يفرح الآخرون (يو ١٦ : ٢١) وان مات يحزنون و يكتثون . أما من جهتنا نحن شخصا فيوم الممات الذى يضع حدا لأهتماماتنا الكثيرة وأتعبنا وأحزاننا التى لا حصر لها وينقلنا الى الراحة والفرح والسعادة الأبدية خير من يوم الولادة الذى دخلنا فيه عالما مملوءا بالخطية والتعب والبطلان وقبض الريح . نحن ان ولدنا لا نعلم كيف سنقضى حياتنا أما ان مات انسان صالح فإنه يعلم الى أين هو ذاهب وكيف سيقضى حياته فى العالم الآخر . ان يوم الولادة يثقل كاهل النفس بحمل الجسد الثقيل ، أما يوم الممات فيحررها من ذلك الحمل .

قال الحكيم «ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس فهذا دموع المظلومين ولا معز لهم ومن يد ظلمهم قهر وأما هم فلا معز لهم . فغبطت أنا الأموات الذين ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عاشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس» (جا ٤ : ١-٣) قال القديس يوحنا فم الذهب «انه ينبغي لنا أن نفرح بموت طفل وموت رجل تقى يخاف الله لأنها قد اعتقا من شقاء هذه الحياة وتمتعا بحياة مؤبدة» وقال أحد الأفاضل «ان السفينة ينبغي عليها الخوف ما دامت فى البحر فإن الرياح تلطمها والزوابع تكسرها . وهكذا فالحياة الحاضرة ما هى الا بحر مملوء صخورا وأخطاراً فن يطلب العمر الطويل فهو يطلب سلسلة مخاطر وتجارب وحروب» .

سئل يوما فيلسوف يقال له ستيكوركس : أى نوع من أنواع السفن هو الأيمن ؟ فأجاب ؟ «ان أمن السفينة هى التى وصلت الى البر» هكذا يسوغ لنا أن نقول أنه مادام الانسان فى الدنيا فهو فى عالم الخطايا فالنا لا نطلب بأوفر شوق أن نصل عاجلا الى الموضع الذى نأخذ راحتنا فيه ونحصل على نجاتنا . قال القديس كبريانوس «أن حربنا هنا مع الكبرياء والدنس والغضب وحب المال ومع بقية الرزائل الجسدية . فأن قهرنا حب المال نهضت الشهوة الجسدية واذا روضنا هذه

الشروع أعقبها الطمع وإذا أقعنا الطمع تغلب الغضب وانتفحت العجرفة وتملق
السكر وفارق الجسد الألفة وقطعت الغيرة المحبة » .

فلنسع إذا وراء النجاة حيث نكون . غير مباليين بموت الجسد وفساده فإن النوتية
إذا هاج عليهم البحر لا يهتمون إلا بإنجاة أنفسهم وإذا وصلوا إلى البر سالمين
لا ينظرون إلى سفنهم أن كانت قد تهشمت أم غاصت في الماء ولا إلى أمتعتهم أن
كانت قد بقيت أو فقدت بل ينظرون إلى أنفسهم . وقد نجوا من الخطر فليفسد
الجسد ولتتحلل عناصره وليعد إلى التراب كما كان فاذا بهم من أمر الجسد إذا
ما حصلت الروح على السعادة الأبدية ؟

الفصل الثالث فى اننا غرباء على هذه الارض

«لأنى أنا غريب عندك تزيل مثل جميع آبائى» (مز ٣٩: ١٢)
ان كثيرين من رجال الله قد تأكدوا هذه الحقيقة وهى أنهم غرباء على الأرض فقصوا حياتهم عليها تائهين فى جبال وبرارى ومغائر وشقوق وها الكتاب يقول عن ابراهيم «بالايمان تغرب فى أرض الموعد كأنها غريبة ساكنا فى خيام مع اسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه . لأنه كان ينظر المدينة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله» وقال أيضا عن باقى القديسين «فى الأيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١: ٩ و ١٠ و ١٣)

وقال داود النبى «غريب أنا فى الأرض فلا تخف عنى وصاياك»
(مز ١١٩: ١٩) فاعلم أيها الانسان أنك متغرب ومسافر ولا ريب أنه فى السفر تعب ومشقة فكيف تهوى أن تدوم مسافرا مقاسيا شتى الأتعاب والمشقات التى لا تنتهى ولا تشتهى الوصول الى نعيم الفرح والسلام ؟ كل غريب يبغى من كل قلبه أن يصل الى وطنه فلماذا ونحن غرباء لا نظهر شوقا نحو وطننا الحقيقى ؟ قال الكتاب الالهى «فان كنتم قد قتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله» (كو ٣: ١) .

فاعلم أيها المتغرب أن لك جسدا وروحا فالجسد المأخوذ من التراب يميل الى الأرض التى أخذ منها . والروح التى نفخها الله تميل الى الذى صدرت منه فإذا كنت تشعر بأن ميلك الى الأرض أشد من ميلك الى السماء فكُن على يقين بأن جسدك منتصر على روحك . قال أفلاطون فيلسوف اليونان «الانسان كائن

مركب ذو طبائع ثلاث : احداها السائق والاخرين جوادان مجنحان أحدهما كريم الأصل والثاني دنيء ، أما السائق فشأنه والحالة هذه غير السهل اليسير فيينا جواده الكريم بهم بالطيران بالمركبة والسموبه الى ذرى المجد والفضائل اذ بالآخر الدنيء الأصل يريد حطها الى حضيض الخمول والردائل . ولكن اذا كان السائق (أى المرء نفسه) حكيما رزينا كبح جماح الدنيء وأطلق للكريم العنان فسياتعالى قدرا وفعلا « فعليك أيها الانسان أن تتبين أن فى داخلك عاطفتين تريد الواحدة أن تعلق بك الى السماء وتنزع بك الأخرى الى الأرض فأيهما تنصو على أخرى ؟ هوذا داود الذى عرف كيف يذلل عاطفة العالم يقول « واحدة سألت من الرب وإياها التمس أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر الى جمال الرب وأنفوس فى هيكله » (مز ٢٧ : ٤) وقال أيضا « لماذا أنت منحنية يانفسى ولماذا تشين فى . ارتحى الله لأنى بعد أحده لأجل خلاص وجهه » (مز ٤٢ : ٥) .

فلا تغتر أيها الغريب بما يقدم لك من الاكرام فى أرض الغربة لأن الغرباء حين وصولهم الى دار غربتهم يقبلون فيها بفرح ولكن حين ارتحلهم منها يحاسبون حسابا عسيرا . هكذا أنت اعتبر نفسك غريبا مهما كان لك من المجد والغنى وثق أنك منطلق الى أب غنى والى ديار محضبة ذات منظر بهى . قال المرتل « قلت للرب أنت سيدى خيرى لا شئى غيرك ... تكثر أوجاعهم الذين اسرعوا وراء آخر ... الرب نصيبى قسمتى وكأسى أن قابضة قرعتى (مز ١٦ : ٢ ، ٤ ، ٥) .

أنه ما من فكر مقدس يصد مطامعنا أكثر من التفكير بأننا غرباء فإن ذلك يوقف سير شرونا كقول الرسول بطرس « اطلب اليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التى تحارب النفس » (ابط ٢ : ١١) فاعرض عن كل ما يعرضه أمامك العالم لأنك تجرى مسرعا الى بيتك الأبدى ومن أوشك أن ينتهى سفره لا يحسن به أن يزين مكانا ليقم فيه هكذا أنت قد وصلت الى العالم بالأمس

وستفارقة اليوم أو غدا فلا تطلب فيه مجدا ولا كرامة فالكتاب يقول «ملعون نصيبهم في الأرض» (أى ٢٤: ١٨).

كل غريب يحط رجاله فى بلد ما لا يهتم إن كان يقضى فيها ليلته مستريحاً أو متعباً لأنه يرجو أن يستريح فى وطنه فى الليلة المقبلة، فانظر الى نعيم الحياة ويؤسها وراحتها وتعها وكرامتها وهوانها وغناها وفقرها وصحتها ومرضاها نظرة واحدة لأن الذين يفوزون بنعم الحياة سيتساوون عند النهاية بأشقيائها، فارفع نظرك الى العلأ واصرفه عن الأرض وقل مع المرتل «من لى فى السماء ومعك لا أريد شيئا فى الأرض» (مز ٧٣: ٢٥) واعتبر بقول الرسول الوقت منذ الآن مقصر. لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم. والذين ييكون كأنهم لا ييكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشتررون كأنهم لا يملكون... لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو ٧: ٢٩-٣١).

قال القديس يوحنا فم الذهب مقارنا بين من يهتم بالسء معتبرا الأرض دار غربة ومن يقصر كل همه على هذا العالم «انها يشبهان تاجر ين سافرا الى بعض الأقاليم لابتياع التجارات وحين بلغا سالمين وطلعا الى المدينة افترقا فضى كل واحد منهما الى غاية. أما أحدهما فإنه شمر عن ساعده العزم وقام على قدم الاجتهاد وأخذ يحول الأسواق وأماكن المتاجر ويسأل السماسرة وأهل الخبرة بتلك البلاد عن البضائع النافعة والمتاجر الربحة ويجهتد فى الابتياح ليلا ونهارا ولا ينظر الى لذة ولا شهوة الى أن أكمل ما يحتاج اليه ثم استراح أخيرا. أما الآخر فإنه عندما طلع الى المدينة أخذ يسأل أهلها عما بها من البساتين والحمامات ومحلات الخمر وأماكن اجتماع المضحكين والحسان من النساء وما زال يقضى الأوقات هكذا ساعة فى الحمام وساعة فى البستان وساعة يأكل ويشرب وساعة يضحك على المحاليلين وكلما رأى رفيقه مجتهدا محصلا لأصناف البضائع يخاطبه معنفا على الانهماك فى التعب والاعراض عن الملذات وهو لا يلتفت اليه ولا يرجع الى خسيس رأيه الى حين انقضاء الأجل المفروض للتجار وضرب البوق بالرحيل وأقبل رجال المملكة وحراس المدينة على اخراج الغرباء من مدينتهم كالعرف المعتاد عندهم. أما ذاك التاجر الحازم اللبيب فإنه عندما سمع صوت أبواق السفر نهض

فرحاً مسروراً لسرعة العودة الى الأوطان بما حصله من أصناف البضائع النفيسة ،
وللوقت حزم المتاجر وسار سالماً غانماً ، وأما ذلك العاجز الخائب فإنه عندما سمع
صوت الرحيل وبلغ اليه الأجناد المخرجون الغرباء من مدينتهم تيقظ من غفلات
الجهل ونوم الكسل وأقبل على ذاته بالبكاء والندم والأسف والعيول وهو يسترحم
فلا يجد راحاً ويستعطف فلا يجد متعطفاً حيث أصبح بين التجار فقيراً خائباً اذا لا
مال له ولا جال ولا زاد ولا متاجر وهو مستقبل البرارى المخوفة والطرقات الهائلة
وخليق يمثّل هذا أن يموت خوفاً ويهلك جوعاً وهلعاً .

لو كان لك أن تدوم في هذه الحياة لجاز لك أن تقتنى فيها دوراً ومالاً وتذخر
الخيرات الوفيرة الجزيلة ولكن كل ما تقتنيه ههنا ليس هو من نصيبك لأنه قريب
ذلك الوقت الذي تحلفه فيه لسواك ، قال المرتل « من الناس بيدك يارب من أهل
الدنيا . نصيبهم في حياتهم . بذخائرك تملأ بطونهم . يشبعون أولاداً ويتركون
فضالتهم لأطفالهم . أما أنا فبالبر أنظر وجهك ، أشبع اذا استيقظت بشبهك »
(مز: ١٧: ١٤ و ١٥)

إن المسافر الفطن إذا جاز في بلدة أخذ معه منها ما يتمكن من أخذه ، أو أرسل
أمامه الى وطنه كل ما استطاع إرساله مما يجده ثميناً ، كذلك يجب على كل انسان
باجتيازها في هذا العالم أن يأخذ معه ما استطاع من ثمين الأعمال الصالحة . حقاً
إن الانسان سيخرج من الدنيا فارغ اليدين من كل شئ في العالم ولكن يمكنه أن
يخرج وقلبه مملوء من الإيمان ويدها تحملان ثمر إيمانه .

قيل إن مدينة كان يقيم أهلها كل سنة ملكاً غريباً عليهم ، وعند نهاية السنة
يفاجئهم أهل المدينة من حيث لا يدري فيخلعونهم من ملكه ويطوفون به المدينة
عرياناً ثم ينفونهم الى جزيرة يموت فيها جوعاً وحزناً . فحدث إن رجلاً حكيماً ملكوه
عليهم أدرك الأمر واستطاع أن يعلم ما سيجرى له فشرع يبنى في تلك الجزيرة دوراً
وقصوراً وأخذ يرسل اليها كل ما ملكته يده حتى نفى اليها وكان قد أعد فيها كل
خير ونعمة فعاش فيها غنياً رغداً مطمئناً . فلو كنا ننصرف في أمورنا الروحية نصرف
هذا الرجل الحكيم لاستطعنا أن نتنقل من هذه الحياة مطمئنين لأننا أعدنا لأنفسنا

فى بيتنا الأبدى كل وسائل راحتنا . وأحد الذين استعدوا جيداً يوم الرحيل كان يصرخ قائلاً « لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً ، ونحن غير ناظرين الى الأشياء التى ترى بل الى التى لا ترى ، لأن التى ترى وقتية وأما التى لا ترى فأبدية » (٢ كو ٤ : ١٧ و ١٨) .

فيا أيها المسافر الى الحياة الأبدية لا يهملك عدم إجلال الناس لك وإذا أعياك تعب الطريق فلا تغتم لأنك لا بد واصل الى النهاية إن عاجلاً أو آجلاً وإذا لم تكن ممن جادت عليهم الدنيا بخيراتها فلا تحزن فأولئك الذين حازوا الغنى الطائل سيحزنون فيما بعد أما أنت فستفرح إن هذه الخيرات ستكون حملاً ثقيلاً عليهم فى الطريق ولا يقدرّون أن يمروا بها من الباب الضيق (مت ١٣ : ١٢ و ١٤) وهؤلاء الحكيم يقول عنهم « ومحبتهم وبغضتهم وحسدتهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الأبد فى كل ما عمل تحت الشمس » (جا ٩ : ٦) .

فالذين يحملون أنفسهم أحمالاً ثقيلة يتأخرون لأنهم لا يستطيعون السير مسرعين فى « طريق الأرض كلها » (١ مل ٢ : ٢) تلك الطريق التى توصل الى الموطن الذى يكون مقر الجميع الى الأبد . أما الأبرار الذين طرحوا عنهم أحمال العالم وأثقاله فإنهم يصلون أولاً ويدخلون باب السماء وأما « المتأخرون فلا يفرحون به » (جا ٤ : ١٦) وهناك يعرفون أن خيرات العالم هى التى كانت علة هلاكهم فيطرحونها مزدربين بها . فإختر لنفسك إذا « النصيب الصالح الذى لن ينزع » (لو ١٠ : ٤٢) وقل مع القديس أوغسطينوس « انك يارب خلقتنا لك ولن نزال معذبين الى أن نستريح بك » .

الفصل الرابع فى حقيقة الموت

«أى انسان يحيا ولا يرى الموت . أى ينجى نفسه من يد الهاوية» (مز ٨٩ : ٤٨)

ليس شئ من أمور الدنيا إلا وهو معرض للشك حتى قال بعض الفلاسفة «ان كل شئ يقبل الشك حتى قولى هذا أن كل شئ يقبل الشك» ومن الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون فى كل شئ حتى فى وجود ذواتهم و يعتبرون الحياة بما فيها كرواً يا منام . ولكن مهما وقع الشك فى أمور الحياة فإنه يوجد أمر واقع لا دخل للشك فيه وهو الموت . ومن غريب أمر الانسان أن يعتبر ما يراه من أباطيل الحياة كالحقائق ، و يعتقد بصحة الأمور التى يكون الشك فيها بيناً واضحاً ، بينما لا يهتم بأمر الموت الذى هو حقيقة لا ريب فيها قال المرتل «باطنهم أن يوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور» ولكنهم «مثل الغنم للهاوية يساقون . الموت يرعاهم و يسودهم المستقيمون . غداة وصورتهم تبلى . الهاوية مسكن لهم» (مز ٤٩ : ١١ و ١٤).

يدخل الانسان العالم من باب ولابد أن يخرج منه من باب آخر ، فدخله من باب الولادة وخرجه من باب الموت . وعلى هذا المنوال ترى الناس على اختلاف مذاهبهم وحالاتهم . واحداً داخلاً الى العالم وآخر راحلاً عنه . ولهذا قال فيلاموس «إن حياة الانسان ليست إلا ولادة وموت . فعند ولادتنا نخرج من قبر مظلم وعند موتنا نلج قبراً أظلم وأفزع . قال أيوب الصديق «أليست أيامى قليلة اترك . كف عنى فانبج قليلاً ، قبل أن أذهب ولا أعود ، الى الأرض ظلمة وظل الموت . أرض ظلام مشتل دجى ظل الموت و بلا ترسيب و اشراقها كالدجى» (أى ١٠ : ٢٠ - ٢٢) والكتاب الالهى يصرح قائلاً «وضع للناس أن يموتوا مرة»

(عب ٩ : ٢٧) وقد قال القديس أغسطينوس «أمر موتنا هو أكيد بلا ريب . ولكن كان الطفل حين ولادته لا يعرف من أمر مستقبله شيئاً أليكون غنياً أم شقيماً ؟ ولكن أمراً واحداً يعرف عنه بكل تأكيد هو التزامه بأن يموت» .

ومتى عرفنا ذلك فما بالنّا نتصرف فى الحياة تصرف من لا يموت قط . هل نظن أن هناك قوة أو حيلة يمكننا أن نستخدمها لنمنع حكم الموت علينا أو نوخره ؟ هوذا القديس أوغسطينوس يقول «يمكن للناس مقاومة التيار الملتهم وأمواج البحر المزبدة والأسلحة المرفهة والملوك المقتدرين ولكنه حينما يأتى الموت فمن يستطيع أن يقاومه ؟ . وقال المعلم ترتوليانوس «إن الموت فى قبضة الله كالمنجل المسنون الباتر فإنه تعالى يحسم به ويقطع ويحصد من هنا وهناك . لا يميز بين المتوج الجالس على عرشه والذليل الذى يخضع له» .

فلسنا نرى هنا إذاً إلا حياة يتبعها الموت وموتاً يلزم الحياة وفى الحقيقة فإنه لا يوجد فاصل بين الاثنين فما الحياة إلا باب يدخل منه الموت وما وجودنا على الأرض إلا سياحة للقبر فالنبض الذى يحفظ كيانتنا إنما يسمعننا صوت أقدام الموت الذى يسعى اليّنا ، وما الدم الذى يجرى فى عروقنا إلا جار بجياتنا الى أعماق الموت . اليوم نرى أصدقاءنا فى أتم صحة وغداً نسمع أخبار موتهم . بالأمس سلمنا على القوى واليوم يغمض عينيه ، منذ ساعة ركبنا مطية السلام وفى بضع ساعات لا بد أن تأخذنا مطية الموت السوداء الى نهاية كل حى . آه ما أقوى إرتباط الموت بالحياة فالحيوان الذى يلعب فى الحقل ستقترب منه عما قرب السكين . الثور والحمل اللذان يرحان فى المرعى إنما يسمنان لأجل الذبح ، والأشجار لا تنمو إلا للقطع .

فتسى تأكدت ذلك لا توهم نفسك بطول العيش ولا تحدّثها كأن الموت بعيد عنك ، بل قل ياترى هل يدركنا الموت فى هذه السنة أم فى هذا الشهر أم فى هذا الأسبوع أم فى الغد أم فى هذا اليوم أم بعد هنية . قل متى تخرجين يانفسى من هذا الجسد وأين يكون ذلك ؟ أفى الشتاء أم فى الصيف ؟ أفى مدينة أم فى قرية ؟ فى الليل أم فى النهار ؟ أليكون ذلك على غفلة أم بمرض أم بحادث من الحوادث ؟ وما أصدق قول بعضهم «حياة الانسان كالعصفور الذى ينتقل من مكان الى

مكان وهو لا يدري أين يلاقى حتفه أفى عشه ؟ أم وهو يستريح على شجرة ؟ أم وهو يلتقط فى الحقل ؟ أم وهو يستقى من غدير ؟».

صور الحكماء الموت على عمود عال بشكل رجل شجاع مترجل تظهر عليه علامات البأس وهو متشح بلباس حالكة السواد بحالة ترهب النفس ووضعوا فى يده الواحدة منجلاً وفى الأخرى قوساً وحجبوا عينيه بستر غليظ من قماش تخين وجعلوا على رأسه إكليلاً مضافاً من حشيش الأفسنتين وسدوا أذنيه بالرصاص ولم يضعوا فى رجله حذاء بل أجنحة كأجنحة جوارح الطير. وقد قصدوا بشدة بأسه أن يسهنوا على اقتداره على إمتلاك كل النفوس مهما كانت عظمتها. وأرادوا باللباس السوداء أن يصوروا للناس ما يخلفه من الأحزان والحسرات. ومن تذرعه بالمنجل والقوس أن يدلوا على أنه يضرب الكل بلا استثناء. فالبعيدون عنه وهم الشبان يرشقهم بقوسه والقرىيون منه وهم الشيوخ يحصدهم بمنجله. وقصدوا من اقفال عينيه إن يسيروا الى أنه لا ينظر الى جلال العظماء ولا الى ضعة المتضعين، وأرادوا بحشيش الأفسنتين أن الموت يخلف المرارة، كما أرادوا من سد أذنيه أن يسيروا الى أنه لا يسمع التهديدات والزفريات ولا يهرب من التهديد والتخويف. ومن جعل رجله بلا حذاء الى أنه يدهم الانسان فى أى وقت. والوثنيون القدماء لم يبنوا مذابح للموت بين مذابح ألهتهم الكثيرة المألوفة والمجهولة لعلمهم بأنه آخر عدو قوى لا يدعن ولا يلين بأية واسطة من الوسائط. فالرشوة لا يلتفت اليها والتقدمة لا يكثرث بها، فلا يرحم شبيبة ولا يشفق على شيخوخة.

فكن على يقين أيها الانسان أنك ساع الى الموت. قد تغتر بهدوء فى منزلك ولكن فى نفس هذا الوقت الألوف يضطربون. قد تغتر بسلام تتمتع به الآن ولكن بيوتاً كثيرة فى هذا الحين مملوءة بالشقاء. وستمر الأيام عاجلاً وتقلب الأحوال ويصبح ما عند سواك عندك وما عندك عند غيرك، فالموت يحصد كل يوم مئات وألوفاً. وفى هذه اللحظة كم من أناس يشيعون الى المقابر ويحملون الى مقرهم الأخير وكم من دموع تنسكب وأفئدة تتوجع ونحن ننخدع بحاضرنا الذى ما أقرب تغيره !

كم من كثيرين على أبواب الموت ومع ذلك يظنون أنه بعيد عنهم . كم من كثيرين ينتظرهم الموت على أبوابهم ، بل كم من كثيرين أوشك أن يدخل الى مخادعهم ، بل كم من كثيرين قد اقترب من أسرهم ومع ذلك لا يفكرون فيه . إذا التفت سفينتان فى البحر يظهر لكل واحدة منهما أن الأخرى تسرع فى السير وهى واقفة أو تسير قليلاً ، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك فإن السفينتين تسيران . وعلى هذا المنوال نجد كثيرين إذا ما نظروا أحداً مات يتوهمون أن غيرهم يجرى الى الموت أما هم فيبقون فى الحياة لا يموتون . ولكن داود النبى يقول « أنا ذاهب اليه وأما هو فلا يرجع الى » (٢ صم ١٢ : ٢٣) .

ومما يدهش أن كثيرين من الذين غاب اسم الموت من أمام عيونهم إذا قلت لهم إن فلاناً مات بيدون إستغراباً كأنك أخبرتهم بأمر ليس من العادة وقوعه ولذلك يبادرونك بقولهم وكيف مات ؟ لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت بل عن الموت نفسه . ولو قلت لهم إن فلاناً طار فى الجولاء وقعوا فى الاستغراب ووقعهم فيه عند إبلاغهم خبر موته ، وبيدون استغرابهم بأن يقول أحدهم لقد رأيته بالأمس ، و يقول آخر لقد شاهدته اليوم فهم يظنون بأن الموت عاجز عن أن يهد قوى الانسان فى لحظة و يرديه فى برهة من الزمان : وذلك دليل على أن أملنا الباطل يتغلب فينا على علمنا الحقيقى بأننا نموت . قال القديس أوغسطينوس : الأغصان تسقط من الأشجار والأحجار من الأبنية فلماذا نستغرب موت البشر أهل الفناء ؟

أليس شروق الشمس ومغيبها كل يوم يذكرنا بأننا كما وجدنا فى الحياة سنبغيب عنها يوماً . تطلع فإذا ترى فى هذا العالم . هوذا كواكب تبدو وتغيب ، وبدور تلمع وتنطفئ وزهور تنمو وتذبل ، وأعمار تبتدى وتنتهى . وانسان يولد ويموت ، كل ما حولنا يندرن بزوال الحياة . النجوم المتساقطة تقول لنا إن الحياة زوال . الزهور الذابلة تقول لنا إن الحياة زوال . المقابر التى نشاهدها كل حين تقول لنا إن الحياة زوال . الصخور الهائلة التى مرت عليها الأجيال ونراها الآن تنحل الى ذرات كما كانت ، تصبح بنا إن الحياة زوال .

ولكننا نحن نسمع ذلك فنهزأ به ، نسمع أن أناساً يموتون فنقول ولكن نحن لنا

الحياة . نرى أناساً تضمهم القبور فنقول ولكن نحن لنا الحياة . نرى أناساً تضمهم القبور ولكن نحن لنا القصور . نشاهد كثيرين ينحطون من مجدهم الى الخسيس فنقول ولكن نحن لنا المجد الذى لا يفنى . أسفى عليك أيها الانسان هل غرك أن الله أخذ أمامك أناساً ومنحك أنت سنة واحدة أو يوماً واحداً لتعيش ؟ هل تظن أنك أفضل ممن أخذ ؟ أنك تعيش لا لأنك تحب العيش بل لأن الله أراد إنك لم تمت الآن لا لأنك تكره الموت بل لأن الله لم يرد أن تموت . فلست إذاً حراً فى أن تعيش أو تموت برغبتك لأنه لو كان ذلك صحيحاً لما مات أحد لأنه ما من أحد يجب أن يموت . فالذين يموتون إذاً يموتون رغباً عنهم وستموت أنت أيضاً رغباً عنك عندما يشاء الله سواء رضيت أم لم ترض ، وإذا أتاك الموت بغتة فلا تنسب له الخيانة والغدر بل أنسب لنفسك الجهالة والغباء لأنه أشهر علينا عدوانه من قديم الزمان فهو آخر عدو يبطل (١ كو ١٥ : ٢٦) . فإذا فأجأك بدون أن تتهاى لأستقباله فاللوم عليك أنت الذى تأمن لمن هو عدوك كما قال الكتاب « ومضى عهدكم مع الموت ولا يثبت ميثاقكم مع الهاوية » (اش ٢٨ : ١٨) .

فكل دقيقة من دقائق الحياة لا تكاد تنقضى حتى يموت فيها ألوف من البشر فلماذا تعد نفسك بين الذين يموتون بعد سنين ولا تحسبها بين الذين يموتون فى هذه الثانية ؟ فكم من المدن والبلدان تمتلئ فى كل جيل من شعوب جدد بعد أن يكون شعوب الجيل الماضى الذين كانوا قبلهم قد ماتوا . فكما إن حياة أولئك قد انقضت هكذا تنقضى حياة هؤلاء وياتى وقت لا أوجد فيه لا أنا ولا أنت ، إذ الموت لا يشيع (حب ٢ : ٥) قال أحدهم : « انك منذ مائة سنة لم تكن فى الوجود وبعد مائة سنة لا يكون لك وجود أيضاً » .

من عادات أهل إحدى بلاد الهند أنهم يقيمون احتفالاً كل مائة عام فى ساحة ، كان فى وسطها صخرة مرتفعة ، وحين يتم الاجتماع فى ذلك اليوم يخرج مناد فى الناس قائلاً « ليتقدم الآن ويصعد على هذه الصخرة من شهد مثل هذا الاحتفال منذ مائة عام ، وحينئذ يسود على الكل صمت عميق و ينتظرون حتى يبرز من بينهم رجل عبث به مر الأيام وكر الأعوام فيتناقل فى مشيئته ويصعد

الصخرة بسطاء و يظهر أمام الناس منحني الظهر مبيض الشعر مجد الوجه تكسو وجهه سحابة غم مما لحقه من البلاء ثم يتكلم بحزن عما شهده في بحر المائة عام من سقوط ممالك وانهار عروش وزوال أشخاص ويختم كلامه بقوله « كل ما أستطيع أن أقوله عن هذه الحياة أنها دار زوال فكل ما شهدته زال كما أنى أيضاً سآزول وسيأتى الاحتفال القادم وأنا تحت أطباق الثرى وقد بلى لحمى وفنى عظمى ».

فكن على ثقة أيها الانسان أنه كما سجل اسمك في غداد المولدين يوماً سيسجل أيضاً ضمن الأموات فى يوم آخر وما صنعته يوماً مع أحد أقر بائك المائتين سيصنع بك أيضاً يوم تموت ، وكما تتكلم عن رحلوا قبلك وتقص أخبارهم فكذلك سيتحدث عنك من يبقون بعد رحيلك . وكما ورثت من سبقك سيرتك أيضاً من يلحقك . ومهما نبكى عليك ولول من تظن أنهم يحبونك فلا بد أنهم يوماً يضحكون ويرجع اليهم السرور كما كان أثناء وجودك . سيأكلون على الموائد التي كنت تأكل عليها ويشربون فى الأقداح التي كنت تشرب فيها . وبينما تكون أنت مرعى للدود والحشرات يكون أقر باؤك متنعمين بما لك مبتهجين بميراثك . قيل إن أحد الملوك وهو يموت رأى أهله حوله يبكون فقال لهم « جدت عليكم بالدنيا وجدتم على بالبكاء وتركت لكم ما جمعت وتركونى أحل على ظهري ما عملت » وقال داود النبي « نسيت من القلب مثل الميت » (مز ٣١ : ١٢).

أفلا تعلم أيها الانسان الذى تتوهم أن الأرض دار بقاء أنك تمشى على جثث الأموات وأن الرماد الذى ندوسه بأقدامنا كان يوماً أجساداً نضرة جميلة بهية يتباهى بها أصحابها . وستصير أجسادنا نحن على هذا النحو تراباً يدوس عليه من يأتون بعدنا . أجل ، قد تشيد هنا داراً حسب رغبتك ولكن عليك أن تتأكد أنك سوف تهجرها الى الأبد وتستقر فى حفرة تبنى فيها عظامك . نعم لقد تفوز بالرتبة العالية والوظيفة الرفيعة ولكنك ستنزول من مقامك وتسقط من درجتك وتدرج فى الثرى بجوار أحقر الناس وأذلهم . وحينذاك فقط تغمض عيناً جسديك وتفتح عيناً نفسك وتدرى أنك بنسيانك الله ومحبتك للعالم قد انحرفت ، وتتأكد أن كل شئ عداه باطل وحينئذ تقول مع النبي « حبال الهاوية حاقت بى . اشراك الموت انتشبت بى » (مز ١٨ : ٥).

فهل هناك إذاً من شك فى الموت ؟ هل يحسر انسان على القول أنه يحيا الى الأبد أمام تلك القوة الهائلة العظيمة التى لا حد لها ؟ ضع فى عقلك أيها الانسان كيف يتصرف معك الموت ببأس وجبروت وكيف يفصلك بقساوة عن كل ما مملكت يدك وعن كل ما قضيت العمر فى اقتنائه ؟ عن أولادك الذين أحببتهم وعن زوجتك التى تحبها وعن أصدقائك الذين كانت تحلو لك عشرتهم ؟ تذكر كيف يغمض عينيك فلا تعود فيما بعد ترى بها أحداً من البشر أو تمتعها بما كانتا تملكان للنظر اليه من الأمور البهية . و يسد أنفك فلا تعود تستنشق الروائح الزكية . ويصم أذنيك فلا يكون لك من سبيل لسماع الأغاني المطربة والنفحات الشجية . و يطبق شفتيك فلا تستطيع فتحهما لتلذذ نفسك بالمأكول والمشرب ، و يعقد لسانك فلا يتحرك لشتيم الناس واهانتهم ولا للافتخار والتباهى و يشل يدك فلا تمتد لتناول الدراهم وقبض الدنانير . ويخلع قدميك فتعجز عن السعى للجمع والتكديس أولاً لتتقاع والاعتقال و يسكن قلبك فلا يعود يهتز لفرح أو يضطرب لحزن .

ثم تعال بنا نتأمل فى ما سيصير اليه الانسان بعد الموت . أنظر لهذا وقد غاب فى الرمس وتوسد التراب ثم شق عنه كفنه صبيحة ثالث يوم موته وأسأل نفسك هل هو الذى كنت تراه قبلاً ؟ ألا تراه جثة مشوهة مخيفة ؟ ألا تشتم رائحته النتنة الكريهة ؟ ما بالك تنفر منه وهو الذى كانت تنبعث من بين أردائه الروائح الزكية ؟ وما بالك تحاول أن تهرب من أمامه كأنه شبح وحش فاتك وهو عديم الحركة والقوة ؟ إن لسان حاله يقول : ألسنت أنا الذى كنت تخشى صولتى ، فما بالك أنكرتنى ونسيتنى كأنك لم تعرفنى !!

هذا هو الحال الذى سيصير اليه ذلك المتكبر أو ذاك الفخور المعجب بنفسه وجباهه وغناه وجماله الذى كان موضع وقار عارفيه واحترامهم فى المجالس ، ذلك الذى كانت تشتهى الناس أن تنال منه كلمة عطف أو تتطلع أعينهم الى جماله البديع ماذا جرى له ؟ لقد أصبح موضع النفور والكراهة عند كل من يشاهده حتى من أخص محبيه . وقد أسرع أهله فأخرجوه عاجلاً من بيته حتى لا يفسد هواء الغرفة برائحته الكريهة .

فما بالناس إذا لا نفتكر في أننا نموت والموت أمر محقق ؟ ذلك لأننا ننظر الى معاصينا ونعتقد أن الموت ينقلنا الى العذاب الأبدي . فمن لا يخاف من هذا المصير الذي يجعلنا نترك كل ما نحب هنا لنقاسي كل ما نكره هناك . قال رجل الحكيم « ما لنا نكره الموت » فأجابه الحكيم « لأنكم أنخر بتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكبرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب » فلنتبصر جيداً ولنطرح عنا الاهتمام بأمر الدنيا الذي يجعل الموت أمامنا مكروهاً مبعوضاً وهو حق ، ولنتجه بعقولنا طالبين السعادة الأبدية حتى لا نخشى الموت ولا نخافه ، لأن الأشرار يرون جهنم من وراء باب الموت مفتوحة لا يتلاعهم فيخافون . أما الأبرار فإنهم يشخص منه الى السماء فيثرونها مفتوحة لقبولهم فيفرحون .

إن من كان تحت خطر الاعداء يتصوره في كل دقيقة ، ونحن تحت خطر الموت فلنتصوره على الدوام ولنحتقر الأرضيات ونرغب في السماويات كي لا يكون لنا الموت هلاكاً دائماً بل حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا .

* * *

الفصل الخامس

فى خداع الدنيا وغرور الحياة

« طردك الى النخم كل معاهدك . خدعك وغلب عليك مسالوك . أهل خبزك وضعوا شركاً

تحتك » (عوا : ٧)

لا تستطيع أن نصف مقدار جهل الناس فى الخداعهم بهذا العالم وغرورهم بأباطيله . فلو وجه الانسان نظرة الى كثيرين ممن أغرتهم الدنيا وخدعتهم بأوهامها وكيف خسروا السعادة لجاز عنها وهرب سريعاً تابعاً خطوات الأتقياء الذين طلقوها بتاتاً وماتوا عنها فنجوا من عقاباتها الوخيمة . فالدنيا عدو ولكنها تغطى نفسها باللذة لكى يتبعها الأغنياء ، والسما حبيب ولكنها تنال بالتعب والضيق ، وهوذا الحكيم يقول أمينة هى جروح الحب وغاشة هى قبيلات العدو » (أم ٢٧ : ٦).

لو أن محبى العالم تسمعنا فيه بتدقيق لما وجدوه سوى سجن للأحياء ومقبرة للموتى ، فن أحبوه فى ما مضى أهملهم بعد موتهم ولم يعد يذكركهم ، ومن يتمسكون به الآن لا يزال يخدعهم ويخفى عداوته لهم تحت ستار الحب حتى يهلكهم أشر هلاك ، لأن شفتاه تقطران عسلاً ، وحنكه أنعم من الزيت . لكن عاقبته مرة كالافستين . حادة كسيف ذى حدين .

فالذين يتخدعون بالعالم يصفهم الكتاب قائلاً « الذين يحسبون تنعم يوم لذة . أدناس وعيوب يتمتعون فى غرورهم » (٢ بط ٢ : ١٣) ولن يفيق الانسان المغرور بالعالم من سكرة غروره به إلا عند موته إذ يجد يده فارغة مما حصل واقتنى ولا تجديه الندامة نفعاً بعد أن نفذ سهم القضاء ، وتشبه حالته حينئذ حالة سيسرا الملك الذى

هرب الى خيمة ياغيل امرأة حابر القينى احدى نساء الأمة الاسرائيلية التى كان يجارها فلم تشأ المرأة ان تغتاله ظاهراً بل قدمت له حليماً لذيذاً فشرب وأعدت له فراشاً فنام ومن ثم ضربت التود فى صدغه فلما شعر به حاول النهوض ولكنه لم يقو لأن سهم الموت كان قد نفذ فيه (قض ٤) وهذا ما تعمله الدنيا مع محبيها فانها تحزنهم فى حال سرورهم وتكدرهم فى حال صفوهم وتأثيمهم بالموت وهم ناعمون فى أباطيلها متقسون بغرور الخطية (عب ٣: ١٣).

فما أعظم خداع الدنيا وغرور الحياة إذ لا نهاية لها إلا الموت والبوار فلا تشغل إذا بما تعرضه أمام عينيك بل اهرب من أكاذيبها أن شئت النجاة من الموت والهلاك فان الأباطيل التى يهاها أهل العالم ويرتاحون اليها تقودهم الى الاضطراب وتنتهى بهم الى الأحزان لأنها تبتدى بالخير وتنتهى بالشر. ولوفتش الانسان عن مقدار الألم الذى تحتم به الدنيا لذاتها لولى مدبراً كمن يهرب من أفعى. فهى كينوى التى قال عنها الكتاب «كل من يراك يهرب منك» (نا ٣: ٧).

وإذا أردت التحقق من صدق قولى فعليك بمن سبقوك فى هذا الوجود وكانوا من أعظم محبى العالم، سلهم وهم على فراش الموت أحقاداً صداقة العالم صادقة؟ وهل يفارق الصديق صديقة بدون أن ينطق كلمة وداع أو يذرف دموعاً حنين؟ تحقق جيداً لماذا لا يكون على العالم وكانوا من قبل يحبونه؟ تجدهم أصبحوا يحملون له فى قلوبهم كل حقد وضعينه. يموتون وهم مملوون غيظاً من تصاريفه ويتمنون لو يعودون اليه لينتقموا لأنفسهم منه لأنه غدر بهم. أسمعهم يقولون «ان البلىا الكثيرة والمصائب المتعددة التى أوقعها بنا العالم فتحت بنابيع دموعنا حتى لم نجد قطرة واحدة نجود بها عليه يوم فراقنا له. حادقوا بنا جيداً لتروا الغضون التى خلفتها الأوجاع والهموم ظاهرة فوق جبين كل واحد منا وخطوط الدموع التى أسبلتها الأحزان ظاهرة فى وجوهنا وقد حزت فى جلاب خدودنا».

ان أهل العالم ينظرون اليه فى مظاهره الخلابه فيحبونه ولا يحسبون حساباً لما يخبئهم فى طوابعه من التعاسة والشقاء فلا يخذلك منظره الآن ولا تعباً بالحال الذى هو عليه فى هذا الوقت بل ترقب ما سيكون أخيراً. لقد دخلت الدنيا ولكن

لا بد أن تخرج منها . وإن كان دخولها مفرحاً فالخروج منها محزن . لا يغرنك الجمال الحاضر بل تأمل الشناعة التي يتحول اليها ، ولا تظن غير مبال بالعواقب المحزنة التي ستؤول اليها سائر اللذات التي تتنعم بها هنا فالدنيا إنما هي كالذين قال عنهم الرسول بولس « انهم بالكلام الطيب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السلماء » (رو ١٨ : ٦).

قيل أن رجلاً هرب من أمام وحش وجعل يعدو بسرعة حتى سقط وهو لا يفطن لما ينتهى اليه — فى حفرة عميقة ولحسن حظّه تعلّق بشجرة ثابتة فى جانب الحفرة وتمسك بأغصانها وبعد أن هدا روعه أبصر جرّدين أحدهما أبيض والآخر اسود بقرضان أصل الشجرة حثيثاً بلا فتور حتى ظهرت أنها على وشك السقوط وأحدق بنظره الى عمق الهوة فإذا بتنين مخيف يتوقع سقوطه لابتلاعه فرفع نظره خوفاً فشاهد بين ورق الشجرة قليلاً من العسل يقطر . فلما رأى الجاهل ذلك أهمل التفكير فى كل الأخطار المهددة به وشرع يلعق من ذلك العسل السائل نقطة نقطة حتى سقطت به الشجرة وارج ضحية التهاته بالحلاوة الوقتية التي هى المارة المؤبدة ! وكمن من الناس كهذا الجاهل يتلذذون بما تقدم لهم الدنيا من حلاوة اللذات ويعمون عما تجهز لهم من عظيم الضيقات والمشقات .

هذه هى حقيقة الحياة ، الخير فيها يقبل ثم يدبر ويعقبه الويل والهلم المقيم . ومن عادة الدنيا إذا قدمت فى الظهيرة طعاماً طيباً لذياً ففى المساء تقدمه مريعاً ممجوجاً . وبينما نجد أهل العالم يقولون سلام وأمان يفاجئهم الهلاك بغتة . فلا تنظر للأوائل الخداعة بل للأواخر اللداعة فما عاقبة اللذات إلا مرارة وما نهاية هذه الحياة التي تحبها سوى دود ورماد ، وما غاية كل خطية مميتة سوى العذاب الشديد ، وفى المكان الواحد تقام معالم السرور ثم تقام علامات الحزن والكآبة فلا تتأثر بالمجد الباطل بل انظر الى عاقبته المرة . ولا تأخذك اللذة التي هى بين يديك بل فكر فيما يعقبها من الهموم والغموم . سيأتى على الخاطئ وقت يقول فيه ليتنى ما كنت أخطأت وهذا الكتاب ينهنا قائلأ « لا يخدعن أحد نفسه » (١ كو ٣ : ١٨).

ما الذى يحجب الانسان فى هذه الدنيا ؟. أليس أنها تمتص منه الدماء وتسلب منه الراحة مقابل تلك اللقيمات التى يزدريها ومقابل تلك الخرق التى يتزربها . وفى ختام الأمر كله يخرج منها وقد ظلم فى أجره ، يخدمها بدون مكافأة و يتعب كثيراً ثم يطرد منها صفر اليدين . ضحكت عليه وهى تحسن له سبيل خدمتها بوعود ظاهرها الأمانة وباطنها الخيانة حتى إذا أمن اليها رمت به بين أنياب الهلاك وذهبت تستقصى عن غيره لتنال منه ما نالت من سابقه . مال اليها وأحبها وخدمها باخلاص وأقسم لها يمين الولاء فخانته . كرس عينيه للتطلع الى جاهها فحملتها على أن تسكبا دموعاً غزيرة . قدم لها قلبه فداسته غير مبالية بالآلامه وكانت كالرجل الظالم الذى لا يعطى أجراً لمن يتعب فى خدمته . قال أحد الآباء « نجاح هذه الدنيا ونعيمها يشعشع كالمصباح اللامع الضياء الذى يبقى ما دامت المادة . أما بعد فأنائها فيعود دخاناً كرىه الرائحة ».

قال يوحنا الانجيلي « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم . إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب . لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة . ليس من الآب بل من العالم . والعالم يمضى وشهوته . وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت الى الأبد » (١ يوحنا : ٢ : ١٥ - ١٧) ويحقق لنا هذا أننا لا نجد فى هذه الحياة امرئ لا يشكوهما ولا يبكى غماً . من من الناس لم تمتد اليه يدها بالأذى ، فى الطفولة بأكين وفى الشبوبة خائبين وفى الشيخوخة مذلين . فى الحياة شقاء وفى الموت انزعاج . فى الصحو اندھال وفى النوم اضطراب . فى النهار مناظر مخيفة وفى الليل هواجس مرعبة ، فساعات الحياة حلقات متصلة من الآلام كل منها تدفع الانسان الى الأخرى فيجدها أمر وأنكى .

إن الذين يعشقون الحياة مع ما ذاقوه فيها من المروم مع ما قاسوه من التعب معتقدين أن مستقبلهم سيكون أفضل من ماضيهم ، وإن ماضيهم ان كان مرأ شقياً فسيكون مستقبلهم حلواً سعيداً . هؤلاء قد ضلوا لأن الدنيا تصرفاً واسعاً مع جميع أهلها وما تبدئ به معهم أفضل مما تنتهى بهم اليه وقد يكون ما مضى أفضل بكثير مما يأتى صرح بعض الدجالين أنه فى الامكان كشف المستقبل ومعرفة الآتيات

بواسطة الشعور النفسى أوبتوسع علم قراءة الكف فقالت الصحيفة التى نشرت هذا الخبر «إذا أمكن ذلك فيالشقاء البشر و بالتعاسة الحياة ومرارتها وما ذلك إلا لاعتقاد الانسان الأكيد بأن فى الحياة الكثير من الشقاء والألم .

حقاً إن غرور الدنيا وغشها ظاهران للعيان وأعمالها توضح لنا شرها وتنادينا بأن لا نجها لأنها كالأفعى تلدغ من يصادفها فيجربى سمها فى دمه فيقتله ، وهى كالنار تؤذى كل من يقرب اليها ويلاصقها . تأملها تجدها تخالط قوماً وتعمى آخرين ، فإذا ولت فهى لا شئ وإذا أقبلت فهى كالخيال ومتى ارتفعت كانت دخاناً . هى عند الجهال حلوة لذيدة وعند الحكماء مرة كريهة . فحبوها غير عارفين بها ومبغضوها مخبرون تصاريفها فهى توثق وتضطهد الذين يخدمونها وتجلب على عاشقها هوماً وضيقات ، تهين الذين يكرمونها وتنسى الذين يتغنون بذكرها .

فينبغى أن يكون أشد خوفنا من العالم عندما يميل إلينا ويظهر حبه لنا . فى ذلك الوقت يجب أن نمقته أكثر مما نبغضه عندما يضطهدنا علانية . لأنه كالرجل الظالم يغرى صاحبه ويسوقه الى طريق غير صالحة (أم ١٦ : ٢٩) فبقدر ادعائه مصادقتنا يبطن لنا فى جوف تلك الصداقة الموهومة كل الأخطار التى تهلكننا . وإذا كنت تراه يبتسم لك حيناً فلا بد أن يكشف لك أبداً عن أنيابه . وإذا كنت ترى الآن قوماً يضحكون فلأنهم لم يقفوا بعد على أسرار خداعه وسيأتى عليهم وقت يكونون فيه مطلع الساخطين عليه ويرفعون عقيرتهم بالشكوى من خيائته و ينتظرون اليوم الذى يحصلون فيه على النجاة منه انتظار الغريق حبل النجاة ، وانا نشاهد عن قرب ذلك اليوم الذى يقضى فيه على كل أمل لهم ويخيب آخراً رجاء لهم . فالدنيا إلا كالطائر الذى قيل أنه ما هبط على شجرة إلا واسقط كل أوراقها . ينشأ الانسان فيها مضطرباً بالأمال فإذا بها تخيب أماله الواحد بعد الآخر . وإذا خيبت له أملاً أطمعته بتحقيق الأمل الآخر حتى يخيب الأمل الآخر حتى يخيب آخر أمل له وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فيموت وهو يصرخ بتلك الكلمة التى صرخ بها رابليه الشاعر الفرنسى وهو يحتضر « انزلوا الستار فلقد انتهت الخدعة » .

وما أشد شقاء خيبة الأمل . لتتصور انساناً ألف صديقاً وأولاه ثقته فكيف يكون حزنه إذا خانه ؟ وهكذا ينشأ الانسان محباً للعالم معتبراً اياه صديقاً وفيماً وخادماً أميناً وإذا به ينكشف له أنه العدو الألد والخائن الأشر . قالت زوجة الكسيس بن بطرس الأكبر قيصر روسيا « لا ريب أن العالم مفعم بالأحزان وأن الأيام تذخر لي في ثناياها أشد الصروف وأعظم المصائب وفي الواقع اني لم أعرف منذ حدثتني معنى السرور إذ كنت لا ألبث أن أصادف شيئاً من الانشراح حتى يداهنني الشقاء . ومما يزيدهنني الآن ألماً أن حزني ناشئ عن شخص هو أعز علي من أن أشكوه . وحيثما جلت بفكري أدركت أن لا فائدة من معاندة الأقدار لأن كل أمرى عرضة للشقاء مادام عائشاً في هذا العالم المفعم بالأحزان .

فلو كان العالم يظهر للناس بحقيقته فلا يعطيهم خيراً يعقبه شر ولا يمنحهم نعمة تليها نقمة ، لكان ذلك أفضل لأن أشد ما يتألم الناس له هو ضياع النعمة من بين أيديهم . وما كانوا ليسيكون على نعمة زائلة ويجدون مرارة في فقدانها لو لم يذوقوا حلالاتها . فالدنيا تمنح النعمة فيغتنب بها الانسان حتى إذا ما رأته بذرة الأمل التي غرستها في نفسه قد نمت وازدهرت وأنه قد استعذب طعمها وأستطاب مذاقها كرت عليه فانتزعتها من يده وهي قريبة من فقه كما تنزع الكأس من يد الظامى الهيمان ليعظم وقع السهم في كبده .

فيا الشقاء من ينهمك بالعالم ويا السعادة من يتهاون به . لعلكم تغترون بما تهبه الدنيا للبعض من زخرف المعيشة . ان كان ذلك فاعلموا ان غناها ممزوج بالخوف ، وصحتها بالفقر ، وعظمتها بالهم ، وحكمتها بالشقاء . بداءتها عدم راحة ونهايتها ندامة . تتترك الأحياء ولا تصاحب المائتين ولا تسأل عن الغائبين . كم من أناس كانوا يظنون أن العالم لهم وإذا بهم يتركونه فجأة و يبقى العالم بعدهم دون أن يذكرهم أو يقدر لهم أنهم كانوا يوماً من محبيه . واللذات التي عرفوها وانهمكوا فيها لم تعد تذكر هيامهم بها وميلهم اليها .

ان الدنيا سخيفة في عقابها بخيلة في انجاز وعودها ، ليقم جميع محبي العالم وليقولوا لنا هل كان لهم في وقت من الأوقات لذة بدون ألم ، أو سلام بلا فتنة ،

أوراحة بلا تعب ، أو عافية بلا مرض ، أو شبع بلا جوع ، أو فرح بلا حزن ؟ الدنيا تعد بالخيرات وتعطى جميع الشرور والمضرات . تعد باللذة وتعطى هوماً وشدة . تؤكد مواعييدها وللوقت تخون عهودها . تعد براحة وسرور وتعطى تعباً وكداً . تعد بأفراح وانسراح وتعطى أحزاناً وبلايا ، تعد بالشرف والكرامة وتعطى الذل والأهانة . تعد بطول العمر ولكنها تفضن بحياة قصيرة ذات شقاوة شديدة .

وعلى هذا المنوال تعد الدنيا بشئ وتعطى غيره ، وأهل العالم لا يفتنون الى هذا الخداع حتى يتبدد ليل هذه الحياة و ينبلج الصباح وعند ذلك يحضرهم الموت فيدركون أنهم قد انخدعوا وان أتعابهم الدنيوية قد ذهبت عبثاً فيصرخون بمرارة ويقولون مخاطبين اياها « كنت تهيننا المسرة رذاذاً وتطلقين دموعنا بغزارة . كنت تعطينا الطعام لقمة لقمة ، والشراب جرعة جرعة . تهديننا الأوجاع بغير كيل وتسمعين للآلام أن تتراكم علينا بلا حساب . اذا تعطفت علينا بيوم فرح اغدقت علينا نظيره بأيام كدر . إذا غدونا يوماً أصحاء قضينا أياماً مرضى . إذا تمتعنا مرة بالأصدقاء التقينا مراراً بالأعداء » .

أفتر يد إذا أيها الانسان أن تكون في عداد الجهال الذين يخدمون العالم وهو يخدعهم فيتم عليك القول « لماذا تنزون فضة لغير خبز وتعبدكم لغير شبع » (اش ٥٥ : ٢) قال أحد الأفاضل « هل تظنون أن العالم إذا كرستم حياتكم لخدمته يعطيكم حتى تشبعوا . وهب أنه أعطاكم حتى تقولوا كفى فلا ريب أنه يسترد منكم ما أعطاكم أياه لأنه مع كونه كالتاجر الحكيم الذي يحاول أن يحفظ مركزه أمام الناس فهو أيضاً كالتاجر الذي ليس له من المال ما يكفي لجميع مدينيه فيختلس من هذا ليعطى ذاك ويسلب ذاك ليوفى هذا . وهو كمشوش حيناً اضطرب أن يعطى ثلاثين حلة من الثياب للفلسطينيين الذين فسروا الأحجية فانه قتل ثلاثين فلسطينياً آخرين وأعطاهم حللهم (قض ١٤ : ١٩) هكذا العالم إذا أراد أن يكسو واحداً فلا سبيل له الى ذلك إلا من تعرية آخر . وعمله هذا يشبه عمل الزارع الذي يكسح الأزهار والأشجار الذابلة ليخلي مكانها لغيرها . فالغنى ينتقل من بيت الى بيت وكذلك الفقر من منزل الى آخر . لقد وهب احشوش يرش الوزارة لمدخاى ولكن بعد أن سلبها من هامان (أس ٨) .

قال أحد الحكماء «أيها الرجل لا تخدع كما خدع غيرك من قبلك . فان الذى أصبحت فيه من النعم إنما صار اليك بموت من سبقك وهو لابد يوماً منصرف عنك الى سواك . فلو كانت الدنيا للعالم لما أخذ الجاهل منها نصيباً ، ولوبقيت للأوائل لم ينل منها إلا آخر شيئاً . لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ثم عطفك عليك وسلمت اليك مقاليدها ثم سرت فى طريق الموت فهل كنت تهناً بها . لا فخر فى ما يزول ولا غنى فى ما يفنى .»

ليت العالم إذا أراد أن يسترد ما وهب بينه قبل أن يقتال ، ولكنه شره يأتى فجأة على محبيه وهم فى ابان مجدهم وعظمتهم فكم من كثيرين اختطف منهم الكأس بغتة وهم يرفعونها الى شفاههم وكانوا يؤملون أن يحتسوها بلذة . وكم من تيجان تحطمت بعد مجد وانتصار ، وكم من ذوى جاه ما كادوا يتمتعون بجاههم ويستريحون مما قاسوا من العناء فى سبيل الحصول عليه وإذا بهم قد انفصلوا بغتة عن كل ما يؤملون . يجرى الانسان وراء الدنيا وهى تجرى أمامه حتى إذا عرفت أن قوته وهنت وقفت ليلحق بها وما يكاد يلمسها حتى يؤخذ من الحياة بحسرة أبدية .

غسبى ذاك الذى يفرح بمنظر يعرضه العالم أمامه قال القديس يوحنا ذهبى الفم «أن فرح العالم ليس فيه شئ يعتبر راهناً ثابتاً ولكنه زائل جميعه وهو يشبه النهر الذى يجرى عند انسكاب الامطار على الأودية فيظن من يراه انه نهر ثابت يدوم وهو بالحقيقة نهر مستعارة مياهه وينتهى بغتة مع انتهاء المطر» . جميع الذين خدعوا بالعالم يصرخون بعد معرفتهم ذلك قائلين «لماذا ضربتنا ولا شفاء لنا . انتظرنا السلام فلم يكن خير . وزمان الشفاء فإذا رعب» (ار ١٤ : ١٩) وحالهم هذا يشبه ما قيل عن جبل وسوبويس الذى عندما يحث الزراع سطحه ويلقى عليه البذار يزهو سريعاً ويبين له ربيعاً دائماً بعشبه الأخضر ، وخريفاً بهيجاً بفاكهته اللذيذة ولكنه عندما يقترب ، وقت الحصاد يثور من جوفه بركان عظيم فيتلف فى ساعة ما أثمر فى أمد طويل .

فإذا أراد أحد أن ينال من العالم سعادة حقيقية فليعلم أن العالم يأتى لمن احتقروه وازدروا به ، ويولى ويهرب ممن أحبوه ومالوا اليه . فالذين احتقروه صاروا

ممجدين وناولوا فخراً سامياً وذكرهم يدوم الى الأبد . أما الذين أحبوه فليس من يذكركهم و يعرفهم بل يوجد من يهزأ و يسخر بهم . فانظروا جيحزى غلام اليسع يجرى وراء العالم و يسعى خلف نعمان طالباً المال مستعملاً الكذب فى سبيل الحصول عليه . وانظروا آية مكافأة كافأه بها العالم على محبته إياه فى قول اليسع النبى له « برص نعمان يلصق بك و ينسلك الى الأبد . فخرج من أمامه أبرص كالثلج » (٢ مل ٥ : ٢٧) ومن الجانب الآخر نرى الثلاثة الفتية حينما عرض عليهن نبوخذنصر المجد مقابل السجود للتمثال والا يلقيهن فى أتون النار فانهن أجابوه بشجاعة أنهم يرفضون كل كرامة يعرضها عليهن ولا يتركون عبادة الههم . ولننظر الى ما كافأهم به الرب على رفضهم السجود للتمثال « حينئذ قدم الملك شدرخ وميشخ وعبدنغو فى ولاية بابل » (٣ : ٣١) .

العالم ليس له الا أن يوصى بالشر ولكن لا يساعد عليه وهو أشبه بفرعون حينما ثقل العمل على الاسرائيليين ولكن لم يعطهم حتى التين اللازم لصنع اللبن (خر ٥ : ١١) قال السيد المسيح « هل يجتنون من الشوك عنياً أو من الحسك تيناً » (مت ٧ : ١٦) وهكذا أنت لا ترجو من الدنيا ثمراً صالحاً فهى لا تعطى الا الكذب والبهتان . فكم من كثيرين استخدمتهم فى أعمالها ولكنهم فى وقت بليتهم التمسوا منها العون لتركهم كأنها لم تكن تعرفهم . فحجب الدنيا يتمتع قليلاً بما تقدم له لكى تطغيه ولكنها إذ تنال مأربها منه فأنها تسخره فيما بعد . وكم لعبت بسادات وأرباب ورؤساء ، وبعدها أطفعتهم وأصلتهم كرهتهم وهم فى حال لذة ملاعبهم ثم أهملتهم مطروحين بغير سلوان .

فإذا رفعتك الى منزلة عالية فأياك والوقوع وكن محترساً فأن الذى عملته مع من تقدمك تعمله معك أيضاً . فهى فى تصرفها كالجلاد الذى بعد أن يرفع المجرم الى المشنقة يدفعه برجله و يطرحه مهاناً . فهى إذا ترفعت لكى تسقط .. وبمقدار علوك يكون سقوطك . فالذى يسقط من علو شاهق ليس كالذى يسقط من علو منخفض وهوذا الكتاب الالهى يقول « قد غرك تخويقك كبرياء قلبك ياساكن فى محاجى الصخر الماسك مرتفع الأكمة وان رفعت كنسر عشك فن هناك أحذرک يقول الرب » (ار ٤٩ : ١٦) .

ان العاقل يرى بعينيه العالم واقفاً يضحك على الذين عرقلهم يمجده و يظهر سروره واضحاً عندما يصل الى سمعه صوت تأوهاتهم المتواصلة التي سببها هم غرورهم به ، أنظر بعيني عقلك أيها المغرور بالعالم تراجمادات الثابتة تسخر منك والعالم يلعب بك . الخرائب والاطلال تضحك عليك يامن مر بها عزك وشقاؤك ، سرورك وحزنك ورأت أن كل ما يمنحه لك العالم باطل .

•

فالأفضل لك أيها الانسان إذاً أن تهجر الدنيا قبل أن تهجرك هي . اترك العالم الذى يتحرك تركاً أبدياً . اطرح نيره عنك قبل أن يحول ظهره لك . لا تكن أعمى لحفظ منا ستخلفه رغماً وقهراً واسمع قول الرسول « وإنما أقول هذا القول لئلا يخدعكم أحد بكلام ملق » (كو ٢ : ٤) فأولى بك أن تضحك على الدنيا ولا تدعها تضحك عليك لأن هم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان كلمة الله فى قلبك (مت ١٣ : ٢٢) أما شهوات الغرور فان بسببها يأتى غضب الله على أبناء المعصية (اف ٤ : ٢٢ ، ٥ : ٦) .

قد تقول يا أخى : إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل لنا إذاً إلا ترك العالم وهجرانه . فيجيب على ذلك أحد الأفاضل قائلاً « ان الطيور تنزل أحياناً لبعض الحقول لتلتقط قوتها أو تنحدر على عين ماء لتستقي ولكنها تعلم أن هذه أماكن ليس لها فيها أمان ، لأن فيها ترصد لها الأشراك وتصوب اليها السهام فلا تهدأ إلا إذا صعدت قمة الجو » هكذا ينبغى لنا أن نكون كمن قال عنهم الرسول بولس « والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه » (١ كو ٧ : ٣١) أى أنه يجب أن نعيش فيه مكثفين بقوتنا وكسوتنا (١ تي ٦ : ٨) وحذرين كل حين لئلا يوقع بنا ويقتنصنا لارادته (٢ تي ٢ : ١٦) وينبغى أن نكون فى العالم بأجسادنا ولكن نوجه الى السماء بأرواحنا وآمالنا وأشواقنا .

قال أحد الحكماء « الزاهدون فى العالم كالنفس فى الجسد فهى فيه وليست منه هكذا هم فى العالم وليسوا منه » وقال آخر « إن المسيحى الحقيقى هو كالسفينة التى فى البحر فلا يغرقها وجودها فى الماء إنما الذى يغرقها دخول الماء فيها .

كذلك المسيحى لا يضره كونه فى العالم بل يضره كون العالم فيه وقال السيد المسيح فى صلاته الأخيرة من أجل تلاميذه « لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير. ليسوا من العالم كما أنى لست من العالم » (يو ١٧ : ١٥ ، ١٦) وقال رسول يولى الذى بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر والشرير ، (غل ١ : ٤) .

الفصل السادس

فى ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها

«هشفتيه يتنكر المبغض وفي جوفه يضع غشاً إذا حسن صوته فلا تأمنه لأن فى قلبه سبع رجاسات»

(ام ٢٦ : ٢٤ و ٢٥).

«عظم الناس الدنيا وهى حقيرة وأصبح بعضهم يقاتل البعض من أجلها كما تتقاتل الكلاب على الجيفة . حقاً تلوح الدنيا فى الظاهر ذات منظر بهيج يجذب القلوب ولكنها من الداخل مملوءة فساداً وأباطيل . تغريك بأنها جيدة وأن أمجادها حسنة وهى فى الحقيقة تتكلم زوراً وهتاناً . فلا تجعل قلبك إذاً على محبتها ولا يخدعك رونقها فانها تشبه القبور التى تراها من الخارج مبيضة مزينة ولكنها من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نثانة (مت ٢٣ : ٢٧) احترس من أن يخاتلك هذا العالم الغرار، وأن يستهويك بجذب نظرك الى هيئته الخارجية وطلاوته الظاهرة ، لأنك لو تصفحته جيداً وعرفت ما بداخله لشاركت من عرف حقيقة حاله وصحت معه قائلاً «باطل الأباطيل الكل باطل» (جا ١ : ٢).

قال أحد الآباء «لو كان هذا العالم الجميل ينشق بسكين الحق والانصاف لظهر أنه زور وباطل بجملته ، لأن كل ما يوجد فيه إما ماض أو حاضر أو مستقبل ، فالماضى لا وجود له ، والمستقبل مجهول غير معروف ، أما الحاضر فهو زمن غير ثابت . إذاً باطل الإعتماد عليه ، باطل كل شىء فيه إلا محبة الله والمواظبة على عبادته».

الاناء الفارغ متى ضربت عليه قارعاً يطن بصوت عال . هكذا العالم لو ضربته مختبراً طربه وملذاته فلولقت تسمع رنين أباطيله وطين فانياته ولكنه فارغ عديم الثبات . قال أحدهم «كلما رأيت بناء شاهقاً يناطح السحاب تذكرت الحجر

الصغير المشوه الذى رماه البناء فى الأساس » وقيل ان صنم أبوللون الذى كان فى دلفوس كان مزيناً من خارج بجلى الذهب والفضة وفى رأسه صفائر ذهب مرخية على منكبیه وكان ضابطاً فى يده صاعقة ومسجوداً له من الجميع . إلا أن لوكيانوس عندما عاين قوماً كثيرين يسجدون لهذا الصنم بغاية الورع والاحتشام طفق يستهزئ بهم قائلاً « أيها المساكين انكم إنما تنظرون الذوائب الذهبية من الخارج إلا أنكم لا تدرون أن هذا الصنم الذى أنتم تسجدون له باطنه فارغ وخاو، ترقص فيه الفئران و يعلق به العنكبوت والغبار ». هذه هى صورة الدنيا فالتاس حولها يسجدون ، وبها يتغنون ، ومجدها يعشقون ، ولا يعرفون أن فى داخلها الفساد والمتون .

ان داود النبى دعا نفسه فقيراً لا لأنه لم يكن له نصيب من مجد العالم ولكن لمعرفته بأن كل شئ دون الله باطل . فهل أدركنا مع داود وهو فى أبهة الملك وعلى رأسه التاج الملوکى اننا فقراء ومساكين ؟ لوخير داود بين تاج الملك الأرضى الذى يراه وتاج الملك السماوى الذى لا يراه ، لطرح الأول وعاش فقيراً ليحصل على تاج السماء لأن ما يرى وقتى وأما ما لا يرى فهو أبدي (٢ كو ٤ : ١٨) .

فالحياة واحدة للجميع ليس فى الدنيا طليق وسجين ، ناعم ومعذب ، غنى وفقير . فللطليق من جسده الفاسد أظلم سجن لروحه ، وللناعم من تبكيت ضميره أشد عذاب ، وللفنى من احتياجه للراحة فقر مدقع . هذا على أن الدهر إذا ابتسم لنا يوماً وأضحكتنا ساعة فهو يبكينا و يعذبنا الى النهاية . وإذا كنت ترى اختلافاً ظاهراً بين انسان وآخر فتسمع إن هذا سعيد وذاك شقى ، هذا عظيم وذاك حقير ، فاعلم أن هذه الامتيازات ظاهرية فقط ومع أن تاريخ كل انسان يختلف عن تاريخ الآخر وما هو مسجل فى تاريخ كل امرئ من الحوادث يختلف عما هو مسجل فى تاريخ الآخر ، إلا أن أيوب الصديق جمع فى كلمتين ما يصح أن يعتبر تاريخاً لكل انسان إذ قال « الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشعبان تبعاً » (أى ١٤ : ١) فمن يستطيع أن يقول — مهما كنا نتصوره سعيداً — أنه لم يشع تبعاً !

قال السيد المسيح عن العالم «لأنى أشهد عليه أن أعماله شريعة» (يو ٧: ٧) ويحقق لنا هذه الشهادة الاختبار الشخصى الذى يدلنا على أن المظاهر العالمية خلاف باطنها . توجد أشياء كثيرة تلوح للإنسان كأنها حلوة وجميلة وهى تطوى فى داخلها موتاً وهلاكاً . توجد أخطار متباينة ونكبات مختلفة مطلية من الخارج بطلاء اللذة والسرور وهى مستعدة أن تفتك بكل من يدنو منها فتكاً ذريعاً . ولكن الكثيرين لا يفحصون تلك الأمور ليروا حقيقتها وما هو كامن فى جوفها ، بل يندفعون اليها بشوق و يلبسونها بشراة ، وما تكاد تستقر فى بطونهم حتى يخروا على الأرض صرعى شهواتهم وأمياهم .

يعلم الجميع أن الموت هو ألد عدو للإنسان ، ولكن ماذا نقول إذا كان كثيرون يسعون وراء الموت وهم لا يعرفون . أى أن هذا الموت لا يتمثل لهم بصورة شنيعة تنفر منها الطبيعة البشرية بل يلبس صورة أخرى ليئة كما يلبس الذئب ثوب الحمل . والناس ينخدعون بهذا الموت المزين المتنكر و يتقدمون اليه غير عالمين أنه عدوهم الألد دون سواه .

يقولون ان الحرب خدعة وكم من مرة سمعنا أن رجلاً قاسياً تزىا بزى اللطف لكى يهلك عدوؤه ، وان جندياً تظاهراً لأعدائه بأنه منهم لكى يلقبهم فريسة لقومه . هكذا الموت يعرض نفسه للناس كل يوم فى أجل المناظر ، والبشر يجرون خلفه بسرعة ليلحقوه ، وإذا وصلوا اليه أدركوا أنه الهلاك بعينه ولكن بعد أن ينشب أظفاره فيهم و بعد أن يتمكن منهم ولا تبقى لهم وسيلة للخلاص منه .

لقد عهدنا الموت يأتى بشدة وبأس ويجندل الناس فى الحروب بالسيوف والرماح ، وفى المساكن بالأمراض والعلل . ولكنه يأتى أيضاً وهو مطلق بالشور والشهوات فيقبل عليه الناس فيجعل صرعى اللذات والشهوات أكثر عدداً من صرعى الحروب والأمراض . ان الموت يلوح لكثيرين على أسنة الرماح وفى شفرات السيوف فيهربون منه ولكنه يستخدم طريقة أفضل لعدم الخوف منه فإنه يختفى ضمن الشهوات و يتوارى وراء اللذات فيسعى اليه الناس ، وما أكثر عدد قتلاه بهذه الوسيلة الخادعة .

حذار من الطلاء الخارجى والملبس الناعم . احترسوا كل الاحتراس من تلك الأمور التى تخدع قلوبكم وتستوى أفئدتكم ثم تقودكم الى العطب والهلاك . هوذا ريلات ومصائب ونكبات تلبس ثياباً ناعمة . هوذا ضيقات وألام مرة تظهر بمظهر السرور والبهجة . احذروها ولا تقربوا اليها فأنها لا تظهر للطف والكماسة وقتاً قصيراً إلا لتوقع فى يدها وتعذب الى الأبد من تتمكن من غشهم . قال الحكيم «توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت» (ام ١٤ : ١٢).

يرفع الانسان بصره فى هذا العالم فيرى صورة خارجية تخدعه ولكنه لا يرى له صورة داخلية تنبيه . يرى فى العالم الظاهر وجوهاً مشرقة وشفاهاً تبتسم وألسنة تتلطف وأيدي تمتد للمصافحة وأزهاراً تعبق رائحتها الذكية فيظن أنه سعيد لمشاهدة هذه المناظر ، ويخال العالم حبيباً له أتخفه بكل سرور وأهداه كل لذة ، ولكنه لو استجلى خوافى هذه الأمور لوجد أن الوجوه لم تشرق إلا لتمكر به والشفاه لم تبتسم إلا لتخدعه واللسان لم يتلطف له إلا ليغرره والأيدي لم تمتد نحوه إلا لتتمكن منه والأزهار لم ترسل رائحتها العطرة إلا لتجذبه الى أشواكها وكل منها يكيد له وينصب الأشرار وهو ساه غافل مخدوع ، وما أشبه العالم والمخدوع به بالتى وصفها الحكيم بقوله «لأن شفتى المرأة الأجنبية تقطران عسلاً وحنكها أنعم من الزيت . لكن عاقبتها مرة كالافستين حادة كسيف ذى حدين . قدماها تنحدران الى الموت خطواتها تتمسك بالهاوية . لئلا تتأمل طريق الحياة تمايلت خطواتها ولا تشعر» (ام ٥ : ٣-٦).

تأملوا يا بنى البشر : أى شئ فى العالم ترونه حسناً غير وعوده الخلاية ؟ نعم أنه يعد بالغنى واللذة والمجد وهكذا يغرى العسل الذباب بالخلاوة . و يعد السراب الايل بالارتواء ، وتعذ النار الفراشة بالضوء . ولكن الموت . كائن فى كل هذه لأن الخائن إذا أراد الخداع لا يأتى قاسياً بل ليناً . فكيف قتل قاين هابيل أخاه ؟ أليس بدعوته اياه للتنزه معاً فى الحقل ؟ وبأية وسيلة سقط شمشون فى يد دليلا ؟ أليس لما أنامته على ركبتيها ؟ وبأية واسطة أهلك ابشالوم أخاه امنون ؟ أليس باستدعائه اياه الى وليمة فاخرة ؟ ألا يصح فى ذلك قول القديس يوحنا ذهبى الفم «ان من عادة الخائنين أن يقدموا أولاً ما هو عذب لينتجوا منه فيما بعد المر الميث» .

فما أجهل المرء الذى يعرض حياته للخطر مدفوعاً بابتسامة غاشة . و ياغبواة
الانسان الذى يهلك ذاته ويخسر نفسه رجاء كلمة مدح ينتظرها . ان آدم وحواء
خسرا السعادة بمجرد نظرهما الشجرة . رأياها جيدة للأكل وبهجة للعيون وشهية
للنظر فأخذوا من ثمرها وأكلا بشوق مستحسنين هيئتها المنظورة بينما كان فى داخل
ذلك الثمر جزاء المخالفة المربع « موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) .

روى أن كليمنوس ملك سكوتيا دخل يوماً لبيتز في روضة بهجة فوقع بصره
على تمثال يحمل بيده ثمرة ذهبية جميلة يلوح للنظر اليها كأنه يقدمها هدية له .
فانشرح صدر الملك بذلك وتقدم ليتناول هذه الثمرة من يد التمثال ولم يكده يلمسها
حتى انشقت وامتد منها سهم حاد كان فى يد التمثال الأخرى ومعداً لهذه الغاية
فأصاب الملك أصابة قضت على حياته . لقد كان سبب هلاكه رؤيته الثمرة البهية
فى يد التمثال الواحدة فأذهلته عن رؤية السهم فى يده الأخرى . هكذا مواهب
العالم وهكذا هداياه فإنه يقدم باليد الواحدة كأساً لذيقاً وباليد الأخرى كؤوساً
مترعة بالمر والعلقم ، كما قال الرسول يوحنا « العالم كله قد وضع فى الشرير »
(١ يو ٥ : ١٩) .

فاللذة تغدو أمام الانسان كأنها ثمرة شهية ولكنها مقرونة بالأمراض القتالة ،
والمال يظهر حبيباً ولكنه يأتى مصحوباً بالقلق المستمر : كذلك الكرامة يخالها
الانسان حسنة ولكنها تكلفه احتمال أنواع المشقات . وبالجملة فان العالم يضحك
لكى يقسو ، ويتملق لكى يخدع ، ويعفوكى يقتل . وما أحسن قول أحدهم « إن
العالم أشبه بالليل ومصنوعاته أضغاث أحلام تستغرق بها النفس وتطفئ بالكذب
والغرور . وكما أن الحلم يخدع النفس بالمناظر الخيالية هكذا العالم يخدع الناس
بشهوته الباطلة ومقتنياته السريعة الزوال . فقد يتفق لك أحياناً فى الحلم أن ترى
نفسك قائماً على عرش الملك متوشحاً بالملابس البهية وحولك الناس يترضونك ،
ولكنك عندما تستيقظ تدرك أن ذلك كان وهماً على هذا المثال يعطى العالم
الانسان ما يضل به كالغنى والمجد الباطل وعندما يرقد الجسد رقاد الموت يستيقظ
فيتذكر أحلامه ويخجل منها ويمتلئ خوفاً ورعدة » .

أجل : قد تخدع الدنيا بما فيها من جمال ورواء فإذا جالها هو القبح بعينه والدمامة بذاتها . فتري بعينك المرأة المعجبة بجملها تتحول الى جيفة كرهية ينفر منها الذين كانوا يهيمون بها . ونشاهد الملك العظيم مردولاً من أحقر عبيده . والغنى الموسر يمد يده مستديناً بعد أن دارت الدائرة على كل منهم . فما أقى تحول الأيام . قال الحكيم « رب ملك معجل فى أوله أما آخرته فلا تبارك » (أم ٢٠ : ٢١) .

أى عزيز لم تذله وعظيم لم تحطمه ، وعرش لم تهدمه ، وقصر لم تنقضه وقوى لم تضعفه ، وقلب لم ترمه بسهام أحزانها ، وعين لم تجرحها بالآلامها ، وفؤاد لم تصدعه همومها ، وفم لم تذقه مرارتها . أى امرأة لم ترملها ، وابن لم تيتمه ورجل لم تنه ، أى رأس متشاحنة لم تحنها ، وظهر معتدل لم تكسره وشعر لامع لم تبيضه مخاوفها ، فلا بقاء فيها لمجد ولا ضمان لراحة .

قال الرسول بولس « انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل » (كو ٢ : ٨) فمن يعيش فى الدنيا يحتاج الى من ينبيه دائماً ليستيقظ لئلا يقع فى شركها . لأنها اعتادت أن تظهر الأشياء من الخارج فقط وتخفى ما هو داخلها . تحضر له اللذات بين يديه ولكنها تعميه عن الشناعة الكلية المخيفة فى باطنها . تبين للخلاء قيمة الذهب وشرفه ، أما الهوموم والغموم الناشئة عنه للأغنياء فلا ترهم إياها ، وقد تعرض بين يدي الانسان كرامات الرياسة وعلو الدرجات ولا تريه ما ينبغى من لوازمها . وهى كابليس حينما أراد أن يجرب السيد فقد كشف له مظاهر الأمور ولكنه أخفى دواخلها ولكن السيد كان يرى ما وراء ذلك المجد الباطل ، وهذا ما يفعله ابليس مع كل انسان وما تفعله الدنيا مع الجميع فهى تريد أن تقدم الخطية للناس ولكنها تغطيها بغطاء اللذة والكرامة لكى تخفى القبح الكائن فيها . أما أنت فالواجب عليك أن تزيح ذلك الغطاء وحينئذ تعلم كثرة غرور الحياة افحص جوف الخطية تر فى باطنها أموراً تخاف من مجرد سماعها « فضة زغل تغشى شقفة هكذا الشفتان المتوقدتان والقلب الشرير » (أم ٢٩ : ٢٣) .

قيل ان بعضهم اكتشف صخرة عظيمة فى استراليا مكتوب على وجهها « اقلبنى تسعد » فقلها بعد أن قاسى تعباً شديداً فوجد مكتوباً على الجانب الذى

كان محجوباً « اقلبنى ثانية لأخدع جاهلاً آخر ». وهذا شأن الدنيا تطمع فى أول أمرها فتخدع فيضيع على الانسان تبعه فى طلب ما كان يظنه فى أول أمره حلاوة فيجده فى نهايته مرارة ، ولسان حال الدنيا يقول « اكتم أمرك لأخدع جاهلاً آخر مثلك ».

قال سليمان الحكيم « يابنى أن تملك الخطاة فلا ترض » (ام ١ : ١٠) ان أضمن طريق لنجاتنا من مغالب الشراك المنصوبة أمامنا هو أن نهرب منها حينما نراها حسنة أمامنا ولا نقف حتى نسمع كلماتها الناعمة ولا نتنظر حتى نتطلع الى جمال وجهها . جاء فى أساطير اليونان عمن يدعى عولس أنه فى أثناء تيهانه فى البحار رأى أنه سيمر هو وقومه بالصخور التى كان السيرين يغنين عليها غناء مطرباً يجذب المارين بهن فيقتلهم . فاحتاط لذلك بأن سد آذان من معه بالشمع لكى لا يسمعوهم وأوصاهم أن يربطوه الى سارية المركب ربطاً شديداً وأن يشدوا الوثاق كلها ألح عليهم أن يخلوه ، ففعلوا كذلك . ولما مروا بهن وسمع عولس صوتهن الجميل حاول الافلات ليصل اليهن فشد عليه من معه الوثاق ومروا بهن سالمين فخلص هو وقومه من الوقوع فى فخ السيرين والسقوط فى تجارهن .

وبمثل ذلك يوصى الرسول بولس تلميذه تيموثاوس قائلاً « وأما أنت يا انسان الله فاهرب من هذا » (١ تى ٦ : ١١) وقال له أيضاً « أما الشهوات الشبابة فاهرب منها » (٢ تى ٢ : ٢٢) وقال الرسول بطرس هاربين من الفساد الذى فى العالم بالشهوة « (٢ بط ١ : ٤) .

الفصل السابع

فى أنه لا سعادة فى العالم

« لماذا خرجت من الرحم لأرى تعباً وحزناً فتفنى بالمخزى أيامى » (ار ٢٠: ١٨)

يشتهون حياة وبها لا يفوزون . و يتوهمون سعادة ومكاناً لها لا يجدون و يذكرون
للذة وهم بها لا يشعرون . أولئك هم بنو البشر الذين رأوا الموت يتهددهم فقالوا حياة
ولا حياة . وشاهدوا الشقاء يزعجهم فقالوا سعادة ولا سعادة ، وألفوا المرارة تعذيبهم
فقالوا لذة ولا لذة .

أين الحياة والسعادة واللذة فى الدنيا أيها البشر لنسعى وراءها وفى أى مكان
توجد فنسير إليها ؟ قولوا لنا فإننا نشتهى الحياة لنعيش والسعادة لنبتهج واللذة
لنطرب . أنتم واهمون تعيشون فى الموت فتخيلتم أن هناك حياة حتى تأمنوا قليلاً إذا
ورد ذكر الموت على خاطركم وتدومون فى الشقاء فظننتم أن هناك سعادة حتى يهدأ
روعكم إذا علمتمهم أنكم أشقياء . وتنشأون فى العذاب والألم فأدى بكم الخيال
الى ذكر اللذة لعل ذكرها تخلصكم شيئاً من اضطرابكم . قال ارميا النبى عن
أمثال هؤلاء « يشفون كسر بنت شعبى على عثم قائلين سلام ولا سلام »
(ار ٦: ١٤).

فكل هذه العبارات التى ابتدعها الناس . سعادة . راحة . نعيم . لا توجد فى
الدنيا ، وأما ما يوجد فى العالم حقاً فهو الخوف والشر والضعف ، وأما تلك الألفاظ
المشتهاة فقد توهمها الخلق ليزيحوا بالوهم شيئاً مما يلهم بهم من العذاب . الحياة
لا تصاحب الانسان بل يرافقه الموت . والسعادة مفقودة و يكتنفه الشقاء . واللذة
غائبة ونصيبه الألم . إذا سمعتم بواحد يولد تسمعون بألوف يموتون . وإذا ذكر أمامكم

غنى واحد ذكر أمامكم كثير من الفقراء وإذا وصل إليكم خبر رجل سعيد
طرقت أذانكم أساء أشقياء لا يحصى عددهم . إذا رأينا قصراً شاهقاً وجدنا حوله
ألوفاً من الأكواخ والبيوت الحقيرة .

فالحياة ليست داراً تتم فيها أسباب السعادة بل أن من يتأملها جيداً يجدها مذيغ .
من دموع وأنان وزفرات . من أوجاع وآلام وعذاب . من زلازل وزوايع وعواصف
وبراكين وحروب تفتنى ممالك برمتها . بلاء فى البحر وشقاء فى البر . موت شره
لا يشبع يرسل رسله الى القصور والأكواخ . أرض تنبت شوكة وحسكاً وانعاباً
وبلايا . فكل ما تراه يلزمك بأن تشهد بأنه « لا سعادة فى الحياة » .

ولو أردنا أن نتعرف هل فى الدنيا سعادة حقاً فعلياً أن نسأل الأعضاء التى
تحسب فينا لنرى ماذا يكون جوابها . ماذا تسمع آذاننا ؟ انها تسمع ما يصدعها أكثر
مما يطررها . تسمع فى فترات قليلة أصوات ضحك وسرور ولكنها فى أغلب الأوقات
تسمع بكاء الباكين ونحيب المنتحين ونشيج الحزانى وعويل المتألمين . صوت الغناء
يردها كصوت غريب ، وصوت الأنين يصلها كشئ ألفتة وتعودت سماعه . ماذا
ترى عيوننا ؟ ليس فى العالم ما يبهجها فإذا شاهدت ما يروق مرة شاهدت ما يبرح
مراراً . إذا وقعت على ما يسر دفعة وقعت على ما يحزن دفعات . وماذا يذوق
لساننا ؟ أنه إذا تمتع قليلاً بطعام يستطيبه وبشراب يستلذه فلا ينسى ما يتذوقه من
المراة فى إبان الأمراض وفى أوقات الأحزان حيث تتحول حلاوته الى مرارة
وارتواؤه الى عطش ويبوسة محرقة . لنسأل القلب مستودع الأسرار . حدثنا عما
يدخل اليك من السرور . آه لو فحصت قلوب الناس جيداً ولو فتحت ليرى ما استقر
داخلها ورسب فى أعماقها من أنواع هموم مختلفة وغموم متباينة . لو شاهدنا كل
ما تطويه : قلوب الناس وتضمه أفئدتهم من آلام وحسرات لصحنا قائلين « أين
السعادة » ؟ بل لقال كل منا مع يونان النبى « موتى خير من حياتى »
(يونان ٤ : ٨) .

ان الفحمة السوداء إذا اتحدت بالنار صار لونها جاذباً للأطفال ، فإذا لمسوها
احترقت أيديهم . إن الرذيلة الشهواء تتحد باللذة التى هى كالنار فتكتسب بها لوناً

لا ينفر الناس منها فيستخذونها سبباً للبهجة وأصلاً للسعادة وإذا بها تحملهم الى الهاوية والهلاك . يخال للواقف على سطح السفينة إنه على شئ ثابت راسخ وهو لا يدري أنه يعم على سطح الماء ولونفذ قليل من الماء الى السفينة التي اتخذها موطناً له لغاص هو والسفينة في جوف البحر : إن « لالفر يدى فينى » لما وجد كثيرين يتوهمون في الطبيعة عزاء وسلوى خاطبها قائلاً « انهم يسمونك أما حنوناً وما أنت إلا قبر » .

فالانسان إذا يسير في الحياة ويتوهم السعادة وهماً بينما يحيط به الشقاء وحده من كل ناحية . لذا ترى أفكاره وآماله مزدهمة بمطامع واسعة ومنها تتوقع الفرح والبهجة . يا للعجب هل كل ما تسمعه من الحزنات وما تشاهده من المكدرات وما تحسب به من المؤلات غير قادر على اقناعك بأنك تعيش في أرض ليس فيها سرور؟ .

فقل لى بحقك بماذا يتنعم الناس ؟ أبالغنى ، أليس الأغنياء هم الذين يعيشون دائماً فى هم وغم وخوف ووجل ؟ أبالكرامة ؟ ومن يستطيع أن ينكر أن إنعكافه على طلب الكرامة كان داعياً لأضطرابه وقلقه ، وإن سعيه المفرط فى رخاء العيش وزخرف المعيشة ونعومة المجلس كان سبباً لارتباكهم وضنك أفكاره باللذة ؟ فليتأمل الخاطئ فى ما تسببه له لذاته من الأحران الشديدة وما تنتجه شهواته من الهموم المديسة وما تثمره تنعماته من المخاوف المزعجة . قال اشعيا النبي « لا سلام قال الرب للإشرار » (اش ٤٨ : ٢١) .

وقد سئل أحد محبي الخطية « هل كنت تجد راحة بحصولك على الملذات التي تشتهيها ، فأجاب « كنت كلما أجد ملذات وأحصل على منكرات أشعربأن شهوتي تزداد وتتضاعف ولم أجد راحة . وما كنت استغرق فى الملذات إلا لكى أتسلى عن ذلك القلق الذى كان يعذبني ليلاً ونهاراً » .

كثيرون يسировن بالليل والأخطار الهائلة تعترض سبيلهم وهم لا يشعرون . الحشرات تحت أقدامهم ، والحفر فى سبيلهم ، والوحوش تكمن لهم يميناً وشمالاً وهم

مع ذلك يسلكون طريقهم الوعرة مطمئنين غير مباليين بأى خطر من الأخطار .
هكذا الذين يسرون فى هذا العالم بعمى القلب والمرضى ينتظرون الخوف يتهددهم
والموت جاثم لهم فى كل بقعة من بقع الأرض قاصداً افتراسهم ومع ذلك يسرون
ضاحكين كأنهم لا يرون شيئاً .

ان النائم تمر بجانبه الأفعى ولا يشعر بها إلا إذا لدغته . كثيرون ينامون والخطر
جاثم فى قلبهم ، لا يرتعبون ولا يشكون ولا يتألمون بل يرفعون أصوات ابتهاجهم
وطربهم . إن الذى يسير فى أرض مملوءة بالأخطار ولم يكن قد طرقها من قبل
لا يكون خوفه شديداً لأنه لا يدرك أى أمانة أم خطرة فالذين يسرون فى العالم
بقدم ثابتة هم بعيدون عن معرفة حقيقته ، إنهم يعيشون فى أرض لا تنبت فيها إلا
أشواك البلى والمصائب ولا تكاد تعبر طريقاً إلا وتجده محفوفاً من كل جانب بأنواع
المخاوف .

ان ساعة سرور واحدة تعقبها أعوام من الكدر والكآبة بل ان الفرح يعتبر علة
للحزن . وذكر السعادة هو مصدر الشقاء ، ولا يتعذب فى الحياة إلا القوم الذين
يعتبرون الدنيا دار فرح ونعيم لهم . ولا يبتغى إلا القوم الذين يتأكدون أنها دار حزن
عميق . أن الذين يطلبون السعادة من الدنيا إنما يطلبون المستحيل وهم كمن يطلب
البرد من النار والحلاوة من العلقم . قال اسكندر الأكبر المكذوب فى خطابه لأمه
عندما شعر بموته : « لا تدخلى اليك إلا من لحقته مصيبة لترى أن المصائب تصيب
جميع الناس حتى تنعزى على موتى » ولسان جميع البشر على اختلاف أنواعهم
لا يحسن النطق بغير كلمة التذمر والشكوى من أتعاب هذه الحياة .

فحق لك إذن إذا استيقظت من نومك أن لا تفكر فى ما ستصادفه من السعادة
بل فى ما سيحل بك من الشقاء لأن مجئ السعادة بعيد وقدم الشقاء قريب . قال
أحدهم « إن أبعد سفر هو ما كان فى طلب السعادة ولكن عبثاً تهرب من الشقاء »
وهذا ارميا النبى يسأل نفسه قائلاً « لماذا خرجت من الرحم ؟ » وإذا سأل كل منا
نفسه هكذا لسمعنا أجوبة مختلفة فمن قائل خرجت من الرحم لأتعم . ومن قائل
لأتعظ . ومن قائل لأفوز بالغنى . ولكن هذه الأجوبة قد أملاها على الناطقين بها .

روح الوهم والغرور . فلنسمع الجواب الصحيح الذى يحققه اختبار كل منا وهو
« لقد أثبت الى هذه الحياة لأرى تعباً وحزناً فتفتنى بالحرى أيامى ».

طلبت فتاة صغيرة من شيخ أن يتنبأ لها عن مستقبل حياتها فأجاب بما يعلم عن
مستقبل كل انسان « ستملأ حياتك الآمال والأحلام ولكن مالك فى الحياة باطلة
وأحلامك فيها خائبة ولن تستطعين الحرص على من يحبونك ولا نيل ما تحبين
وستجبرين وراء السعادة جرياً تدمى منه قدماك . وسترينها فى متناول اليد منك
حتى إذا مددت يدك لتقبضين عليها قبضت على الفضاء وسقطت يدك فى الهواء
وستجثين عند ذلك على قدميك وتضعين رأسك فوق ركبتيك وتبكين منتحبة حتى
يكاد يقضى عليك وتموتين مائة مرة فى أمل خائب ».

فيا للتفام جهل الأشرار وغباوتهم . فإذا دخل انسان غابة نصبت فيها أشراك
مختلفة وشاهد جثث كثيرين من الذين هلكوا فيها ففى الحال يهرب لينجو بحياته ،
وإذا ولج الغابة بعدما شاهد ذلك دعى غيباً جاهلاً . لعمري أنك لأشد جهالة وغباوة
منه لأنك ترى صاحبك الذى أحب الغنى وقد مات كئيباً ، والذى أحب اللذة وقد
مات تعيساً ، والذى ارتفع الى أسمى درجات المجد وقد انطوى فى القبر البلقع
وانهال عليه التراب ، وأنت مع ذلك تسلك طريقهم كأنك أكبر من أن يصيبك
ما أصابهم ويحل بك ما حل بهم . وكثيرون هم الذين جروا وراء مشتياتهم ولما
فازوا بها لم يشعروا أنهم أسعد مما كانوا من قبل .

فأى مكان تطؤه قدمماك ولا تدوس فيه أشواكاً غرسها العالم لأذية الناس
ولا تعثر بجثث الموتى الذين أخذوا بحبه فأهلكهم . قال الحكيم « لأنه ماذا للانسان
من كل تعب ومن اجتهاد قلبه الذى تعب فيه تحت الشمس لأن كل أيامه أحزان
وعمله غم أيضاً بالليل لا يستريح قلبه هذا أيضاً باطل هو » (جا ٢ : ٢٢ و ٢٣)
فكل شئ فى العالم يسر لا بد أن ينقلب الى ضده فلا غناه غنى ولا خيره خير . إن
سعة العيش تنقلب الى الفاقة ، والافراح تتحول الى أحزان . اليوم ترى ذينك
العروسين فرحين بحفلة عرسهما وغداً يفرقهما الموت . فالخرن التابع يفوق الفرح

السابق . ومن يرفل بالملابس الفاخرة و يزهو بها كالطاووس سيكسوه القبرنسيح العنكبوت .

فهذا المجد الذى نراه بهياً عظيماً يجرى كساع وإذا ركضنا وراءه فأننا نركض وراء الموت وإذا بلغناه فما أعظم شقاءنا . قال القديس أوغسطينوس « ان الخيرات الزمنية من دأبها أن تذيبنا شوقاً اليها وهى مستقلة . وتشغلنا وتتعبنا وهى حاضرة . وتعذبنا إذا بطلت واضمحلت . فإذا اشتيت عزت وكبرت ، وإذا إمتلكت صغرت . وإذا فقدت بطلت واضمحلت » .

قالت « مارى انطوانييت » امبراطورة فرنسا « اننى أبحث عن الراحة فلا أجدها » فما أحقر ذوى التيجان وما أشد فعل العواصف بضخام الأشجار وقال بسمارك السياسى الألمانى « لا يمكن أن نجد رجلاً سعيداً فى أحد الأيام : ولو أننى أحصيت الدقائق التى أصبت فيها السعادة لما زادت فى مجموعها عن أربعة وعشرين ساعة » .

جلس أحد ملوك أسبانيا المشهورين العظام على عرش الملك زمناً مديداً بعز عظيم . وقد قال قبل موته لأحد أخصائه « اننى قد قيدت أيام السعادة التى قضيتها مدة ملك ستين سنة وعند اطلاعى على القائمة لأرى كم كانت السعادة انذهلت . فكيف تظنها يا صاح ؟ ! انها بالحقيقة لم تزد عن يوم واحد كما أن نلسن القائد الانكليزى العظيم الذى كان مولعاً بالشهرة والمجد والعظمة لما تحصل عليها قال يوماً الى أصحابه « اننى رجل عظيم ولا مثيل لى فى العظمة والاكرام ولكننى أتمنى من كل قلبى أن أعود صبياً كما كنت » .

هذا على أن سعادة العالم اذا أمكن الحصول عليها — وذلك بعيد — فكيف من الزمن تظنها تدوم ؟ ما أسرع تقلب الأيام وتلون الأوقات : نحن نعلم ما أرق الحيط الحريرى الذى ينسجه العنكبوت حتى أنه لعظم دقته يكاد لا يرى ومع ذلك فانه أقوى من الرباط الذى يربط به غنى العالم وما فيه . وهب أن لك حقولاً جميلة وقد هبطت بها الطيور تلتقط منها فتظن أنها أصبحت طيورك لأنها فى حقلك ولكن هل

يمكنك أن تؤكد كم من الزمن تبقى فى أرضك ؟ ربما بعد قليل تصعد طائرة الى حيث لا تعلم . هكذا مجد هذا العالم وغناه . قال الحكيم « لا تتعب لكى تصير غنياً . كف عن فطنتك هل تطير عينيك نحوه وليس لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء » (أم ٢٣ : ٤ و ٥).

كان سيسوستريس أحد ملوك مصر جباراً عنيداً وفاتحاً منصوراً ففى أحد حروبه التى انتصر فيها غلب أربعة ملوك واتخذهم أسرى . ولما كان راجعاً الى عاصمة مملكته منتصراً كان هؤلاء الأربعة الملوك مقطورين فى مركبة يجرونها مكان الخيل . وفيما هم داخلون لاحظ الملك الظافر أن أحدهم يراقب دولاب إحدى المركبات بنظر وانتباه عظيمين وعيناه كانتا شاخصتين ، وبأن من أمره أنه غريق فى لجج الأفكار والدموع تسيل بغزارة على خديه فأمر سيسوستريس بأن توقف المركبة وسأل الاسير ما بالك وماذا تقصد بالنظر الدقيق الى ذلك الدولار ؟ أجاب « انسى وأنا ناظر هذا الدولار ألاحظ التغير الدائم والدوران غير المنقطع وانتقال أعلاه الى أسفله وأسفله الى أعلاه يمثل أمامى حالة حظوظ الناس فى هذه الدنيا وتقلب العالم بهم من حال الى حال فاننى كنت بالأمس فى أعلى الدولار والآن أنا فى أسفله » فلما سمع الملك الظافر هذا الكلام تأثر تأثراً عظيماً وفى الحال أمر بحل الأسرى من المركبة وأطلق سراحهم .

فإذا كانت للعالم علاقة بالملذات فلأنه مقبرتها لا لأنه منبعها وأى مدفن للذات غير العالم ؟ ففى المكان الذى تولد تموت وفى المكان الذى تذوق حلاوة الفرح تذوق مرارة الأسى . على الفراش تتلقى القيلة الأولى وعلى الفراش نلفظ النفس الأخير ، والأرض التى نختال فوقها متكبرين نصبح تحتها مذلين . وفى القصر الذى يرتفع فيه صوتك بالضحك يرتفع فيه صوتك أيضاً بالأنين . فيه قلت أول كلمة وفيه يحصل صمتك الأخير . فكم من قصور كانت تعلو فيها أصوات الأغاني صارت الآن قاعاً صفصفاً وقد اختفت الأصوات وتوارت الأشباح . مظاهر الحياة وقبة فلا ينبغي ان تأبه لها . فالكرمة التى تخضر فى الصيف تيبس فى الشتاء . والبيت الذى ترى منه النور يسطع تأمله بعد حين فإذا به قد انطفأ نوره وغاب سرور أهله . فكم من بيوت مرت بها عائلات متعددة فرأت كيف يذوق أفرادها كؤوس السرور

وكؤوس العلقم شاهدتهم وهم يولدون وأبصرتهم وهم يموتون .

فالنفس اذاً لا يمكنها أن تصادف راحة أو تحس بسعادة طالما كانت تطلبها من
أعجاء هذا العالم الزائلة والذين يطلبون ذلك يناديهم الله قائلاً « قوموا واذهبوا لأنه
ليست هذه هي الراحة » (مى ٢ : ١٠) فإذا أردنا أن نكون سعداء حقاً فليكن لنا
الايمان درعاً ، ولتكن لنا الفضيلة سلاحاً نصدها كل ما يعترضنا من صعوبات
هذه الحياة « يأكمل الودعاء ويشبهون . يسبح الرب طالبوه . تحيا قلوبكم الى
الأبد » (مز ٢٢ : ٢٦) « فى مراعى خضر يرعى . الى مياه الراحة يوردنى »
(مز ٢٣ : ٢) فناء اللذات الدنيوية ممزوج دائماً بالأكدار وأما مياه الراحة الإلهية
فهى صافية نقية لا يعكرها شئ . بل أن ما يحزن أهل العالم ويخيفهم يكون للمؤمن
سبب راحة ومسرة . فإنهم يجدون فى الصبر حلاوة وفى الضعف فرحاً ، وفى
التجارب سلاماً ، وفى الاضطهادات بركة عظيمة . قال الحكيم « التابع العدل
والرحمة يجد حياة حطاً وكرامة » (أم ٢ : ٢١) وقال أيضاً « بركات على رأس
الصديق ... شهوة الصديق تمنح .. منظر الصديق مفرح »
(ام ١٠ : ٢٤ و ٢٨).

الفصل الثامن

فى سرعة زوال هذه الحياة

« أيامى أسرع من عداء . تفر ولا ترى خيراً » (أى : ٢٥)

لو أد رنا الطرف وتأملنا أحوال البشر لوجدنا حياة الانسان عزيزة عنده بهذا المقدار حتى أنه يفديها بأعز شىء لديه كما نرى أن الذين كانوا مسافرين الى ترشيش ومعهم يونان النبى طرحوا كل ما كان معهم من غل وثمان فى قاع البحر بغية نجاه نفوسهم (يونا ١ : ٥) .

ولم تعز الحياة على الانسان هكذا الا لتوهمه أن عمره يطول ومدة عيشه على الأرض لا تنتهى حالاً فتراه يحلف برأسه !! وعندما يرى نفسه ذا صحة وعافية يفكر أن الموت بعيد منه ولا يقدر أن يقترب اليه . هذا وأمثاله هم الذين قال عنهم يعقوب الرسول انهم لا يحسبون لانتهاى حياتهم حساباً فيقولون نذهب اليوم أو غداً الى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح . عوض أن يقولوا ان شاء الرب وعشنا فنماداهم الرسول قائلاً « ما هى حياتكم انها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل »

ومما يدل على جهل الانسان ، أنه ينظر دائماً للذين عاشوا طويلاً ولا ينظرون للذين عاشوا قصيراً . فلماذا تحسب نفسك مع الذين يعمرن للشيخوخة ولا تحسبها مع الذين راحوا فى مقتبل العمر ؟ قد يكون خيط هذه الحياة الذى أنت متعلق به ستيئاً وثابتاً وقد لا يكون كذلك فتأمل كيف تتخلص مما لا تضمن . حكى أن أحد الأمراء كان ذات يوم معذباً من عسر البول عذاباً أليماً فتشاور الأطباء فى أمره وأجمعوا على أن يعالجه بالشق فأراد الملك أن يرى التجربة فى غيره قبلاً ، ففتشوا

على من كان مصاباً بهذا الداء حتى وجدوا عشرين شخصاً فعالجهم الجراحون بالشق فشفى منهم تسعة عشر ومات واحد . فعاد الأطباء للملك بفرح يبشرونه بحسن النتيجة ، أما هو فاعتم وقال لهم « ومن أدراني أن لا أكون أنا كالواحد الذي مات لا كالتسعة عشر الذين نجوا » فن غباوتنا اذا ونحن نرى ألوفاً ينقلون الى المقابر فى عنفوان شبابهم أن نعتقد بأننا سنعيش حتى الشيخوخة .

قال أحد الحكماء « الذى لابد منه ينبغى أن نقبله بفرح وسرور » فكثيرون يخافون من الموت و يظنون أنه يمكنهم بواسطة حذرهم أن ينجوا منه حتى أن بعضهم يسألون المنجمين كيف يموتون لكي يحتاطوا لها و يقضوا أوقاتهم بالاحتياط من الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك الى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون ويحرمون أنفسهم لذة الطعام والشراب و يتوهمون ان فى كل جرعة غصّة و يتخيرون لهم أنواعاً خاصة من الغذاء الى أن يملكهم الخوف حتى ينتهى بإضعاف أجسادهم فيستعملون الأدوية وهكذا تحل بهم الأمراض التى حاولوا الهروب منها فلم يفلحوا .

والغريب أنهم لا يكتفون بمقاومة ما فى طوقهم مقاومته بل ينصرف همهم الى دفع ما لا دافع له من القضاء المحتم . فمنهم من لا يركب البحر خشية الغرق ، وفى البر مصادمة القطارات ، وقد بلغ الحمق برجل يدعى أرتيمون أنه كان يجعل اثنين من عبيده يحملون فوق رأسه دائماً ترساً خوفاً من أن يسقط عليه شىء من العلاء فيقتله .

أمثال هؤلاء يستبعدون الموت و ينكرونه فلا يكادون يصدقون موت الفجأة ، فإذا أخبرتهم بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون لذلك العلل و يتحملون الأسباب و ينتحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به . وإذا أخبرتهم بموت شاب فى ريعان شبابه وغضاضة سنه أخذوا يز يدون ما شاءوا من السنين فى عمره ، ومن هذا القبيل ترى كثيرين ولعوا بإخفاء حقيقة أعمارهم والاجتهاد دائماً فى تنقيص سنيها ومنهم من يصبغ شعره الذى بيضه طول الأجل بالأصباغ السوداء ليوهما ذواتهم وليعيشوا أنفسهم وليطرحوا من فكرهم إمكان مفاجأة العدو الألد لهم على حين غرة منهم وهم فى مظهر القوة والشباب وليطمئنوا على هذا التراخى الموهوم .

غير أن تحرز واحتياط من هذا القبيل لا يجدى نفعاً ولا يغنى في حفظ الحياة .
وهوذا أيوب الصديق يقول « إذا مضت سنون قليلة أسلك في طريق لا أعود منها »
(أى ١٦ : ٢٢) ويقول أيضاً « لأننا نحن من أمس ولا نعلم لأن أيامنا على
الأرض ظل » (أى ٨ : ٩) ويوضح ذلك أيضاً ما قاله داود النبي « عرفنى يارب
نهايتى ومقدار أيامى كم هى فاعلم كيف أنا زائل . هوذا جعلت أيامى أشباراً
وعمرى كلا شيء قدامك أنما نفخة كل انسان قد جعل . سلاه . إنما كخيال
يتمشى الانسان » (مز ٣٩ : ٤-٦) وقد شبه الكتاب حياة الانسان بريح تذهب
ولا تعود (مز ٧٨ : ٣٩) .

كل البشر يعلمون انهم سيموتون ولكن كثيراً منهم خدعوا فتصوروا أن الموت بعيد
عنهم بعداً شاسعاً كأنه لن يدنو منهم ، فلا يغشنا هذا الخداع ، وأيوب ينهنا قائلاً
« الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تغباً . يخرج كالزهر ثم ينحسم ويرح
كالظل ولا يقف » (أى ١٤ : ١ و ٢) وقال اشعيا النبي « صوت قائل ناد . فقال
بماذا أنادى . كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل . يبس العشب . ذبل الزهر
لأن نفخة الرب هبت عليه » (اش ٤٠ : ٦ و ٧) .

ان الأيام تمر بسرعة وأنت تسير نحو الموت فلا تتكل على شيء حتى تأمن
لحياتك وتجهز طعام السنين المقبلة . لا تغرنك صحتك الجيدة وأعضائك القوية فكم
من كثيرين ذوى صحة وعافية ودم الشباب يجرى فى عروقهم ولكن الموت لم يخف
منهم بل سطوا عليهم وأرداهم وأذوى غصن صباهم . ولا تعتمد على غناك لأن
الموت لا يقبل رشوة « لا ينفع الغنى فى يوم السخط » (ام ١١ : ٤) ولا تظن أن
أهلك يتمسكون من إنقاذك « فالأخ لن يفدى الانسان فداء ولا يعطى الله كفارة
عنه » (مز ٤٩ : ٧) .

أعتبر أيها الانسان بمن تراهم معك الآن ثم يفارقونك فى لحظة ولا تعود تراهم فما
أنت إلا واحد منهم ولا بد أن يحل بك ما حل بهم . فنهار أمس قد مضى ونهار غد
لا نعلم هل نخطى به أم لا وقد عبرت عدة ساعات من اليوم الحاضر وزالت منا .

والساعات الباقية لا نعلم هل تبلغ إليها أم لا لأن الموت ينازعنا فيها . وكما قال أيوب « روحى تلفت . أيامى انطفأت انما القبور لى » (أى ١٧ : ١) .

ويكل صدق وصواب يسمى الكتاب هذه الحياة (ظل الموت) (مز ٢٠ : ٤) وهناك المرتل يقول أيضا « أيامى كظل مائل وأنا مثل العشب يبست » (مز ١٠٢ : ١١) وقال أيضا « الانسان أشبه نفخة . أيامه مثل ظل عابر » (مز ١٤٤ : ٤) فليكن أن تختبر أيها الانسان خيالك الذى لا يثبت فى موضعه بدقة واحدة . ضع حداً وقف مكانك ثابتاً وانظر الى خيالك لتشاهده وقد انتقل عن الحد المعين . فالظل لا يسبح متنقلاً من الصباح الى المساء ، والعمر يواصل انتقاله من صباح الميلاد الى مساء الموت .

أجل ان حياة الانسان أسرع زوالاً من جميع الأشياء . يمكنه أن يضمن بقاء ثروته أو ثيابه للصباح ولكن لا يمكنه أن يضمن حياته . لأن الأرزاق والثروة وما يضاهيها قد تبقى موجودة بعد موت الانسان وتنتقل الى سواء ، أما الحياة فانها معرضة للزوال بسبب قليل من البرد أو الحر أو من مقدار ذرة من السم ، فمثل هذه الأشياء اليسيرة تكفى هدمها وازالتها : ومن يتأملها جيداً يجدها أسرع عطياً من الزجاج لأن الزجاج لا يكسر الا بملامسته . أما الحياة فلا يمكننا أن نحفظها من الهلاك .

ألم نسمع عن كثيرين قد ماتوا بالسكينة القلبية فى الوقت الذى كانوا يتباهون بقوتهم واعتدال قوامهم ، ان الانسان أشبه برجل نائم فى غابة وحوله ألوف من الوحوش والحشرات وكلها تجد فى طلب الفريسة وهو لا يدري أن كل شىء فى الوجود يسعى لاقتراحه ، بل لو تأملت أيها المرء لوجدت أن جسدك مركب من العناصر المضادة التى يخارب بعضها بعضاً ويجد بعضها فى اباداة البعض الآخر أى فى اباداة الحياة . ففى داخلك ما يناديك بقضاء الموت المحتوم عليك عاجلاً . قال أيوب « فى لحظة يهبون الى الهاوية » (أى ٢١ : ١٣) وقال أيضا « بغتة يموتون » (أى ٣٤ : ٢٠) وقال الحكيم « الكثير التوبخ المقسى عنقه بغتة يكسر ولا شفاء » (أم ٢٩ : ١) .

هذا على أن الانسان إذا عاش طويلاً فهو عند موته لا يدري بجيائه التي مرت .
ولا يعتبرها أكثر من لحظة ، وعند حلول الموت وإنقضاء الزمان لا فرق بين من عاش
عشر سنين ، ومن عاشت ألف سنة .

ان حياة كليهما ابتدأت بالولادة وانتهت بالموت . فكلاهما ولد ومات فالألف
سنة تعتبر عند الموت كيوم واحد . قال أيوب البار الذى عاش مائتين وخمسين سنة
« أليست أيامى قليلة » (أى ١٠ : ٢٠) فعنده ان الحياة التى تدوم ثلاثة قرون
ليست بشيء ، وهما كم يعقوب البار إذ سأله فرعون كم هى أيام سنى حياتك ؟
أجابته « أيام سنى غزبتى مائة وثلاثون سنة . قليلة وريئة كانت ايام سنى حياتى
ولم تبلغ الى أيام سنى حياة آبائى فى غربتهم » (تك ٤٧ : ٩) .

فقل فى نفسك اذاً أين رفاقى وخلانى الذين كنت منذ وقت قصير لعب معهم
وأتلذذ واطرب . لقد جازوا وتركوك وحدك . كثيرون منهم اضطجعوا على أسرهم
وهم يفكرون فى الملذات التى يستمتعون بها وزارهم الموت بغتة فحملوا من
مخادعهم الى المقبرة اغمضوا عيونهم ولم يفتحوها . ضموا أيديهم ولم يسطوها . احنوا
رؤوسهم ولم يرفعوها . قال هوميروس « حياة الانسان أشبه شئ بورق الشجر الذى
لا يدوم أكثر من فصل سنوى » وقال أحد القديسين « انه لا عدو الأسد ولا طيران
الباشق ولا مروق السهم فى الهواء يعبر أتم تعبير عن قصر هذه الحياة وزوالها » .

فكل هذه الأقوال توضح لنا جلياً ماهية الحياة ومن يفحصها أكثر يجدها على
هذه الصفة . يوم يطرد يوماً وسنة تهزم أخرى . فكما أن يوم أمس طرد الذى قبله
كذلك هذا اليوم دفع أمس و يوم غد يدفع يومنا هذا وهكذا فالأيام يودع بعضها
بعضاً ويمر الواحد بعد الآخر وتسوقنا سرعة مرورها الى الموت . يوم يظهر وليل
يختفى . يوم يختفى وليل نجىء ونحن بين لذة النهار وأمل الليل نعيش فى غفلة
ولا نعلم أن النهار سينقطع ظهوره ونبقى فى ظلمة القبر . قال المرتل « ترجع الانسان
الى الغبار وتقول ارجعوا يا بنى آدم . بالغداة كعشب يزول بالغداة يزهر فيزول . عند
المساء يجز فيبيس . أيام سنينا هى سبعون سنة وان كانت مع القوة فثمانون سنة
وأفخرها تعب و بلية لأنها تقرض سريعاً فتطير » (مز ٩٠ : ٥ و ١٠) .

فهذه الحياة وان ظهرت لنا طويلة فهي قصيرة جداً حتى أنه لا يمكننا أن نضمن عمرنا دقيقة واحدة . وكما أن الضباب الذى يرتفع الى الجو تذيبه أشعة الشمس كذلك حياتنا التى نرغب فيها ونهواها والتى تظهر لنا عظيمة وغالية بهذا المقدار فانها بعد قليل تزول وتمحى كقول المرتل «افنيما سنينا كقصّة» (مز ٩٠ : ٩) فلا تسئل اذاً عن الانسان كم يكون عمره بل سل كم سنة مرت من حياته لأنه بمقدار ما تنمو الأشجار فانها تميل الى السقوط ، كذلك حياة الانسان كل ما يمر منها فانه يقدمها الى الفناء .

قال حزقياس النبى «مسكنى قد انقطع عنى كخيمة الراعى لففت كالحائك حياتى . من السؤل يقطعنى . النهار والليل يفيننى » (اش ٣٨ : ١٢) فهو يشبه حياته بالنسيج لأنه كما أن النسيج يتكون بكثرة الخيوط هكذا الحياة تتكون بكثرة الأيام . قال أيوب أيضاً «أيامى أسرع من الوشيعة وتنتهى بغير رجاء» (أى ٧ : ٦) وشبه سرعة أيامه فى مكان آخر بأكثر من سرعة العداء أو الراكض غير أن العداء لو أسرع الجرى بما يفوق قوته فلا بد من الوقوف بعض الأحيان للأكل والنوم وما يضطر اليه الجسد . أما أيام الانسان فلا تزال هاربة على الدوام وتجرى الى الموت سريعاً .

قال أحد الأفاضل «لو أردنا أن نعرف حياة الانسان فيلزمنا أن نجتمع نقائص البرية كافة وجميع حقارتها وكل نوع من شقائها لنشبه بها فناء هذه الأجساد فنأخذ من الزهور ذبولها ومن الشمس غروبها ومن كافة الكواكب خسوفها ومن الفصول تغييرها ومن كل شئ اضمحلاله وزواله» ولذلك نحن نجد أن جل كتبة الكتاب المقدس اجمعوا على تشبيه حياة الانسان بزهر الحقل . وقد أراد بذلك أن زهر الحقل أكثر الأشياء تعرضاً للأخطار ، فالشمس تيبسه . والرياح الباردة تجففه . والناس تدوسه والحيوانات تأكله ، والماء يفرقه ، والحريذبله . وهكذا أى لسان يستطيع أن يحصى كثرة الأخطار المحيطة بالانسان المهددة لحياته ؟ ومن ذا الذى يمكنه أن يعد الأمراض المتباينة التى تصادفه وهو لا يشعر بها ؟.

وقد شبه أيوب حياته بالسفينة فى قوله «تمر مع سفن البردى» (أى ٩ : ٢٦) وذلك لأن السفينة مع كونها تسرع فى جريها فانها معرضة لأخطار كثيرة لا تلافىها

فإذا صدمت صخوراً انكسرت ، أو رملاً انغرست . هيجان يغرقها والرياح العاصفة تحطمها . قال أحد القديسين « من يركب سفينة و يسافر فى البحر لا يزال سائراً مع كونه لا يتحرك . وأنت على هذا القياس ولو ظهر لك أنك واقف فى الدنيا فأنت سائر بسرعة الى الموت ومحاط بمجرذين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وهما النهار والليل اللذان يقرضان العمر على الدوام » فلماذا لا يمكننا أن نسر ونتمتع بخيرات حياة كهذه .

أية لذة يجدها من ينظر أسداً آتياً نحوه بسرعة البرق فاغرافاه لافتراسه . وهكذا أى سرور يحصل عليه من يعيش فى هذه الدنيا وهو يرى الموت هاجماً عليه كالوحش الكاسر فى كل لحظة . ان الله فى جعله حياتنا سريرة بهذا المقدار كأنه يقول لنا « استعدوا للموت بالايمان الحى والعمل الصالح فى كل حين » .

* * *

الفصل التاسع

فى فناء المجد العالمى وبطلانه

« لا نخش إذا استغننى انبسان إذا زاد مجد بيته لأنه عند موته كله لا يأخذه . لا ينول وراء مجده .»

(مز ٤٩: ١٦ و ١٧)

كثيرون من بنى البشر إذا لاحظتهم فى تصرفاتهم ترى أن كل ما تنطوى عليه أفئدتهم وما ترغبه قلوبهم هو « المجد العالمى » فله وحده يكرسون حياتهم و يبذلون كل قوى نفوسهم للحصول عليه و يعرضون ذواتهم للخطر فى السعى وراءه وهم فى كدهم هذا وجدهم يقولون بلسان حالهم « لا نشتهى إلا مجد العالم وليست لنا أمنية سواه ومحبتنا له لا تسمح لنا بالتفكير فى غيره ».

ولكن وا أسفاه فأننا والعالم الى الباطل ، وهو زائل بزوالنا وهوذا المرتل يقول « يذخر ذخائر ولا يدري من يضمها » (مز ٣٩: ٦) ليت شعرى ما هو الغنى الذى يعتد به الانسان ولأجل الحصول عليه يرمى بنفسه فى مخاطر الموت ؟ وما هذه المراتب والوظائف التى تسلب عقول البشر وتستهى أفئدتهم وما هذه الخيرات العالمية التى عندما نفوز بها فى هذه الحياة فسرعان ما تفارقنا عند ولوجنا الدار الأخرى ؟ لأجل هذا ينبهنا الكتاب الالهى قائلاً « لا يفتخرون الحكيم بحكمتهم ولا يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الغنى بغناه » (ار ٢٣: ٩).

حقاً ينبغى أن ندعويوم الموت « يوم الخسارة » ولوسألنا أقرباءنا وأصدقائنا الراحلين لأجابونا محذرين إيانا قائلين « احتسوا من ضياع أعماركم فى خدمة هذه الأيجاد الكاذبة لأننا لم نأخذ شيئاً منها بل خسرنا كل تعبنا لأجلها . وقال أحد الأفاضل : اننا لا نقدر أن نعتبر هذه الأشياء ملكاً خاصاً بنا لأننا لا نقدر على

أخذها معنا الى العالم الآخر» ما الذى بقى من قدرة اسكندر الكبير وغنى كروزوس وجمال الملكة كليوباترة؟ لقد انذهل الناس منهم فى حياتهم وتحذثوا عنهم بعد مماتهم، بينما هم الآن تعساء أشقياء. قال القديس أوغسطينوس «أنهم يمدحون حيث لا يوجدون و يعذبون حيث يوجدون».

ان كثيرين من البشر يشتهون لو ذاع صيتهم واشتهر اسمهم بين الملأ ولكن مهما طار صيت الانسان الى أقاصى الأرض فعما قليل يموت و يصبح أمره نسياً منسياً. فن الغباوة اذاً أن نخسر الخيرات الأبدية لأجل هذه الأشياء الدنيئة ما اشبهنا بعيسو الذى باع بكوربته بأكله من العدس. فلا تشته العظمة العالمية ولا تتبع اللذة الأرضية فإنه سيأتى وقت فيه يتساوى العطاء والأنباء، الأغنياء والفقراء، المتنعمون وغير المتنعمين و يصبح «عال ودون، أغنياء وفقراء سواء» (مز ٤٩: ٢).

أجل ان الغنى فى هذا العالم يتنعم أكثر من غيره ولكن هل عند حلول المرض تخفف عنه القاعات المريئة الأوجاع، هل يزيل الذهب والفضة مرارة القلب؟ وهل الثروة والمجد يطردان عنه الآلام؟ وعند احتضاره واطفء نور عينيه ماذا ينفعه من الغرور واللذات؟ أين تكون المشتريات والتنعمات؟ هوذا الحكيم يقول «من يتكل على غناه يسقط. أما الصديقون فيزهون كالورق» (أم ١١: ٢٨).

قد يوسع الانسان مداره ولا يقتنع، مع أنه بعد موته لا يملك من الأرض سوى قطعة صغيرة تجمع عظامه البالية، وقد يحب الانسان علو البناء بينما يد الموت تحفر له فى الأسفل، وقد يلذذ جسمه ولكنه فى الحقيقة يقدمه وليمة للودود والحشرات. قد يرغب الاضطجاع على فراش ناعمة وثيرة ولكنه فضلاً عن أن ناعم الفراش يكون له شوكة فى غصون المرض فإنه يتحول الى لحد وتراب ممزوج بالخصى. فأين الصيت والفخر العالمى؟ قد انتزعا. أين الأمر؟ قد بطل. أين الهيبة والعظمة؟ قد سقطتا.

فلا جمال يدوم ولا قوة تبقى ولا سعادة إلا وتنتهى. فإذا كنت ترى شخصاً ذا طلعة بهية ولسان فصيح وقدمين سر يعتن و يدين عاملتين فتأمله بعد حين تراه قد

انحل وبطلت حركة اعضائه ، فيصمت فه وترتخي يداه ورجلاه وتهمد أعضاؤه ، ويتحول ذلك الجسد النضير الى جثة صفراء خرساء لا يستطيع الانسان أن يثبت نظره فيها لشناعتها . ولا يقف أمره عند هذا الحد بل يطرح فى التراب و يصير مأكلاً للحشرات فيقول للقبر أنت أبى وللدود أنت أمى وأختى » (أى ١٧ : ١٤).

فحياة كهذه لا دوام لها لا يصح نسيان النفس لأجلها ولا ينبغي التباهى بها . فبئسك الانسان كل ذهب العالم وليتمتع بكل بطل الشهوات وليسكن أعلى القصور ويلبس أفخر الثياب ولكن ما هى قيمتها إذا كان لا يضمن بقاءه للتلذذ بها . ما أصدق وصف الرسول لها « لأن كل جسد كعشب وكل مجد انسان كزهر عشب والعشب يبس وزهره سقط » (١ بط ١ : ٢٤).

ينعمون أجساداً ستفسدها أحقر حشرات الأرض . و يزنون قواماً سينحى رغماً . و يتمايلون بأعناق ستكسر يوماً و يفتخرون بعيون سيفلقها الموت . فحب العالم جاهل ومغرور . لنفرض أنه فاز بجميع ما يشتهى فكـم من الزمن يمكن أن تدوم سعادته على الأرض ؟ هل يمكن أن تدوم له أكثر من مدة حياته ؟ و بعد وفاته لا يستطيع أن يأخذ قصره معه ولا يمكنه أن يقول للمال تعال اصحبنى ، ولا يلتمس من المجد أن يرافقه .

ان سليمان الحكيم الذى وفر لنفسه كل أسباب السعادة الدنيوية لما أفتكر أنه لأبد من أن يأتئيه الموت على حين غفلة فيطرحه من أعلى مجده الى الخضم ويربط يديه عن العمل ورجليه عن المسير ويسد فاه عن الكلام ويملاً عينيه من الظلام ويحرمه من كل ما عملت يداه ولا يبقى بعد ذلك فى بيته بل يدفع الى القبر . لما رأى كل ذلك دعا ملكه وكنوزه وملذاته حتى حياته باطلاً (جا ١).

وقيل أن أوغسطس وهو يجود بأنفاسه الأخيرة قال « يا فارس رد لى جيوشى الجرامة لأودعها بنظرة إذ لا أستطيع قيادتها بعد فإن أوامر الهية تتخلل دماغى » وحكى أن صلاح الدين الأيوبي سلطان العرب المشهور الذى دوخ انبلاد بفتوحاته وغزواته لما دنا أوان موته أخذ وهو على فراش المرض يئن ويتهد . ولما اجتمع حوله

الأمراء والأعيان وكبراء المملكة أمر أن يؤتى بالكفن الذى كان مزمعاً أن يلف داخله وأشار الى أحد الموظفين أن يأخذ الكفن و ينصبه على رأس رحمة الظافر ويسلمه لأحد سعاته ليطوف به فى جميع شوارع المدينة و ينادى قائلاً « ان سيد الشرق لم يستطع أن ينزل القبر الا برداء واحد ».

كان فى بلاد الروم مما يلى أرض الأندلس مسيحي تقى رغب عن العالم وزهد فيه ثم وفد على المستعين بن هود فى بعض الأمر فأكرمه ثم أخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن أمواله وما حوته من النفائس وأوقفه على ما لديه من الخدم والحشم والعبيد والجوار وأقام على ذلك أياماً فلما انقضت قال له : كيف رأيت ملكي ؟ قال له رأيت ملكك عظيماً ولكنه يعوزه شئ واحد إن أنت قدرت عليه تم انتظامه . وإن لم تقدر عليه فيكون هذا الملك كلاً شياً . فقال وما هو ؟ فأجابه أن تصنع غطاء حصيناً قوياً تكون مساحته قدر مساحة البلد ثم ترفمه على البلد حتى لا يجد ملك الموت اليك سبيلاً . فقال المستعين : سبحان الله . أيقدر البشر على مثل هذا ؟ فقال الرجل « لماذا اذاً تفتخر بأمر تتركه غداً ؟ فان مثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم ».

وقد قيل ان سراى ملوك النسا التى لبثت قائمة ٧٠٠ سنة حولت بعد طرد الملك منها الى مكاتب للحكومة والشركات ، والحديقة العظيمة التى لم تطأها إلا أقدام كبار الضباط قد قسمت الى دكاكين صغيرة لمعارض وقتية ودائمة لا يسمع فيها إلا أصوات التجار ومساومات الباعة والمشتريين . فسبحان من يغير ولا يتغير . كيف لا وهو القائل لنبوخذنصر « لك يقولون يانبوخذنصر الملك . ان الملك قد زال عنك . ويطردونك من بين الناس وتكون سكتاك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالشيران فتمضى عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلى متسلط فى مملكة الناس وأنه يعطيها من يشاء » (٤١٥ : ٣١ و ٣٢).

يوجد كثيرون يحسدون الملوك على ملكهم والأغنياء على غناهم و يشتهون لو يكونون نظيرهم ، ولكن أنظر يا هذا الى أولئك المجدين كم يدوم مشهد مجدهم هذا ؟ غداً يموتون و يصبحون محقرين مداسين بالأقدام و ينفض عنهم كل التملقين

و يدومون منفردين فى ظلمة القبر. فالموت يعرى الانسان من كل خيرات العالم . وهو لا يخلع الانسان من الدنيا فقط بل يسلخه منها . ما أعظم الفرق بين خلع الثياب وسلخ الجلد فإذا رأيت محب العالم وهو يموت ألفيته يبكى بدموع سخينة وإذا سألته لم تبكى ؟ أجابك كيف لا أبكى أسفاً على مفارقة ما قد اكتسبته بجد وعناء مستحيلين . كيف لا أبكى وأولئك الذين يحبوننى و يشفقون على هم أول من يسلموننى الى القبر و يتركوننى فى ظلمته وحدى ، وإذا برى نفسه محمولاً لترك كل ما أتكل عليه فمن يستطيع أن يصف مقدار حزنه وحرقته وندامته ؟.

فياله من منظر محزن أن يشاهد ذلك العظيم خارجاً من قصره الى قبره دون أن يكون له أمل بالرجوع الى القصر مرة أخرى فيأتى غيره و يستولى على كل ماله . وأهله ينقلونهم بالبكاء مستوراً ببعض الملابس التى لا تحفظ جسده من الفساد . فلا يجد بعد من يواسيه أو من يجالسه ، ولا يبقى اعتباراً لأوامره و يتساوى بأحقر حقير فى الأرض و يصبح فى عداد المهملين فلا يذكر بعد و يتم عليه القول « الغنى والفقر يتلاقيان صانعهما كليهما الرب » (ام ٢٢ : ٢) « كلاهما يضطجعان معاً فى التراب والدود يغشاها » (أى ٢١ : ٢٦) .

قيل ان ديوجينيس الفيلسوف اليونانى مثل يوماً أمام الاسكندر الأكبر وأظهر أنه مهتم جدد الاهتمام بفحص إحدى جماجم الموتى . فسأله الملك قائلاً « علام تفتش هكذا بعناية فيما بين هذه الجماجم » فأجابه ديوجينيس إنى أفحص عسى أن أجد جمجمة أبوك الملك فيلبس ولكنى ما قدرت أن أميزها عن باقى الجماجم فإن كان يمكنك أن تعرفها فأرنى إياها » وقال سينكا الفيلسوف : ان البشر يتميز أحدهم عن الآخر فى المولد ولكن بعد الموت يتساوى الجميع » وقال أوراثيوس ، ان الموت يجعل صولجانات الملوك مماثلة لمعاول الفلاحين » .

وقال القديس افرام السريانى « مررت يوماً على قبر فى قفر فسألت : لمن هذا القبر ؟ فقبل لى هو : لأحد الملوك العطاء وقد دفن فيه رجل صعلوك بجانب الملك . تعال وانظر لعلك تستطيع أن تميز جثة أحدهما عن الأخرى . فوقفت على باب القبر المفتوح ولوائح الحزن على وجهى فنظرت أولاً جثة الفقير مطروحة فى التراب ونسج

العنكبوت مخيم على رأسه وأسنانه عارية من الجلد وفه مملوءاً تراباً وعظامه مجردة من اللحم الذى استحال الى تراب وفتانة . فقلت واحسرتاه على الفقير كيف تغير حاله ! وظننت أن الملك يمتاز هناك كامتياز ههنا ويكرم مثواه حيث حل ، وتوقر جشته فى القبر كما كان شخصه موقراً فى العالم . غير انه قد خاب ظنى لكونى رأيت وقد اعتاض عن عرش الملك والاعتبار بمكان الذل والاحتقار وعن الطيوب الزكية بالفتانة الرديئة ، وعن كرامته فى هذا الزمن بهوة الرمس والدمى .»

قال حكيم لأحد أصحابه : أترى أن أريك الدنيا ؟ فقال نعم . فأخذ بيده وانطلق حتى وقف به على مزبلة فيها رؤوس آدميين ملقاة وبقايا عظام نخرة وخرق وقد تمزقت وتلوثت بنجاسات . فقال هذه رؤوس الناس التى تراها مثل رؤوسكم ، كانت مملوءة من الحرص والاجتهاد على جميع الدنيا وكانوا يرجون من طول الاعمار ما ترجون . وكانوا يجدون فى جمع المال والاهتمام بالدنيا كما تجدون . أما اليوم فقد تلاشت أجسامهم وتجردت عظامهم كما ترى . وهذه الخرق كانت أثوابهم التى كانوا يزينون بها واليوم قد ألقها الريح فى مستودع الأقدار . وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التى كانوا يحتالون فى تحصيلها واليوم لا يقربها أحد من نتانها . فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى . فمن أراد أن يبكى على الدنيا فليبك فإنها موضع البكاء .

وما أجمل قول القديس يوحنا ذهبى الفم : « انك أيها الانسان إذا كنت تفتخر بما تتزين به من حرير وصوف فأعلم إن هذا كساء الحيوانات الحقيرة التى تمرغت فيه قبلك وأنت تلبس الآن فضلاتها » .

وقال هذا القديس أيضاً « تأمل يا هذا الى قصور العظماء والكبراء كيف أنها خاوية خالية وقد انقلبت بمرور الدهور والعصور الى أطلال باليه ينبع فى أرجائها البوم والغراب . ليت شعرى كم من الشرور كان يفعل هؤلاء ! وهاهم الآن لا يسمع لهم صوت ولا تذكر أسمائهم : فأين أولئك الذين كانوا يغترون بجباههم ؟ أين الذين كانوا يدحونهم ؟ أين الذين كانوا يضربون لهم على آلات

الغناء ؟ أين الضحك والاستهزاء ؟ يا للأسف لقد باد الكل وفنوا وخلت منهم
أماكنهم .

فما أشبه مرور الانسان فى الدنيا بمرور السفينة فى البحر فانها لا تبقى أثراً
وراءها يدل على مرورها ، هكذا حياتنا . حقاً ان الدنيا تغفل عن أهلها وتهملهم
وحدهم . أما حياتهم فقد انصرفت والأيام دفنت ذكراهم . حتى قبورهم الفخمة
هدمت ودفنت ولم يبق لهم أثر ولا اشارة . قال الحكيم « لأن الغنى ليس بدائم ولا
التاج لدور قدور » (ام ٢٧ : ٢٤) .

فيا للأسف على من أحبوا العالم وعشقوا مديح الناس فجدوا وكدوا لنوال المجد
ومع ذلك مروا دون أن يعرف مكان مرورهم . كم من الناس نظيرنا قد عرفناهم
وعاشرناهم وسررنا بمحادثتهم هم الآن مدفونون تحت أقدامنا فالموت قد ساد جميعهم
فلا يرجعون إلينا بل نحن راحلون إليهم . كل الأشياء سريعة الى اليوار ونحن قريباً
ننفصل بضعنا عن بعض تاركين كل أفراننا ومسراتنا وأحبائنا . واليوم قريب
الذى فيه يأكلنا الدود ونستحيل الى تراب ورماد .

فالواجب علينا إذاً أن لا نعتد بهذا المجد العالمى و ينبغى أن نزن الخبرات الزمنية
بالميزان الصحيح فحينئذ نجدها عديمة القيمة كقول الكتاب « إن زاد الغنى
فلا تضعوا عليه قلباً » (مز ١٢ : ١٠) حتى قال القديس أوغسطينوس « لا تنظرأيها
الانسان الى ما كان يملك الغنى بل انظر الى ما أخذه معه » ويحققه قول الكتاب
« كما خرج من بطن أمه عرياناً يرجع ذاهباً كما جاء ولا يأخذ شيئاً من تعبته
فيذهب به فى يده » (جا ٥ : ١٥) وقوله أيضاً « لأننا لم ندخل العالم بشئ وواضح
أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئ » (١ : ٦ : ٨) .

فإعتبر أيها الانسان بأنه لا يرافقك درهم واحد من أموالك ولا أحد من عبيدك
ولا ثوب واحد من ملابسك لتتمتع بها فى الأبدية . إنما يرافقك شئ واحد هو إيمانك
بأهلك وثمر إيمانك أى عملك الصالح فهما اللذان يكونان لك سراجاً مضيئاً ينير لك
سبيل الأبدية المظلم .

الفصل العاشر

فى سرعة اضمحلال أجماد العالم

« السحاب يضمحل ويزول . هكذا الذى ينزل الى الهاوية لا يصعد . لا يرجع بعد الى بيته ولا يعرفه مكانه بعد » (أى ٧ : ٩ و ١٠).

كضباب الصباح الذى يكسور رؤوس التلال ليلاً ، وكالبخار الذى يغطى الأودية ولكن يضمحل حالماً تسطع عليه أشعة الشمس فتبدو من تحت تلك التلال والأودية ، هكذا بجمد العالم يمضى فلا ينظر أيضاً . كالرعود والبروق والسحب والصواعق تنحدر بشدة على العالم فى فصل الصيف و يعقبها هطول الأمطار والسيول العظيمة ولكن بعد قليل جداً يبطل هذا الهيجان و يعود الجلد الى صفائه ، هكذا كرامة هذا العالم وأجماده الفارغة تسرع الى الزوال والانحلال بعد علوها وانتفاخها ، فحاشية الملك تفرقت ومجلسه العظيم انحل ، ومجد الغنى باد « كيف صاروا للخراب بغتة اضمحلوا فنوا من الدواهى . كحلهم عند التيقظ يارب عند التيقظ تحتفر خياهم » (مز ٧٣ : ١٩ و ٢٠).

كظل باطل لا مادة له ولا وجود سوى ظلامه ورسمه وحركته ، هكذا العالم فأنه ظل يتقلص فيتلاشى أثره . فهل ترغب أن تطارد ظلاً . وهل يوجد شئ أسرع زوالاً من أجماد العالم والانسان الذى يعشقها ؟ « لأن للشجرة رجاء . ان قطعت تخلف أيضاً ولا تعدم خراعها . ولو قدم فى الأرض أصلها ومات فى التراب جذعها فن رائحة الماء تفرخ وتنبث فروعاً كالغرس . أما الرجل فيموت و يبلى . الانسان يسلم الروح فأين هو » (أى ١٤ : ٧ - ١٠).

كـمـوج البـحـر يـصـعد و يـهـبط و لم يـعـد يـنـظـر . هـكـذا تـار يـخ هـذا العـالـم كـتـار يـخ
المـوجـة صـعـود و هـبـوط ثـم اـنـحـلال الـى الأبد . فـهـل تـروم أـيـها الـانـسـان أن تـجـعـل نـصـيـبـك
فـى الحـيـاة مـوجـة ؟.

كـقـوس سـحـاب . أـرـسـلت الشـمـس أشـعـتها عـلـى غـيـوم مـمـطـرة فـتـكـسـرت ثـلـك
الأشـعـة الـى ألـوانـها السـبـعة فـبـدت لـلـناـظـر قـوساً غـايـة فـى الجـمـال . و لـكـن ثـلـك الـغـيـوم
مـرت بـسـرعة فـزـال لـلـوقـت جـمـال القـوس . هـكـذا أـيـضاً المـجـد الـذـى يـتـألف مـن فـانـيـات
هـذه الحـيـاة فـإنـه تـدـهـمـه غـيـوم الأـخـطـار فـيـنـحـل و يـتـم الـافـتـراق بـيـنـه و بـيـن الـانـسـان
فـلا يـعـود يـراـه الـى الأبد .

كـصـورة جـمـيـلة رـسـمت فـيـها مـدن و قـلاع و مـمـالـك و بـحـار و انـهـار و جـبـال و لـكـن مـتـى
لـحـقـها قـلـيـل مـن المـاء مـحـيت بـسرعة و تشـوهـت ، هـكـذا الدنـيا تـظـهـر لـك بـصـورة جـمـيـلة
مـزخـرفـة و لـكـنـها تـتـمـزق و تـتـلاشـى بـأقـل الأـشـيـاء . و قـلب الـانـسـان المـملـوء بـالمـطـامـع
و الآمـال فـى و قـت و جـيـز يـنـسـحـق و يـفـقـد الحـيـاة « لـذـلـك يـكـونـون كـسـحـاب الصـبـح
و كـالنـدى المـاضـى بـا كـراً . كـعـاصـفة تـخـطف مـن الـيـدـر و كـدخـان مـن الكـوة »
(هو ١٣ : ٣) .

كـزـهـرة نـضـرة تـسـر مـن يـراها فـيـقـتـطـفـها و يـشـم رائـحـتها الزكـيـة و لـكـن بـعد بـرـهة
قـصـيرة تـذـوى و يـذـوب جـمـال مـنـظـرها . هـكـذا العـالـم يـذـبـل أـمـام عـيـونـنا فـيـبـنـا نـحـن نـنـظـر
الـيـه بـسـرور إذا بـه يـمـضـى و لا يـبـقـى لـه سـوى قـلـيـل مـن الـغـبار . فـهـل تـحـب أن تـجـعـل
نـصـيـبـك ما لا تـزـيـد مـدـته عـن سـاعة مـن الزـمـن ؟.

كـسـفـيـنـة تـرى أـمـامـنا تـنـشـر قـلـوعـها و تـسـرع فـى سـيرها فـتـوارى عـن الأنـظـار . أو
كـقـاطـرة قـامـت لـلـسـير فـغـابـت عـنا فـى لـحـة . هـكـذا العـالـم فـأنـه فـى لـحـظة يـتـوارى و فـى
و قـت قـصـير يـغـيب . قال يـوحـنا الرـسـول « العـالـم يـمـضـى و شـهـوتـه » (١ يـو ١٧ : ٢) قال
ذـلـك لـأنـه عـاصـر اثـنـى عـشـر امـبـراطـوراً و هـم أوغـسـطـس و طـيـبـار يـوس و كـالـيغـولا
و كـلـودـيـوس و نـيـرون و غـلـبـى و اثـو و فـيـتـالـيـوس و يـسـبـاسـيـانـس و تـيـطـس و دـومـيـتـيـانـوس
و نـرـفا ، و كـانـوا كـلـهـم يـظـنـون أن العـالـم لـهـم و مـات أكـثـرـهـم أسـوأ مـيـتة .

كخيمة فى البرية ينصبها السائح أو الراعى عند المساء فتراها بقعة بيضاء كأنها بزغت من الرمضاء . وعند شروق الشمس تختفى تلك الخيمة وساكنها وترى البرية مقفرة كما من ذى قبل . هكذا العالم ينظر اليوم وغداً يتوارى عن النظر، وقد قال حزقياس الملك « مسكنى قد انقطع وانتقل عنى كخيمة الراعى » (اش ٣٨: ١٢) ويوحنا اللاهوتى يخبرنا عن زوال الأرض بقوله « ورفع ملاك واحد قوى حجراً كرحى عظيمة ورماه فى البحر قائلاً هكذا بدفع سترمى بابل العظيمة ولن توجد فى ما بعد . وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنيين والمزمريين والنافخين بالبوق لن يسمع فىك فى ما بعد . وكل صانع صناعة لن يوجد فىك فى ما بعد » (رؤ ١٨: ٢١ و ٢٢) فهذا هو اليوم العظيم الآتى على الأرض حيث تنحل العناصر وتتلاشى المسكونة التى طالما كسرت قلوباً وأورثتها من الأحران والأكدار ما لا يحتمل . فاعلمى أيتها الدنيا مكردة صفاء الحياة وهادمة أركان السعادة ومورثة الشقاء والاحزان لكل بنى الانسان أن الله قد أعد لك يوماً فيه تطرحين بدفع فى ظلمات العدم والاضمحلال الى الأبد . هذا هو جزاؤك العادل أيتها الغرارة الشنيعة .

إن أحد السياح الأتقياء بعد أن طاف العالم ورأى كل عجائب الدنيا وغرائب الانسان حتى شاخ وآوى الى فراش الموت صرخ عند موته قائلاً لابنه « الأشياء زائلة ! الأشياء زائلة ! » وهذا هو صراخ كل من عرف حقيقة العالم وخبر أحواله . والرسول بولس يقول « فأقول هذا أيها الاخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين هم نساء كأن ليس لهم والذين ييكون كأنهم لا ييكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون . والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه . لأن هيئة هذا العالم تزول » (١ كور ٧: ٢٩ - ٣١) .

فما أشبه العالم بالتمثال الذى رآه نبوخذنصر الملك الذى كان رأسه ذهب وصدوره وذراعاؤه من فضة وبطنه وفخذه من نحاس وساقاه من حديد وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خرف إلا أنه حطم أخيراً وانسحق الحديد والخرف والنحاس والفضة والذهب معاً وصار كعصافاة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان (دا ٢) وهذا إشارة الى ممالك العالم التى يرتفع شأنها وينتهى أمرها أخيراً

الى الإخلال والزوال .

إن يونان النسبى فرح فرحاً عظيماً عند معاينته تلك اليقطينة التى نبتت بغثة وامتدت ونمت حتى صارت فى يوم واحد كأنها نظير خيمة تظله ولكن الله أعد لها دودة فضربتها فبيست . تألم لأجلها يونان وطلب الموت لنفسه فوبخه الله لأنه حزن على يقطينة بنت ليلة كانت و بنت ليلة هلكت (يون ٤) . ليت شعري أليست على هذه الصفة كرامات هذا العالم وأمواله وأجاده وملذاته فإنها فى ليلة واحدة تأتى وكثيراً ما تفقد فى تلك الليلة نفسها . أيجال لك إنك ساكن ومستريح فى ما تملك ؟ أنتظن إنك فى أمن وسلام ؟ لعمري أنك نائم ومغرور لأنه تحت ظل اليقطينة النضرة استقرت دودة الفناء وهى تأكل فيها من غير أن تشعر ، وبغثة تخسر لذاتك . الزمان ييبس كراماتك وغناك ، والريح يكنس مجدك وعظمتك « أيضاً فى الضحك يكتب القلب وعاقبة الفرح حزن » (أم ١٤ : ١٣) .

ألم يسمع بيلشاصر الملك وهو على مائدة السرور وسراريه وعظماؤه مملكته حوله معه دانيال النبى يقول له « أحصى الله ملكوتك وأنهاه » وقال الكتاب « فى تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين » (دا ٥ : ٢٦ و ٣٠) ألم يسمع الغنى عقب تأمله فى سعادة مستقبله الصوت « ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعددتها لمن تكون ؟ » (لو ١٢ : ٢٠) . هوذا الكتاب يقول « واضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فستبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة يقول الرب » (عا ٣ : ١٥) .

اننا نجد كثيرين قد ساقهم العلم بزوال الأرض وما فيها الى رفض كل خيراتها ومقتنياتها . فيوسف الصديق الذى كان بمصر سيداً عظيماً لم يذكر الكتاب عنه أنه خلف بمصر ثروة ومالاً وذلك لأنه كان متيقناً أن بنى اسرائيل اخوته سيتركون مصر يوماً . كذلك موسى النبى مع علمه أنه الوريث لعرش مصر فقد رفض هذا المقام السامى مفضلاً بالأحرى أن يذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتى بالخطيئة حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزان مصر (عب ١١ : ٢٤ - ٢٦) .

وقد أوصانا مخلصنا الصالح قائلاً « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض »
(مت ٦ : ١٩) وذلك لأن كنوز الأرض قصيرة المدة كما أنها تعيق الانسان عن
السعى في طريق السماء . ليت جميع البشر يتأملون ولوساعة واحدة في سرعة زوال
هذا العالم ومقتنياته فإن هذا يكفي لأن نزدري ونستخف به « إن هتاف الأشرار
من قريب وفرح الفاجر الى اللحظة » (أى ٢٠ : ٥).

إن الأشجار فى فصل الصيف تظهر مينة خالية من الثمر والورق ولكن أصلها
حتى وكل قواها محفوظة . وأما المروج الخضراء فتظهر فى الشتاء خضراء حية ولكن
عندما يوافق فصل الصيف تدبل وتيبس . أما الأشجار فتزهر وتثمر : وهذا ينطبق
تمام الانطباق على أحوال هذه الحياة الدنيئة فهى شتاء مكرب محزن قليل الربيع
ولكنه ملآن بالأعشاب التى تزهر قليلاً والتى يتنعم أهل العالم بنضارتها وروث
خضرتها زماناً ما . ولكن عند مجئ صيف الحياة الأخرى الدائمة البقاء حينئذ يذبلون
ويبسون فيحصد الموت العشب اليابس ويضرم فيه النار .

فلا تغرنك خضرة أمجاد العالم ولا رونقها الحاضر فإنها تدبل حالاً وتزول فى
أسرع وقت . لا تحب العالم الذى تراه مسرعاً فى مروره جداً . قال الحكيم « كعبور
الزوبعة فلا يكون الشرير » (أم ١٠ : ٢٥) وما أحسن قول أحد المؤمنين « إن
الانسان الذى يتفانى فى خدمة هذه الحياة أشبه بالحيوان الذى يخرج الماء من
السواقي ولا يشرب منه ».

ومن يتأمل جيداً يجد لذات هذه الدنيا قصيرة لا ثبات لها ، وكل ما تقدمه
لحبها فهو زائل . نعيمها وقتى ، مجدها وأفراحها بمنزلة مرور الدقيقة الواحدة من الزمن
وكل ما فيها من الأباطيل يتلاشى سريعاً ويطير كال دخان وينسى كأنه ما كان
« وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس وتصير
كل هذه الأرض خراباً » . (ار ١٦ : ١٠ و ٢١) . قال القديس كبريانوس « لآ-
قضى على العالم بأن كل ما هل قل وكل ما زاد نقص ، وكل ما قوى ضعف ،
وكل ما كبر صغر وعند ذلك يزول كل شئ ».

لقد رأينا مع مرور الزمن تلاشى شئ كثير مما كان معنا . أين الأشياء التى رأيناها بالأمس ؟ لقد بادت وتلاشت كالدخان . أين المآكل والمشارب الطيبة ؟ لقد اضمحل الكل ولم يبق شئ . باطل هو فرح الطيور بأكل الحنطة وهى فى شرك الصياد . وباطل هو سرور السمك بالطعم الموجود فى الصنارة (جا ٢٩ : ١١) .

هكذا باطل هو فرح الانسان بسعادة الدنيا ، والموت قريب . فكل انسان سيصير الى التراب وكل ما يشيد سيؤول الى الخراب . ارفعوا عيونكم الى السموات وانظروا الى الأرض من تحت «فإن السموات كالدخان تضمحل والأرض كالثوب تبلى وسكانها كالبعوض يموتون» (اش ٥١ : ٦) .

حسبك أن تفتش أيها الانسان على الخيرات التى لا يفنيها طول الزمن ولا يبليها تقادم العصور ولا يغيرها شئ . ان كرامة المسيح الحقيقية ليست إلا فى المسيح يسوع المصلوب ومجده وإفتخاره فى مكابدة الضيقات والمشقات من أجل أسمه القدوس . والشرف الحقيقى إنما هو فى فضيلة النفس التى لا تهلك بالسعى الباطل ولا تقتنى بالدراهم ، قال أحد كتبة سيرة القديس انبا بولا أول السباح «إنى أسأل الآن الأغنياء الذين لا يعرفون مقدار ثروتهم لكثرتها والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة بالزخارف والنقوش ، ما الذى أعوز هذا الشيخ القديس المتعري من كل غش . فأنتم تشربون فى كؤوس من فضة وذهب وهذا بولا يطفى عطشه بكف يده . أنتم تلبسون الحرير وهذا كان مرتدياً بثوب من نخل . غير أنه لا يكون الأمر هكذا دائماً ، وهذه الحال تنقلب الى حال أخرى . فيها أن السموات قد انفتحت لبولا المسكين ، وأما أنتم فستهبطون الى جهنم مع جميع كنوزكم . وهو قبر فى الحد ليقوم الى المجد وأنتم تدفنون فى قبور من الرخام والمرمر لتحترقوا الى الأبد» .

أيها القارئ العزيز .

أيها أحب لديك . محبة أمور الحياة التى تزول مع زوالها . أم محبة يسوع التى بها تدوم الى الأبد ؟ قال الرسول بطرس للمؤمنين عن مجدهم فى السماء «الميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السموات لأجلكم» (١ بط ١ : ٤) .

الفصل الحادى عشر

فى ضرورة الاستعداد للموت

« أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش » (اش ٣٨ : ١)

الاستعداد للموت أمر ضرورى ، لأن الانسان لا يموت إلا مرة واحدة (عب ٩ : ٢٧) بعد ذلك يكون الانسان أمام أمرين إما سعادة أبدية أو شقاء أبدى فليس لنا مجال إذا بعد الموت لنصلح ما وقع منا هنا من الخطأ . فمن هذا الوجه الرجاء مقطوع والأمل مفقود فينبغى إذاً أن نتأكد أن أمر خلاصنا أو هلاكنا متوقف على حالتنا قبل الموت . فكما نعيش نموت وندان . الحياة التى نحياها والأعمال التى نعملها هى التى تكسبنا الحياة الأبدية أو تقضى علينا بالموت الأبدى .

قال عاموس النبى « استعد للقاء إلهك » (عا ٤ : ١٢) إن كنا نتوقع أننا سنمثل أمام أحد ملوك الأرض العظام فإننا نستعد بكل ما يمكننا من الاستعداد للمثول بين يديه . وإن كنا ننتظر دعوة للوقوف أمام أحد القضاة لاستجوابنا فى أمر ما فإننا نهيئ إجابتنا على كل سؤال نتوقع توجيهه إلينا . وإذا أردنا أن نذهب الى رجل غنى مقتدر لنطلب منه نوالاً فإننا نستعد لتلك المقابلة . ولكن ما أكثر الذين لا يفكرون أبداً بأن يستعدوا للقاء إلههم ، فإنهم يهتمون بلقاء من أحسن إليهم من أهل الأرض أكثر مما يهتمون بلقاء الله تعالى و يسلكون مع الناس الذين هم مثلهم باحترام أكثر مما يسلكون مع الرب ، مع أنه ملك الملوك ورب الأبواب ، وهو الذى يحكم علينا حكماً أبدياً بحسب حالتنا هنا ، فإما أن يصعدنا الى الأفراح السماوية أو يطرحنا فى أعماق الجحيم .

فما رأيكما إذا؟ أليس من الضروري علينا أن نستعد لمقابلة الله دائماً؟ ألم يجعلنا الله نجheel ساعة الموت لكي نكون متأهين ومستعدين له فى كل حين؟ قال القديس يوحنا ذهبى الفم «إن الله قد أخفى عنا ساعة الموت لثلاث غايات : أولاً لتعزيتنا . ثانياً لصيانتنا . ثالثاً لكمانا . فأما لتعزيتنا فكما يفعل الطبيب الجراح فبانه إذا أقبل إلى المريض ومعه الآلات التى ينبغى أن يستعملها فى جسده فإنه يسترها ويخفيها عنه . ثم أنه قد جرت العادة بأن يوضع على عيني المحكوم عليه بالموت حجاب لئلا يبصر ما قد أعد لتعزيه . وأما لصيانتنا فإنه لوعلم الانسان انه إذا أخطأ لا يفاجئه الموت فما أكثر المساوىء التى كان يتهاقت عليها ! بل كان للمشرير أن يقول إنى أجد أمامى فسحة من الزمان لأصرفها فى التوبة والتكفير عن خطاياى فلماذا لا أتبع اليوم شهواتى وأهوائى ؟ فعدم معرفة يوم نهايتنا هو كاللجام الذى يمسكنا عن التدهور فى الشرور . وأما لكمانا فن يعتقد يقيناً إنه فى كل دقيقة يمكن أن تنقضى حياته لا يتهاون فى أن يصرف كل دقيقة فى عمل ما يستحق عليه الأجر الحسن من الله ولا يبرح مجتهداً ليزداد حسنة على حسنة وفضيلة على فضيلة . قال القديس أوغسطينوس « أن الله بإخفائه عنا يوم انتهاء حياتنا قد خصنا برحمة جلية إذا أنه بذلك يلزمننا المواظبة والسهر واليقظ على نفوسنا بلا ملل ».

قال السيد المسيح « اسهروا إذا لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة » (مت ٢٣ : ١٥) إذا قيل لك إن هناك كنزاً قد أعطى لك أن تسعى لتناله فى زمن معين غير معروف مقداره فهل كنت تتوانى عن أن تعدو بسرعة البر لتفوز به ؟ وإذا قيل لمن حكم عليه بالاعدام أن أمامه فرصة قصيرة للتجاة فهل كان يتأخر عن أن يطلق ساقيه للريح لينجو بحياته . وفى العهد القديم كان للقاتل سهواً أن يجرى إلى مدن الملجأ لينجو من يطالب بثار المقتول . فهل كان يتباطأ عن السعى للخلاص من القتل ؟ (عد ٣٥) فأمامك الآن فرصة لا تعلم مقدارها لتستعد لاستقبال ساعة الموت وبعدها تقابل إلهك لتعطى حساباً فى يوم الدين عن كل ما قدمت يدك خيراً كان أم شراً فلماذا أراك متعاساً ومهملأ ومتأخراً . أنتظن أن المجد المعد فى السماء للمستعدين بأقل من كنوز العالم ؟ أو أن العقاب المجهز للمهملين بأقل شدة من

عقاب الاعداء ؟ أو أن يد العدل التى تعاقب الخطاة ليست باقى من يد من يسعى ليأخذ بتأقريره ؟ ياغبائنا هل هكذا أصبحنا عديمى الفهم حتى إننا نجد وراء الغائى ونحمل أمر الباقي ونخشى المخاطر الخفيفة ولا نهتم بالبلايا الجسيمة . أيها الباسون أن المثية تدعوكم بعد هتبات والديان الرهيب متأهب لمحاكمتكم فلماذا تتلهون وتضيعون هذا الوقت القصير فى الاهتمام بالأمر الباطلة ؟ قال الرسول بولس « مفتردين الوقت لأن الأيام شريرة » (اف ٥ : ١٨) وقال أحدهم « أن أياماً قليلة تستطيع أن تنال حياة أبدية » .

اعتبر أن فى استعدادك للموت تربح ثلاثة أمور :
أولاً : تربح التعزية فى هذه الحياة : فالمؤمن يسير فى الحياة بقدم ثابتة لا تروعه الكوارث ولا تزعجه البلايا ، ولا يذيق فيه ذكرى الموت مرارة شديدة . بينما ترى الخاطي مضطرباً خائفاً من تلك الساعة الهائلة التى لم يتبها لها فيرتعب من أقل مصيبة وينزعج لأهون خطر . وجد رجل فى الغابة مضرباً بدمائه لأن نمراً مفترساً قابله وانتزع بعض أعضائه وعلى الرغم من ألمه فقد سمعه يقول : « أشكر لك أيها الاله العظيم فضلك . إني أتألم من جراح النمر لا من وخزات الضمير » .

ثانياً : تربح التعزية حين الموت . فما أحلى الموت للمستعدين وما أبهجه للمستظرين . وما أحسن تشبيه السيد المسيح لساعة الموت باللص بقوله « طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وإنما إعملوا هذا أنه لو عرف رب البيت فى أية ساعة يأتى السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب » (لو ١٢ : ٣٧ و ٣٩) . وذلك لأن اللص إذا سطا على بيت ورأى صاحبه نائماً فإنه يقتله وينهب أمواله . هكذا الموت إذا جاء ورأى مستيقظاً منتظراً قدومه على الدوام فإنه يخاطبك بلطف الكلام ، ولكن إن رآك راقداً بنوم الخطيئة سلب نفسك منك وأماتك موتاً أبدياً . قال الحكيم « الشرير يطرد بشره أما الصديق فواثق عند موته » (أم ١٤ : ٣٢) .

ثالثاً : تبرج المجد الأبدى فى السماء . قال بطرس الرسول « بل كما اشرركم فى آلام المسيح افرحوا لكى تفرحوا فى استعلان مجده أيضاً مبتهجين » (١ بط ٤ : ١٣) .

تأمل أية خسارة تحل بك إن لم تكن مستعداً ؟ انها ليست خسارة أموالك أو قصورك أو حملك البهية ، لأن هذه . يمكن أن تعوضها إذا فقدت ولكنها نفس واحدة لك إذا فقدت لا يمكنك أن تجدها : إذا خسرتها لا يمكنك أن تربحها . كل غنى العالم لا يرد لها سعادتها . هوذا المخلص ينبه قائلاً « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . أو ماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه » (مت ١٦ : ٣٦) قال أحدهم « يظهر المخلص بهذا القول كأن بيده ميزاناً عظيماً دقيقاً يصل الى السموات ارتفاعاً وقد وضع فى كفته الواحدة . النفس . النفس الأبدية . نفسى ونفسك . وفى الكفة الأخرى العالم كله . وهويزنها أمام أعيننا ليرينا أيها أثقل وأعظم قيمة . فإنظر يا صاح إن الكفة التى فيها النفس تنزل بثقلها حالاً وأما التى فيها العالم كله فإنها تصعد بخفة كلية حتى تلحق قائمة الميزان كأن فى الأولى سبيكة عظيمة من الذهب وفى الثانية ريشاً لا ثقل له » .

إن الربان الذى يمخر بسفينته عباب البحر إذا سمع أن فى طريقه صخراً عظيماً غير معين مكانه إذا اصطدمت به سفينته تحطمت فلا يمكنه أن ينام أو يغفل ، بل تراه يلتفت بانتباه عظيم ليعرف مكان ذلك الصخر حتى ينحرف بسفينته عنه . وأنت على هذا السبيل تسير فى غمرات لجج هذا العالم الشرير بيننا صخرة الموت مرفوعة على الدوام فوق رأسك وهى مزمنة أن تنزل فى كل لحظة . فلماذا لا تلتفت وتحترس لكى تضمن لنفسك الوسائل التى تخلصك منها إذا ما سقطت عليك ؟ .

إذا قيل لك إن عدواً شديداً البأس سيأتى بغتة للانتقام منك أما كنت تخافه وتسرع فى استدعاء أهلك وأصحابك ليقفوا معك حتى إذا فاجأك العدو ينصرونك عليه ويخلصونك منه ؟ فلماذا لا تخاف إذ تسمع أن ألد أعدائك وهو الموت (١ كو ١٥ : ٢٦) هاجم عليك فى كل حين لينفذ الحكم الإلهى فيك ؟ هذا فضلاً عن أنك فى تلك الساعة التى يفاجئك فيها لا يقوى أخ أو صاحب على الوقوف

معك لمقابلته ، ولا تستطيع أن تطلب معونة أحد فهو يأتى لينازلك وحدك ولا يمكن أن يسندك حينئذ إلا استعدادك الحسن لمقابلته : قال الكتاب « طوبى للانسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم عند مصاريعى حافظاً قوائم أبوابى . لأنه من يجدى يجد الحياة وينال رضى من الرب » (أم ٨ : ٣٤ و ٣٥) .

فلا تتصور أن هذا العدو بعيد منك أو أن زمان اقترابه لك لم يأت بعد حتى تنام وتستغافل بل قل فى نفسك ها أنى شرعت فى أمر فلعلنى لا أتى الى آخره . وهأنذا أعود الى بيتى وأدخله فلعلنى لا أخرج منه إلا محمولا على أيدى من يشيعوننى الى القبر . وهأقد اضطجعت على فراشى فرميا لا أقوم منها مرة أخرى وهأقد أغمضت عينى فرميا لا أفتحها ثانية فى هذا العالم بل تفتحها يد اللحد فى القبر ليملاها تراباً . هأقد لبست ثيابى ولكنى لا أعلم هل أدخلها بيدي أو تخلعها يد أخرى . هأقد رفعت قدمى لأضعها عند خروجى من باب بيتى ولا أدرى هل أضع الأخرى على حافة البيت أم على حافة القبر ؟ فبذلك تنهى للاستعداد للموت وتكون كالمسافر الذى يكون على استعداد حتى إذا دق جرس القطار يكون مستعداً للسفر قال المخلص له المجد « لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسرجكم موقدة . وأنتم مثل أناس ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى إذا جاء وقرع يفتحون له اللوقت . طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين . الحق أقول لكم أنه يتمنطق ويتكئهم ويتقدم ويخدمهم .. ولكن إن قال ذلك العبد فى قلبه . سيدى يبسطى قدومه فيبتدى يضرب الغلمان والجوارى ويأكل ويشرب ويسكر . يأتى سيد ذلك العبد فى يوم لا ينتظره وفى ساعة لا يعرفها فيقطعها ويجعل نصيبه مع الخائنين » (لو ١٢ : ٣٥-٣٧ و ٤٥ و ٤٦) فكما أن اللابس الشوب الطويل بلا منطقة يكون غير متأهب لسفر أو مستعد لعمل ، هكذا المسيحى المرتبك فى الأمور الدنيوية فانه لا يكون مستعداً للسفر السماوى أو الخدمة الألهية .

إن الكثيرين يهملون الاستعداد على أمل أنهم يستعدون عند الموت ومن أدرانا انسا لا نموت فجأة ؟ وهب أننا مرضنا طويلاً فهل توقن أيها الانسان أنك ستتموت عقب ذلك المرض ؟ ألست دائماً تمنى نفسك بالشفاء مهما كان المرض شديداً ؟ ألا تجد حولك أهلك يطمنونك بأن صحتك جيدة ألا تجد الطبيب يهدى روعك قائلاً لك

« انك كل يوم تتقدم الى الشفاء ؟، ألا تجد من نفسك ميلاً لتصديق من يقول لك انك ستنال الشفاء أكثر من ميلك الى تصديق الفكر فيك بأنك ستموت ؟ و بعد ذلك ماذا يتم ؟ ها أنت تسلم الروح وترى بأن الذين هم حولك قد خدعوك . قبل هنية كانوا يعدونك بالشفاء ولكنهم كانوا كاذبين لأنك الآن تموت فكيف تستعد إذاً ، وأين الوقت الكافي لاستعدادك ؟.

قيل إن غزالاً أعور لا يبصر إلا بعين واحدة كان يطارده الصيادون و يتبعون أثره فى كل مكان توجه اليه حتى لم يدعوه فى أمن مطلقاً الى أن بلغ يوماً بقعة بجانب البحر فاطمأن ووقف يرعى محولاً عينه الصحيحة الى جهة البر حيث يخشى الصيادين ، وعينه التى لا تبصر الى جهة البحر . واتفق حينئذ مرور سفينة فأخذ أحد راكبيها سهماً ورماه فى قلب الغزال فأصابه . أنه نجا من جهة البر حيث كان يخشى الموت ولكنه مات من جهة البحر حيث كان يرجو الحياة . كم من كثيرين حسبوا أنفسهم بعيدين عن خطر الموت والهلاك ولكنه أتاهم من حيث ظنوا الأمان .

فلا تفتكر فيما مضى من حياتك بل فيما بقى من عمرك . ولا تفتكر كيف تعيش حسناً بل كيف تموت حسناً . ورد فى ميثولوجيات القدماء حكاية عن مغارة كبيرة فيها ٣٠٠٠ خباء بعضها داخل بعض متشعبة كثيراً ومتعرجة فإذا دخلها أحد لا يقدر على الخروج منها بل كل من يدخلها يموت فيها . فإذا حكموا على أحد بالدخول اليها دار منتقلاً من غرفة الى أخرى فى الظلام الى أن ينتهى الى آخرها . فإذا قصد الرجوع لا يعلم أى الطرق يختار فيجئ فى طريق ثم يدور و يرجع و يسير فى غيرها وربما أحس بآثار دوسه فظنه قريباً من باب المغارة فيتبعه فإذا به يدوس عظام وجاجم الذين دخلوا قبله وهلكوا فيرتعب و يرتعد ولا يزال على هذه الحال الى أن يهلك جوعاً وتعباً وحسرة ويموت كمدأ . فحدث أن حكم على شخص بالدخول الى هذه المغارة فأخذ معه كبة من الحرير الرقيق ، ربط طرفه بالباب ودخل وهو ممسك الكبة بيده ينشر الحرير عنها حتى إذا جاء آخر المغارة أخذ يلف الخيط على ركبته كما كان وهو يتبعه الى أن عاد الى حيث دخل بسلام ولم يضل

فى ظلماتها المدهمة . فاحترس وأنته وفكر فى كىف تخرج من العالم ، لافى كىف تبقى ، لأن البقاء فىه غير مضمون ، أما الخروج منه فؤكد ولا يختلف فىه اثنان .

فليس عليك إذاً إلا أن تستعد للموت بالإيمان العامل ، وذلك يقوم أولاً بترك الخطية التى أحببتها « لترك الشرير طريقه ورجل الاثم أفكاره وليتب الى الرب فيرحمه والى هنا لأنه يكثر الغفران » (اش ٥٥ : ٧) وثانياً بتقديم الأثمار الجيدة « وأما الآن إذ اعتقتم من الخطية وصرتم عبيداً لله فلكم ثمركم للقداسة والنهاية حياة أبدية » (روم ٦ : ٢٢) .

وهنا نحذر الجميع مما يمكن أن يخدعوا به ذواتهم وأخص ذلك أمران :

الأمر الأول عملهم فقد يخدعون به لأنهم يظنونهم حسناً وهو قبيح . كم من كثيرين يظنون أن أعمالهم الرديئة صالحة . وميل الانسان الى عدم نسبة أى شر اليه يجعله يتصور فى خطيته براً وفى إثمته صالحاً . ألم يكن اليهود فى زمن المخلص يظنون أن كبرياءهم براً وفساد قلوبهم غيرة وسفاهتهم دفاعاً ! ولذلك قال لهم وأنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم » (لوقا ١٦ : ١٥) .

والأمر الثانى الذى ينخدع فيه الانسان هو ثوابه . فقد يتوهم بأن له ثواباً صالحاً وهو يذخر لنفسه غضباً ليوم الغضب . كم من كثيرين سيطرقون باب السماء كأنهم من أخص أهلها فيسمعون الصوت من داخل « لا أعرفكم » .

كثيرون يعيشون فى الخطية وإذا سألتهم أى نصيب لكم فى الآخرة يكون جوابهم « السماء » وميل الانسان الى وجوده فى أماكن السعادة يصعب عليه الاعتقاد أنه من أهل جهنم ولو كان خاطئاً . ولكن لكل مقدمة نتيجة ، ونتيجة الخطية الموت ، ونتيجة البر حياة . فإذا أردت أن تعرف أى مكان سيكون مقرك فى العالم الآتى . فلا تسأل أميالك ولا تسأل الشيطان الذى يحاول أن يخدر أعصابك

بالأوهام الفارغة . بل أسأل أعمالك . وعن أعمالك أسأل كتاب الله . فإذا كانت
أعمالك تمدح من كتاب الله وبها يتمجد اسمه فأعلم إنك مستعد وأنت من أهل
السماء .

استعد إذا لدخول السماء بالقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب .

الفصل الثانى عشر

فى عبر الموت

«لأنه إن عاش الإنسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها وليتذكر أيام الظلمة لأنها تكون كثيرة . كل

ما يأتى باطل» (جا ١١ : ٨)

إن كثرة التفكير فى الموت تكبح جماح الإنسان وترد مطامعه وتلجم شهواته ،
وبقدر ما يتعمق الإنسان فى التأمل فى الموت تكثر حكمته وتزداد فطنته . فبالموت
ينتهى كل ما فى هذه الحياة الزائلة فإذا ما سعى الإنسان جهده فى جمع الخيرات
وتدخيرها وكان اسم الموت مكتوباً أمام عينيه اكتفى بحاجته ورجع وهو يهتف
قائلاً وأما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة» (١تى ٦ : ٦).

لقد اعتاد قوم من الفلاسفة أن يأكلوا ويشربوا فى مجاهم الموتى لكى يكون
ذكر الموت بادياً على الدوام أمام عيونهم . وهذا كانوا يداوون كل شهوة عالمية .
وقد ذكر مثل هذا عن كثيرين من الملوك والعظماء الذين اتخذوا ذكر الموت دواء
لكبريائهم الأرضية وحتى لا تغرهم العظمة على فعل ما لا يليق . فقد أمر الملك
فيليس المكدونى أحد خدامه بأن يكرر له كل صباح هذه الكلمات ثلاث مرات
«أذكر يا فيليس أنك بشر وانك بالموت الذى لا بد منه ستترك كل شئ» والملك
مكسيمانوس الأول صنع نعشاً لنفسه قبل موته بأربع سنين وحينما توجه كان يأخذه
معه وذلك لكى يسمع على الدوام صوتاً يقول له بلسان حاله «أذكر أنك ستموت
لا محالة وأنتك ستفارق كل شئ» . لقد كان فلاسفة الهند المعروفون بالبراهمة
يحضرون أمام بيوتهم قبوراً مفتوحة لكى يتذكروا الموت عند خروجهم ودخولهم على
الدوام وذلك لأنهم كانوا يعلمون جيداً أن ذكر الموت يفيد جداً فى اصلاح السيرة .

وكثير من ملوك الشرق كان لهم من جملة اعلام غزتهم الملوكية كتاب من ذهب يحملونه باليد اليسرى القرية من القلب اسمه « البر » وكان هذا الكتاب مملوءاً تراباً وغباراً وكانوا يشيرون به الى أن الانسان مائت . وكان من عادة الأحباش عند تنويع أحد ملوكهم أن يحملوا أمامه وعاء مملوءاً تراباً وجمجمة ميت . وقد وجد على مكتبة أحد الفلاسفة جمجمة كتبت عليها هذه الكلمات عن لسان الميت يخاطب بها كل من قرأها « كما أنت الآن قد كنت أنا أيضاً » .

وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة أجروها مجرى العادة الى اليوم في وجوب تذكر الموت في كل حين ، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهد يحددونه كل شهر على مقدار نمو جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير الى أن يتم نمو الغلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحمل فيه .

قال ابيكتيتوس الفيلسوف « فكروا في الموت دائماً لأن هذا الفكر يمنعكم من أن تفتكروا فكيراً دنيئاً أو تفتكروا شيئاً بافراط الرغبة والشوق » وقال أفلاطون « انه بقدر ما يتعمق الانسان في التثبث بفكر الموت يكون ثبات حكمته » وقال أحد القديسين « كل من أراه الآن من حسان البشر وسائر الحيوان سيصبح جيفة تنسفر منها العين وفريسة يعترها الفساد والفناء . وكل ما أحدثه الآن سيصير تراباً ويمحى ذكره ويصير مأكلاً للذود . بالي الكفن فاني البدن ، عديم النفع . مجهول الأصل والفرع فإذا كانت هذه هي نهاية الانسان ؟ لماذا إذاً نراه يهرع خلف المال والجمال والمناصب ؟ » .

وحقاً فقد أمسى ذكر الموت عندنا من الأمور الهينة . فكم من التوابيت تمر بنا في كل ساعة ولا نتعظ . وكم من الموتى نشيع في كل آونة ولا نعتبر ؟ أجل قد نسير وراء الراحلين من هذا العالم حتى مدافنهم وهناك نتأثر قليلاً . هناك عندما نرى آبائنا وأمهاتنا وأقربائنا وأصدقاءنا الذين كانوا يأكلون ويشربون معنا قد استقروا في ذلك المكان الموحش وسكنوا القبور الخيفة تناديهم فلا نسمع منهم جواباً وندعوهم فلا يردون . حينذاك نقف أمام القبر معتبرين وتتلأشى من نفوسنا العظيمة

والكبرياء والمجد .

الآن وقفنا نبكى ونتحب ونحن خائفون من الموت . غارقون فى بحار من الأحزان . قد ملأ الرعب قلوبنا خوفاً من الحفرة الضيقة المظلمة التى نساق اليها مرغمين . الآن تضاءلت الحياة أمام أبصارنا . وملأ الوجع مكان الغرور فانصرف عنا . وتحققنا اننا لا محالة مائتون وتعهدها أمام ضماثرنا مشهدين على أنفسنا سكان القبور أن نعمل عملاً صالحاً ينفعنا يوم نموت .

سمعنا الملحد يقول « قد أغلق باب القبر » وبدأ المشيعون ينصرفون وكلما خطونا بعيداً عن المقبرة قل البكاء . وكلما غابت عن مخيلتنا أشباح الأموات عدلنا عن الحزن والكآبة .

الآن دخلنا بين المنازل والخوانيت واختلط الرائح بالغادى . وغابت الأحداث عن عيوننا ونسينا ذلك الميت الذى بكيناه . عند ذلك ضحك العيوس المتصنع وابتسم الباكي المراثى ورجعت الغفلة الى القلوب وتناسينا الموت . الآن رجعنا الى الطمع والشره والحسد واحتقار المساكين والتهجم على الأعراض والتباهى بالألقاب والتفخاخر بالمال . وهكذا نفعل فى كل أدوار حياتنا . فإذا مرضنا أو فوجئنا بموت عزيز تسهننا وتبشنا . وإذا شفينا من المرض أو تقادم عهد الميت رجعنا الى سابق عهدنا حتى تدهمنا سكرة الموت وقد أغلق باب التوبة .

من غباوة الانسان وجهله أن يتخذ فى كل منبت شعرة من جسمه حبل من الأمل يعلق به النفس بطول البقاء ويحوم من ذاكرته كل سبب يذكره بالفناء . يوجد من لا يرد له ذكر الموت على خاطر بل قد رسخ فى ذهنه أن لا فناء مع البقاء ، ولا يحس بحقيقة الموت إلا إذا أصابه مرض أو مات له قريب أو صاحب ولكن عندما تطرأ عليه مشاغل الحياة يعود الى ذهوله الأول وعماه المستديم . وقد يظن أولئك الأغبياء أن فى عدم ذكر الموت راحة ، مع إن هذه الساعات الوجيزة التى يتذكر الذاهل فيها الموت عند اشتداد المرض أو عند موت حبيب له يصيبه فيها من أنواع الجزع والفرع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها ، و يكون هذا التذكر

لديه بمنزلة زلزال يهدم جميع ما بناه فى رأسه من الآمال وما زخرفه من الأمنى وربما أثر ذلك فى أعضائه فيجعله يلحق بقربيه الى جوف القبر، فكم من الناس من يعمل على إبعاد ذكرى الموت عن فكره و يدأب فى محو المذكرات به . فلا يمشى فى جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة ولا يبصر آلة من آلات الدفن أو الكفن إلا ويهرب ببصره عنها . ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت حتى لا تذكره جدرانها بخروج الميت منه . ولو أنك أهديت اليه صورة جمجمة من ذهب ليشع منها واستنكرها وسخط عليك لأنك أردت تذكيره بذلك الشر العظيم والأمر الفظيع . وإذا شاهد رجلاً ممن اعتادوا غسل الموتى هرب من رؤياه خوفاً من أن يتذكر ما كان يباشره من القيام بغسل الموتى أو يفتكر فى أنه سيفسله هو يوماً .

أمثال هذا يعيشون فى عمى القلب فيستطيع الشيطان أن يجرهم الى حباله بكل سهولة . غير أننا نوصى من يريدون أن يعيشوا حسناً ومن يهتمون بخلاص نفوسهم أن يتأملوا دواماً فى الموت ، فإن الذين يتأملون فيه يتصرفون حسناً فى أعمالهم ويتحكمون جيداً فى أفكارهم وأقوالهم إذ إن التفكير فى الموت يبدد من المرء الأخلاق الرديئة ويفصل قلبه من التعلق بحبة العالم كما قال أحد الأتقياء « إن التفكير فى الموت يجعل الانسان لا يجد شيئاً فى العالم يستحق المحبة » فخبرات العالم كلها قائمة فى ملذات الحواس وفى التمتع والتعظيم ، فمن يفكر جيداً أنه بعد قليل من الزمن هو عتيد أن ينتهى و يوضع فى اللحد تاركاً كل مجد وغنى ، فإنه يحتقر كل خيرات العالم وموجوداته .

حقاً إن كثيرين من الذين شغلوا عقولهم بذكر الموت فى ابان الحياة استطاعوا أن يهذبوا من أنفسهم ما لم تهذبه العظمت المؤثرة والتوعيدات الرهيبة . وقد قال أحدهم عند وفاته « انى لكونى فى مدة حياتى حفظت على الدوام أمام عينى الموت وجعلته حاضراً فى عقلى فالآن عندما جاعنى الموت لم يجد فى شيئاً يمكنه أن يهزنى به » وقال آخر « إن ذكر الموت يبين أن مسرات العالم جميعها باطلة . فلو تصورت ذلك الكفن الحقيق المزمع أن تلف به وذلك القبر الذى توضع فيه فلا ريب فى أنك كنت تحتقر كل ما فى العالم من غنى — وإذا ذكرت أنهم سيوارونك فى التراب وتكون مداساً بالأقدام ومنسياً من الناس على الدوام

لأصبحت لديك كل أنجاد العالم ومراتبه كلاً شئاً ، وإذا تأملت ملياً فى الدود الحفير الذى يأكل لحمك وتصورت الحالة الشنيعة التى سيتحول إليها جسمك لكنت تطرح كل ملاذ الدنيا الحاضرة وأفراحها تحت قدميك .

إن السجين إذا نقل من سجن الى آخر لا ينبغي أن يعتبر نفسه وهو فى الطريق بين السجينين أنه حر طليق هكذا الانسان يؤخذ من التراب ويرد الى التراب ومدة وجوده فى هذا العالم هى المسافة التى بين البداية والنهاية . فلو عرف الانسان من أين أتى وإلى أين يذهب لأتضع . فهو أتى من التراب «لأنك تراب» و يذهب الى التراب «والى تراب تعود» (تك ٣ : ١٩) وهذا الفكر استطاع ابراهيم أن يعالج نفسه حينما كان يخاطبه الله مخاطبة الصديق لصديقه فإنه لم يتعال و يتخذ من تنازل الله لمخاطبته سبباً للكبرياء بل أمعن فى احتقار ذاته وقال « انى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧) .

إن أحسن دواء تعالج به غرورنا هو أن نعتبر الموت ملازماً لنا ونقيم معد دالة ونفكر فيه حينما نعزم على القيام بأى عمل من الأعمال فلا يوجد فى العالم من يقضى حسناً ويشير بالتوفيق والحكمة كالموت . ولا يوجد واحد منا إلا وشاهد كثيرين يموتون ، منا من دفن أحد أبويه ومنا من دفن زوجته ومنا من دفن أحد أولاده ومن دفن أخاه أو أخته أو صاحبه . ألا تتذكر حينئذ كيف كانت أفكارنا حسنة وبأى شئ كنا نسر ولأى شئ كنا نحزن . وكيف اختلفت أحكامنا عما كنا نحكم به ونحن فى غفلتنا . كيف أصبحنا نقدر الفضيلة ونعتبر الصلاح ونمدح ونطوب القداسة والكمال ونزدري بالأنهماء فى العالم ونحتقر الانشغال بأجاده والسعى وراء ملاذه . حقاً اننا حينئذ ندمننا على كل خطية ارتكبتها وفرحنا لكل حسنة أتيناها . كم حزناً لأننا كنا نطلق للنظر الشهوانى العنان وهذا الميت قد أصبح مغلول النظر — كم تألمنا لأننا أنكرنا خالقنا وتعبنا فى سبيل جمع أشياء كثيرة . وهذا الميت أمامنا لم يأخذ معه شيئاً مما جمع . فما أحسن ذكر الموت .

لندم النظر إذاً الى صورة الموت ولنتصوره على الدوام . اعتقد أن ذلك اليوم الذى يوافيك فيه قد أقرب . اعتقد جيداً أن القبر هو مثواك ومقرك ، فإذا يكون

أمرك إذاً مع هذه الفانيات التى تهتم بها ؟ فالأجدر بك أن تضحك عليها وتهزأ بها لأنه ما الفائدة أن تجاهد حتى تصبح غنياً ثم تلقى فى القبر مجرداً من كل شئ مدفوعاً الى الفساد والفناء . يا لشقاوة أولئك الذين يطوفون البر والبحر طلباً للدرهم والدينار وهم لا يعلمون متى يلجون القبور الضيقة الكربة حيث يكون مسكنهم فى الظلام الى الأبد .

لو أن محبى الرياسة وطالبي النفوذ والسلطان ينظرون للحال الذى صار اليه من تقدمهم لكبح ذلك جماع شهواتهم ولتنبت نفوسهم وتقوم تصرفاتهم وخذت نيران شوقهم للدنيا . ياليت هذا الفكر لا يبرح من بال أحد لكى يعيش الجميع بطهارة ضمير ويشعرون بشدة مرارة الدنيا و يلقظونها وخيراتها لفظ النواة . قال أحدهم « كما أن الماء يزيل أوساخ الثياب وأقذارها هكذا ذكر الموت يزيل عن القلب صدأ محبة هذه الدنيا » قل لمن سار منهمكاً مريداً أن يجمع ذهب العالم كله الى حوزته « الموت الموت ! » قل لطالبي الغنى « الأغنياء يموتون » قل لعاشق العظمة « العظماء يموتون » قل لمحبي الشهوات . إن من سبقك فى هذه الطريق مات . قل للمولع بجمال هذه المرأة : تمثل هيئتها بعد أن يستولى عليها الموت ! ليت الناس يذكرون ذلك فتتقف مطامعهم عند حدها .

تصور أيها الغافل أن أمامك قبراً سوف تستقر فى جوفه . فعليك أن تعمل كل ما هو صالح لترافقك أعمالك الى الحياة الأبدية . قال أحد الأفاضل بحرت العادة أنه إذا ما أريد إحتلال جواد فى حلبة ميدان السبق أن يمر أولاً على السير فى ذلك الميدان ليختبر أرضه جيداً حتى لا يصيبه وقت السباق أذى . وأنت على هذا المثال إن أردت أن تسير فى طريق الموت مطمئناً فعليك أن تختبره جيداً وتطلع على أحواله ما دمت فى الحياة ، وقبل ممالك تفرس فى الموت وأختبر الأرض التى أنت مزرع أن تعود اليها . وقد يلبق بك فى حال مسيرك فى اضطرابات الحياة أن تعمل كما يعمل ربان السفينة الذى يجلس فى مؤخرها و يديرها ، هكذا اجلس أنت فى مؤخر سفينة هذه الحياة مفكراً فى الموت وبذلك تدبر حياتك حسناً . وكما أن المسجونين الذين حان وقت اطلاق سراحهم يكونون وقوفاً بباب السجن فى انتظار ساعة

الخروج منه هكذا ينبغي لك أن تحصر فكرك وذهنك وعقلك في باب الموت الذى أنت مزعم أن تمر منه ، وكما أن الرماد يحفظ النار من الانطفاء هكذا ذكر الموت فإنه يحفظ التقوى ويصونها .

فإن فكرت في ظلمة الموت قبل مجيئها تنتصر على الموت قبل حلوله لأنك تكون مستعداً لمقابلته ، فإن أهل نينوى لما سمعوا بحكم الموت عليهم رجعوا وتابوا الى الله ونجوا من مرارته ، هكذا أنت متى كنت مثابراً على ذكر الموت ، فلا تفاجأ إذا أتى ينفذ حكمه عليك .

الموت مرآة حياة الانسان فإذا كانت حياتك شريعة قوتك شريروا إذا كانت صالحة قوتك صالح . فإذا أردت أن تحول مرارة الموت الى حلاوة فأذكره كل يوم .

قال القديس أنطونيوس وهو يخرج أنفاسه الأخيرة لتلميذه مكار يوس وأماتاس « عيشا كأنكما مزعمان أن تموتا كل يوم . فإذا هاجت فيك حجة العالم فأذكر أنه يمضى وشهوته . وإذا ثارت فيك الآمال للمجد الدنيوى فأذكر ساعة الرحيل . وإذا آنست في نفسك جنوحاً الى الكبرياء فسلها « لماذا وعلام يتكبر الشراب والرماد ؟ » وهكذا أذكر الموت إذا أراد الشيطان أن يجربك . أذكره عندما يميل بك الحقد الى الانتقام . أذكره عندما يحول الكسل بينك وبين الذهاب لسماع كلام الله . فكرفيه عند نومك وعند يقظتك ، تصوره إذا أتتك اهانة أو لحقت بك تهمة . ارسمه أمام عينيك عند كل تجربة . فكل ذلك يصدك عن الوقوع فى الخطية ، وعدم الوقوع فى الخطية هو التأهب لاستقبال الموت . وهذا يجعل خاتمتنا سهلة ونهايتنا فرحاً أبدياً .

الفصل الثالث عشر فى عبرة زيارة المدافن

«الذهاب الى بيت النوح خير من الذهاب الى بيت الوثيمة لأن ذاك نهاية كل انسان والحق يضعه فى

قلبه». (جا ٧ : ٢)

يقيم الناس النصب والتماثيل للمشاهير والعظماء ولكن هذه التماثيل لا تمثل الحقائق بل الفانيات لأنه بينما يكون التمثال قائماً يكون الممثل به ثاوياً فى جوف الشرى . يصور الناس صوراً شتى لمختلف الأشياء ولكنها صور الزائلات . فبينما ترى صورة الزهرة فتبتجع تجد الزهرة ذابلة ومشتتة ؟ أما تمثال الموت « القبر » فهو صورة حقيقة لا تفتنى ، صورة لذلك الجبار الذى يجول العالم كله دون أن يضعف أو يكل .

ما أكثر تعطش الناس للمذهب الى البساتين والمتنزهات ومنتديات اللهو واللعب وما أعظم زهدهم فى التوجه الى الاماكن التى سوف ينتهون اليها ويرقدون فيها الرقدة الأخيرة فهم أشبه بأطفال يصرخون طالبين الجمرة ، والحلوى بأيديهم . فخير للانسان أن يزدري بكل ملهى أو محل سرور لأنها ونظائرها جمرات للنفس ، ومن الحكمة أن يقضى المرء أوقاته حيث توجد أجداث الراحلين الذين سيلحقهم يتخذ له منهم عبراً ودروساً يتمكن بها من السير فى الحياة بعقل وفطنة . فإن رؤية القبور تلاشى الكبرياء والعظمة ، وتبدد الميل الى الشر ، وتذهب بكل إثم راسب فى أعماق القلب . قال الحكيم « الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب » (جا ٧ : ٣).

حقيقتان واضحتان فى تاريخ الانسان بالواحدة منها يتبدى وبالأخرى ينتهى وهما « الولادة والموت » وإذا راق لنا أن نقف حين الولادة بجانب سرير الطفل نهزه

بغبطة وابتهاج وجب علينا أيضاً أن نقف أمام القبر لنذكر الحقيقة الثانية كما أدرکنا الأولى وحق لنا أن نقرن كلمة الولادة بكلمة الموت وحتى لا ينسينا السرور بالوجود فى هذا العالم الحزن بالخروج منه . فمיום الولادة و يوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلاّن متصلان والانسان یمشی فى الدنيا كأنه عابر فى الطريق ، عن يمينه الموت وعن شماله الحياة ، وانه كما يدب بنموه فى الحياة يدب بأنفاسه نحو الممات فى آن واحد ، ولا بد للعاقل أن يحضره ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة وأن اليقين فى أعواد النعش والشك فى أعمدة القصر .

قال أحد القديسين « إن السفينة لا تسافر إلا فى الوقت الملائم فتتشردقلوعها وتأخذ فى المسيرين فرح ركابها وابتهاجهم ولكن متى صدمها صخر تحولت الأفراح الى أحزان . كذلك وقت ميلاد الانسان يكون فرح جزيل للأهل والأقرباء والأصدقاء ولكن يجب أن نعلم أن هذا المولود سيموت يوماً فينقلب الضحك الى بكاء و يتغير الفرحة حزناً » .

· والحزن عند ذكر الموت أفيد من السرور عند ذكر الميلاد لأن الطرب يخلف فينا الأمل الكاذب والأمل الكاذب يسبب انغماسات فى الشهوات ؛ أما الحزن فانه يولد العبرة والعبرة تجعلنا نستعد ليوم الرحيل بانتباه تام . ولكننا أهملنا أن نذكر أننا سنرحل وحصرنا كل أفكارنا فى البقاء والوجود ، وصح فى ذلك قول لارشفوكو « شيئان لا يستطيع الانسان أن يحدق ببصره فيها الشمس والموت » فلا نبتهج لأن مجدنا ابتداء بل علينا أن نذكر يوم انتهاءه .

الانسان جسد وروح ، فالجسد ينزع الى الشر ، والروح الى الخير . والجسد شديد الاحاح على الانسان ليرضيه فلا يمكنك أن تكبح جماحه وترد مطامعه إلا إذا أخذته الى حيث يقيم الأولون وتقول له « كم من هؤلاء أرضوك فأذلّتهم ولبوا ندائك فأهنتهم وهم اليوم فى مضاجعهم لا يشعرون بلذة ولا يدرون ابتهاجاً » .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن كثيرين يبتون المدافن والأرمنس تجاه المدن والقرى لتكون عبرة لهم ، كلما ينظرون اليها يتحققون من ضعف طبيعتهم

وزوالها . ولذا ينبغي أن نسمى القبور «مدرسة التواضع» حتى إذا أراد أحد أن يمضى الى مدينة عظيمة ليتخذ له فيها مركزاً سامياً أو رتبة عالية . فإنه قبل أن يلج المدينة لينال فيها ما يبتغى يجد على أبوابها القبور والمدافن ومملوءة جثثاً وعظام أموات مفعمة دوداً وبتانة فتتكسر حدة مطامعه و يرجع عن كبر يانه .».

إن زينون الفيلسوف لما أراد أن يجد واسطة فعالة مؤثرة لتهديب حياته وضبط حركاته الحسية كان يذهب كل يوم ويمكث بين القبور مدة يرجع بعدها صاحياً عاقلاً : ولما سئل عن سبب ذلك قال «لأنى لما أرى وأتأمل حال الأموات الذين عدموا كل ما كان لهم بزوال حياتهم فأنى استخف بالخيرات الزائلة وأحبس بنفسى عن الافتخار بها».

والقديس مكاريوس المصرى الكبير جاءه ذات يوم أخ قائلاً يامعلم قل لى كلمة أتعظ بها . فقال له امض الى القبور واشتم الموتى الذين فيها . فضى الأخ وشتمهم ورجهم بالحجارة وعاد فأخبر القديس بما حصل فقال له أما خاطبك أحد بشئ ؟ فقال : لا . فقال امض غداً وامدحهم ، فضى الأخ ومدحهم قائلاً يا قديسون أنتم أبرار وأطهار . وظل هكذا دون أن يسمع مجيباً وعاد فأخبر الشيخ فقال له هل أجابك أحد بشئ ؟ فقال لا . فقال له الشيخ «إن كنت حقاً قد مت عن العالم مع المسيح ودفنت معه فاصنع هكذا لأن الميت لا يحس بكرامة أو باهانة وهكذا تستطيع أن تخلص».

وإذا أردنا أن ندرك مقدار التأثير الحسن الذى تخلقه فينا زيارة المدافن فعلياً أن نتذكر كيف نكون مكتئين ونحن ذاهبون اليها بأقدام تتلوى وقلوبنا تشعر بالخوف كأننا منطلقون الى مكان الاعدام . ولنتخيل مع ذلك السرور الذى يملأنا عندما نعلم أننا ذاهبون الى مكان اجتمعت فيه أسباب اللهو والسرور . فنحن نخشى أن نرى ضريحاً خشبية الحزن ولو كان نافعاً ونحب مواضع اللذة والسرور ولو كانت مضرة ، مع أن الحكيم يقول : «سمع الانتهار من الحكيم خير للانسان من سماع غناء الجهال» (جا ٧ : ٥) والسيد المسيح يقول : «طوبى للحرزاني لأنهم يتعززون» (مت ٥ : ٤) وقال أيضاً «أنتم ستحزنون ولكن حزنكم سيتحول الى فرح»

(يو ١٦: ٢٠) وقال الكتاب عمن يفضلون فرح العالم « واحول أعيادكم نوحاً
وجميع أغانيكم مراثي » (عا ٨: ١٠).

فهناك فى المضاجع الأخيرة نشاهد سكوناً عميقاً وصمتاً بليغاً لا جلبة
ولا صياح ولا ضحك ولا أنين ، وقد كان بين الراقيين من ازعجوا العالم بأصواتهم
العالية ومن كان ضحكهم يقرع الآذان ، ومن كان أنينهم يقطع نياط القلوب
ولكنهم جميعاً صمتوا عندما علموا أنهم كما أتوا الى العالم غرباء رحلوا عنه غرباء
أيضاً . تشرق الشمس وتغرب وتتجمع السحب وتتبدد وتتعرى الأشجار عن أوراقها
ثم تعود مخضرة والأموات لا يدرون بشئ من ذلك كله . تأملوا جيداً فى تلك القبور
كم طوبى من أدب وعلم وعظمة وحكمة . كم وارت من همم عالية وآمال كبيرة ،
وكم ذوت تحت ترابها من أجسام نضرة وبسمات عذبة وعيون ساحرة .

ايه أيها الأموات : ما بالكم تترقدون ولا تقومون ، تنامون ولا تستيقظون .
ما بالكم لا ترجعون الى أوطان لم يكن يطيب لكم البعد عنها ليلة واحدة ؟ فكيف
بكم وقد ابتعدتم عنها السنين الطوال ! أين أرجلكم التى كانت تقفز كالأيائل !
فلانسما الصبح الباردة ولا تغريد الطيور الصادحة ولا صياح الديكة ولا زنين
الأجراس ولا هتاف الرعاة يوقظكم من رقدتكم . هذا صوت الطرب الذى كانت
تعشقه آذانكم وهذا وجه الفتاة الجميلة التى كانت تحب التطلع اليه عيونكم .
ها محلات الرقص والخلاعة استوحشتكم وأماكن السرور واللهو قد خلت منكم
وتدعوكم . ما بالكم لم تهتموا بهذا الخبر وقد كان أحب الأخبار لديكم . أه أنكم
ما أصبحتم تهملون تلك الأمور إلا لأنكم فقدتم تلك القوة التى كنتم تقوون بها عليها !

فلنحدق بأبصارنا فى كل قبر من تلك القبور عند ذلك تتمثل لنا ذنوبنا وتلوح
أمامنا خطايانا : وكلما نذكر ذنباً جديداً يزيد ارتعابنا حتى نشعر بأن الخطية
الواحدة أثقل على أعناقنا من جبل عظيم بعد أن كانت كل خطايانا كلا شئ
أمامنا . لننظر جيداً فننتصور كأن كل قبر من تلك القبور قد وقف أمامنا خطيباً ليبين
لنا بفصاحة يعجز عنها أبلغ الخطباء مقدار الجهل والغرور السائدين علينا لأننا ملنا
للعالم وأحببناه ، ثم مقدار الخطأ والتهور لأننا سمحنا لأجسادنا الفانية أن تنتصر على

أرواحنا الخالدة .

كأننا نسمع تلك الأصوات المتبعثة من جوف القبور قد تعالت حتى وصلت الى الجوف فضاقت قدرة خطبائنا ومرشديننا لأن هؤلاء يخشون أن يثبتوا للعطاء فساد عظمته ولذوى الأجداد بطلان مجدهم أما أولئك فلهم بسالة فى النصح وشجاعة فى الانذار لو كانت تصل قلوب ملوك العالم لصعقوا فى قصورهم من الوجع .

أسمعهم يقولون : أما زلتم تذكرون مجداً وعظمة وملكاً ! وما علة شقائكم إلا المجد والعظمة والملك ؟ مضمحل ذلك المجد . حقيرة تلك العظمة . زائل ذلك الملك . « باطل الأباطيل الكل باطل » (جا ١ : ٢) مجد كالزهر وعظمة كالتراب ومنك كالعشب جميعاً تذروها الرياح و يكفى للملاشاة من الزمن ما بين المساء والصباح . تأملوا هنا هل نرون فرقاً بين عظيم وحقير ، ملك وعبد ، غنى وفقير . قد انتهى أمر التفاضل بينهم وتساوى الجميل بالشنيع والشيخ بالشاب ومن تمتع بالملذات بمن لم يتمتع بها .

تعالوا هنا أيها المخدوعون بالحياة اقتربوا أيها المتكبرون المتشاحون . تعالوا لتعرفوا مقدار غروركم وعظيم جهلكم . فهنا تنتهى آمالكم وهنا يذل تشاؤكم وهنا يحل بكم الفقر المدقع وهنا يختفى كل مجد لكم وتغيب جميع ابتساماتكم وينطفئ مجالكم « قلت للمفتخرين لا تفتخروا وللأشرار لا ترفعوا قرناً . لا ترفعوا الى العلى قرنكم ... ولكن الله هو القاضى . هذا يضعه وهذا يرفعه » (مز ٧٥ : ٤ و ٥ و ٧) .

فليقف فوق رمال هذه القبور المبعثرة وعلى جوانبها المنهدمة المتساقطة أرباب المطاعم فى الحياة وطلاب العظمة خاشعين مستكينين خاضعى رؤوسهم إجلالاً واكباراً ويمسكوا قليلاً عن التدلل بعزهم وجاههم والتفاخر بفضتهم وذهبهم وليخفوا فى أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترققة على شفاههم وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التى يسرون فيها وان كانت مخضرة جميلة مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار الأريجبية إلا أنها تؤدى فى نهايتها الى هذا المصير الذى صار اليه المقبورون .

تعالوا أيها الأحياء وقلوا لنا بماذا تفتخرون ؟ هوذا الأموات يتكلمون فاسمعوهم
لأنهم عرفوا ما لم تعرفوا أنتم واختبروا ما لم تختبروا . ها هم يسألونكم . بماذا تفتخرون
علينا ؟ .

أبجمالكم ؟ عما قليل سيتحول الى شناعة ليتكم فقدتم هذا الجمال الغشاش
الذي جركم الى الاثم . جمال يظهر اليوم ويختفى غداً أنه لجمال باطل .

أبظركم ؟ ماذا تنظرون ؟ أليست الشرور والآثام ؟ ليته ما كان لكم نظر وما
كنتم تطلعتم به الى الخطية التي أهلكتكم . عيون تنظر اليوم وتكف غداً لا يحق
الافتخار بها .

أبسمعكم . ماذا تسمعون ؟ أليس صياح المستهزين وتجديف الخطاة وتملق
الأشرار ؟ ليته لم تكن لكم آذان لتسمعوا بها ما يضركم وينتهى بكم الى الويل .
آذان تسمع وتصم غداً لا يصح التباهى بها .

أبمنطقكم ؟ بماذا تتكلمون ؟ أليس كلاماً ملؤه الافتخار والخداع والسب
والوقيعة . ليته لم تكن لكم ألسنة تتكلمون بها ما ستحاسبون عن كل حرف منه
(مت ١٢ : ٣٦) لسان يتحرك اليوم ويخرس غداً لا ينبغي التطاول به .

بماذا تفتخرون علينا ؟ أبقدرتكم على التنقل من مكان لآخر ؟ مهلاً .
ستخلدون الى الخمول . وستفقدون قوة الحركة مثلنا . أبالغنى والجاه والمجد ؟
ستعدمون كل ذلك كما عدمنا قبلكم . أبسكنى القصور ؟ ألقبور متأهبة
لاستقبالكم . أباللباس البهى ؟ ستحرق كل حللكم وتزرون بكفن كما اتزرنا .
أبالمضاجع الوثيرة الناعمة التي تضطجعون عليها ؟ لا بد من افتراش الحصى كما
افترشناه نحن . أبالروائح الزكية التي تنبعث من ثيابكم ؟ ستخرج منكم يوماً
عفونة زائدة ينفر منها محبوكم كما حدث معنا . فما من كان قبلاً يتطيب واليوم ينقل
الريح نسانته الى أنوف محبيه . أبعلموا كركم ؟ سيدلكم الزمان . أبارتفاع
كراسيكم ؟ لا بد لكم من أن تدرجوا فى أعماق الأرض .

فلا تفتخروا علينا إذا فأنتم ونحن أشبه برجلين محكوم عليهما بالاعدام ، نفذ الحكم فى أحدهما وسينفذ بعده فى الآخر فلا ينبغي للثانى أن يفتخر على الأول إذ سيجرى عليه تماماً ما جرى على صاحبه وسيلحق به عما قليل .

كم منا كانوا مثلكم ! ألم يكن فينا العظماء وأصحاب الجاه والفصحاء وذوو الوجوه الحسنة ؟ وبالأمس فقط كنا مثلكم نفكر فى لذة نتمتع بها ومال نكسبه ، وليال فى اللهو نقضيها ، فدهمنا الحمام وسلبنا كل موجود ومأمول فلم يبق ولم يذر . فدعوا عنكم الغرور واستعدوا للقاء ربكم بالايمان الصحيح والعمل الصالح فيها وحدهما يتفعانكم يوم يحل بكل ما حل بنا .

قال أحدهم تحت عنوان « عند منازل الأموات » : حينما أنظر الى مقابر العظماء تموت عاطفة الحسد فى قلبى . وحينما أقرأ أسماء أولئك الذين ذهبوا تتلاشى أمام عيني كل مظاهر العالم الفاتنة وتبدو مكانها النهاية المحزنة .

اعتاد الكثيرون أن ينقشوا أسماء أمواتهم على صفحات قبورهم فلو قرأت تلك الأسماء لزدت احتقاراً لهذه الحياة وازدراء لهذه الدنيا . قيل ان دوميتيانوس قيصر إذ شعر بأن رجاله يضمرون له شراً دعاهم الى مأدبة بقصره وادخلهم الى غرفة مظلمة عليها شارات الحداد وفيها مصباح ضعيف الضياء ووضع فى وسطها نعشاً بدلاً من الخوان ، وآلات تعذيب وقتل عوضاً عن الاطباق والملاعق ، وأوانى مما يحفظ فيها رماد الأموات فى مكان أقذاح الشراب وكتب على كل أناء من أوانى الرماد اسم واحد من المدعوين بحروف سوداء . ولم يكن هناك سوى بعض من العبيد يشخصون أفضع الميتات وموسيقى تعزف بألحان محزنة تذيب القلب كمدأ . فأى خوف وجزع وهلع ملك حينئذ قلوب أولئك الرجال . انهم عندما أمرهم القيصر بعودتهم الى منازلهم لم يصدقوا بالنجاة بعد أن شاهدوا الموت أمام أعينهم وأدركوا أن الملك قد مثل أمامهم صورة العذاب الذى تستحقه خيانتهم وهو الموت الزؤام فعاشوا ما بقى من الحياة محترسين مما يؤدى بهم الى ذلك المصير المشؤوم .

تعالوا نتأمل فى تلك الحكمة عليها تبدد ما تسلط على قلوبنا من الأوهام ولنفحص ما كتب على ظاهر المدافن فماذا نرى ؟ هذا قبر كتب عليه اسم ملك

وتاريخ ملكه و يوم موته . لتجبل بخاطرنا عظمة ذلك الملك وجلال حضرته ، وكيف كان الألوف تحت أمره ، وكيف كان يزين التاج رأسه والذهب الوهاج يلتمع على صدره وكيف كانت كلمة واحدة منه ترفع ، وكلمة واحدة منه تذل ، وكيف كان الجميع يطلبون رضاه ويتمسحون بأعتابه ، ولنجزع إذاً عندما نذكر تلك الضجعة الذليلة التي انتهى إليها بعدئذ ذلك الملك العظيم والمجد الفخيم .

وهذا قبر آخر . ماذا كتب عليه ؟ اسم ثرى عظيم اقتنى ثروة لا عدا لها . فلنذكر كيف واصل ليله بنهاره فى جمع المال وكيف حرم نفسه لذة الراحة والنوم فى سبيل كنفه وتدخيره ، وكيف عادى الناس وظلمهم وكيف استلب حقوق الأراذل والأيتام ليرضى طمعه الذى لا يشبع . ولننظر كيف ترك كل ما جاهد فى جمعه ورضى بقيد ذراعيه بعد أن كانت الدنيا على سعتها ضيقة أمامه . أنظر كيف خرج من العالم بدون شئ كما دخل اليه بدون شئ وكيف دخل القبر عرياناً كما خرج من بطن أمه عرياناً (أى ١ : ٢١) كان لو وهب ذهب العالم كله لا يعرف للقلعة معنى والآن تراه يترك ما ناله بتعبه وجهاده ليتمتع به من لم يتعب فيه . ذخر ذخائر ولا يدري من يضمها . (مز ٣٩ : ٦) .

وهذا قبر آخر . كتب عليه اسم واحد ممن اشتهروا بمحبة الشهوات . لتتخيل كيف كان يسعى وراء ارضاء شهواته . وكيف كان يخفى عن عيون الناس ليلغ وطره وإذا به الآن قد فقد كل ميل للشهوات وكل رغبة فى اللذة ، وما عاد يشعر بالخطية التى اقترفها ولا بالاثم الذى ارتكبه ، ولم يبق لها من الأثر إلا ما يلطخ سمعته ويدنس صيته ويجلب عليه اللعنة والعار .

وهنا قبر آخر يجمع العظام النخرة البالية التى بقيت من ذلك الهيكل الانسانى البديع . هنا وجه لامرأة كانت ذات جمال رائع وذلك الوجه كان من أيام قلائل يسبى القلوب ويستوى الأفئدة بجماله الجذاب ، وذلك الفم الأرجوانى الذى كان يستسم فيخلب الألباب ، قد تحول كل ذلك الى شكل يخيف من يراه ويزعج من ينظر اليه . لقد تحولت الابتسامة الحلوة الى عبوسة دائمة .

تأمل . هنا قبر مراب سلب كثير من أموالهم بما أخذه منهم من الربا الفاحش ثم مات دون أن يرد المسلوب وترك أمواله لبنيه فأنفقوها في وقت قصير في الملاهي والمنكرات . وهنالك رمس حقير يجمع عظام رجل كان يعاقر المسكر فمات وهو سكران . وبالجملية تجد هذه القبور المتجاورة تجمع رفات شبوح وشبان ورجال ونساء وأطفال وعظماء وأقوياء وعلماء وأغنياء وفقراء وجهلاء وأشقياء ، لأن الكل تحت سلطان الموت على حد سواء .

أتريد أن تتعلم أكثر . تعال واكشف هذا القبر لترجئة انسان كنت تعرفه كبيراً عظيماً جباراً عنيداً يرفع يده بشدة و يتكلم بقوة . ها قد ضعف . أنظر اليه وقد تحولت عظمتة الى هوان ، وقوته الى ضعف ، وصوته الى خرس . تأمل هذا اللسان . كم مرة تكلم بالشر وكم دفعة تفوه بألفاظ العجب والكبرياء . كم من لسان فصيح كان إذا تكلم صمت الناس أصبح الآن طعام حشرة حقيرة . وهذه اليد كم مرة ارتفعت للضرب وكم مرة أهانت البائسين وكم مرة صفعت الوجوه وقبضت الدنانير ولكنك تراها الآن هادئة كم يد هنا يأكلها الدود وكانت إذا ارتفعت خضعت لها الرؤوس . كم من رأس أكلها الفساد كانت لا تسمح لرأس أخرى أن ترتفع أمامهم . وهذه العين كم مرة نظرت الشر . كم من عين كالتى قال عنها الحكيم « لا تشبع من النظر » (جا ١ : ٨) ملأها التراب وسكن فيها الدود .

كم من كثيرين من هؤلاء أذلوا الناس فأذلم الموت . وظلموا الغير فظلمهم القبر . وأهانوا الآخرين فأهانهم البلى . كم من كثيرين منهم اشتدت آمالهم وعظمت مطامعهم . سلهم الآن عما في قلوبهم من آمال وفيما يطمعون . لا آمال ولا مطامع . خابت الآمال وذهبت المطامع .

لما وقف الفلاسفة يؤبنون اسكندر الأكبر قال أحدهم « قد كنا أيها الشخص بالأمس نصغى للاستماع منك ولا نقدر على القول فهل تسمع الآن ما نقول » وقال آخر « يامن كان في غضبه الموت لم لم تغضب على الموت » وقال آخر « عهدي بك وأنت تمنى نفسك في امتلاك أرحب البلاد فكيف صبرت الآن على ضيق هذا

المكان».

فهنا قد رأيت المتكبر ساقطاً والعظيم حقيراً والفصيح فهباً فقل أذن لمن على شاكلتهم انك الآن رأيت الذين كانوا مثلهم قد فقدوا ما يتباهون به اليوم . قل لهم أيها التراب علام هذا التشامخ وقد جئتم من التراب وستصيرون الى التراب .

بعد ذلك ماذا ترون في الدنيا يا محبيها . الدنيا التي أنتم تعتبرونها وتعظمونها . ألم تصغر أمام عيونكم . ألم تصبح قيمتها أمامكم كذرة رماد صغيرة . أليس لكم الآن أن تفضلوا الحزن الذي يحسب مشيئة الله الذي ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة على فرح العالم الذي يسمع كل محب له وقول السيد المسيح « ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » (لو ٦ : ٢٥) .

فباطلاً إذا تجرأ وراء السرور في هذا العالم . إن زهرة الحياة لا تنبت إلا في لترربة التي نبتت فيها أشواك الموت . هكذا لا نستطيع أن نكتسب لأنفسنا عظة تردنا عما نساق اليه بقوة شهواتنا البدنية إلا إذا تأملنا جيداً في ما صار اليه أسلافنا .

ولكن بينما نرى أولئك الراحلين يعلنون بفصاحة تلك الانذارات نتأمل بين الأحياء فنرى الشرير مكباً على شره والغنى ساعياً لجمع ماله وعاشق المجد يطلبه بشدة وهم لا يدرون ماذا يتم لهم في مساء هذا اليوم أوفى صباح الغد . وما أحسن ما قاله بوب الشاعر الانكليزي في هذا الصدد « إن الحمل الصغير يرح و يلعب قبل أن يذبح بدقيقة واحدة وربما لحس بلسانه اليد التي ستمتد لتريق دمائه هكذا نحن لا نعرف شيئاً مما ينتظرنا بعد لحظة واحدة » .

ولهذا يقول الحكماء « قلب الحكماء في بيت النوح وقلب الجهال في بيت الفرح » (جا ٧ : ٤) .

الفصل الرابع عشر فى عبرة الأبدية

« وأيضاً جعل الأبدية فى قلوبهم التى بلاها لا يدرك الانسان العمل الذى يعمل الله من البداية الى النهاية » (جا ٣ : ١١).

حياة الانسان لا تنتهى بالموت بل تعقبها حياة أبدية كما صرح الرسول بولس قائلاً « لذلك نحترس أيضاً مستوطنين كنا أومتغرين أن نكون مرضيين عنده . لأنه لا بد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً » (٢ كو ٥ : ٩ ، ١٠) ولقد قال أيضاً أحد الأفاضل . « اننى كل مرة أتأمل فى يوم الدينونة أرتعد مرتجفاً . ودائماً أسمع ذلك البوق الأخير صارخاً فى أذنى وهاتفاً : أيها الأموات قوموا واستعدوا للدينونة ».

فيجب علينا إذاً أن نفتكر دوماً فى الأبدية لأن ذكرها يورث القديسين فرحاً وابتهاجاً ، والخطاة خوفاً وارتجافاً ، وكلا الفريقين يجنى من هذا التأمل نفعاً بليغاً . فهللم بنا إذاً نتأمل فى صورة الأبدية ونحديق فيها ببصرنا حتى إذا كنا على صلاح زدنا فيه نشاطاً ونمواً وإذا كنا على شر خشنا عاقبته وعدلنا عنه . قال القديس أوغسطينوس « إن كثر عليك التعب فاذكر الجزاء » وكان أحد المؤمنين يتشجع فى ضيقاته لأنه كان دائماً يقول لنفسه « اننى أتعب لأجل السواء ».

نرى فى كلمة الله أن نبياً من أنبياء العلى لما أهمل ذكر الأبدية أوشك أن يزل ويسقط ولكن لما تذكر الأبدية تاب الى رشده وأدرك عظم خطئه . وهو آساف المرتل الذى غار من نجاح الأشرار وتقدمهم وارتفاعهم وازدياد سرورهم بينما يكون أولاد الله واقعين تحت مختلف الآلام فقال « فلما قصدت معرفة هذا إذاً هوتعب فى

عينى حتى دخلت مقدس الله وانتهت الى آخرتهم . حقاً فى مزالق جعلتهم .
أسقطتهم الى البوار» (مز ٧٣ : ١٦ - ١٨) .

بل إن الفلاسفة الوثنيين أنفسهم كانوا يرتجفون من تصور الأبدية ولما أرادوا أن يصوروها استعملوا رموزاً وتشابيه مخيفة ومرعبة . فبعضهم صورها بصورة أشر الافاعى نوعاً أى التى مجرد فحيحها يقتل البشر وصورها آخرون بصورة تنين مخيف فاغراً فاه على شفاة حفرة عميقة يرصد الناس ليلتلعهم أحياء . وغيرهم يصورون الأبدية بصورة حفرة عميقة جداً لها عند مدخلها أربع درجات ؛ الدرجة الأولى من حديد والثانية من نحاس والثالثة من فضة والرابعة من ذهب ، وعلى هذه الدرجات أطفال وقوف يلعبون لعباً مختلفة وهم غافلون عن خطر السقوط فى هذه الهاوية . والمراد بذلك اظهار تفاقم جهل البشر فمنهم من يتنزه ومنهم من يضحك ومنهم من يتعلق بمحبة خيرات العالم وجواهره وهم غير ظانين أنه من الممكن أن يلقوا الى الأبد فى جهنم .

أيها الأشقياء يا من تسرعون الى الهاوية بخطى واسعة وأنتم لا تدرون ، وتجرون الى الأبدية باطمئنان وأنتم لا تشعرون قفوا هنيهة قبل ما تهبطون فى أعماق الأبدية . فكروا فيها قليلاً «من منا يسكن فى ناراً آكلة . من منا يسكن فى وقائد أبدية» (اش ٣٣ : ١٤) قل لنفسك أيها الجاهل يا من تخشى من حرارة الشمس هل تستطيع أن تحمل اللهب الأبدى ؟ أيها المرأة المتنعمة يا من لا تحتملين أن توخر يدك بآبرة هل تستطيعين الصبر فى تلك النار الأبدية ؟ أيها الساعى وراء اللذات يا من لا تقوى على احتمال نفس جارك هل تقدر أن تبقى الى الأبد بين جثث المالكين الكرهة فى جهنم ؟ ليسأل كل متكبر وطماع وشهوانى نفسه قائلاً «أيها النفس المتمردة العاصية التى أحببت الاثم واشتيت الخطية . ألا تعلمين أية مجازاة يجازيك الله بها ؟ انها نار حامية ولهب مستعر . فهل تطيقينها ؟ إذا كنت لا تحتملين المثل أمام يدى الله هنا لحظة لتندبى اثمك وشرك . فكيف تستطيعين احتمال ذلك العذاب المريع ؟» .

انظر أيها الانسان كيف تداوى سترتك وتصلحها . ليس من علاج أعظم تأثيراً

من التفكير فى الأبدية . إن ذكر الأبدية هو الذى جعل جميع القديسين يصمون
آذانهم عن سماع الشر ويغلقون أعينهم عن النظر الى القبايح . و يسكتون ألسنتهم
فلا تنطق بالمكر والخذاع . هو الذى حمل جميع الأتقياء على احتمال المكاره حياً فى
الفضيلة : هو الذى جعل يوسف يؤثر الطرح فى السجن على العصيان . وهو الذى
قوى الثلاثة الفتية على احتمال نار أتون نبوخذ نصر بدلاً من احتمال نار غضب الله
القدير . جميع القديسين كانوا يهزأون بالآلام الحية لأنهم كانوا يعتقدون أنها مهما
عظمت فانها تنتهى بانتهاء العمر ولكنهم يخشون آلام الأبدية التى لا نهاية لها ،
ولذلك فضلوا أن يعذبوا وقتاً بدلاً من كل الأوقات . وهذا ما هددت به القديسة
دميانة العذراء أباهما عندما أغراه القيصر ليسجد للأوثان إذ قالت له « خير لك يا أبى
أن تحتمل العذاب برهة وتموت شهيداً فتحيا مع المسيح الى الأبد من أن تحيا وقتاً
وثيقاً ثم تموت مع الشيطان الى الأبد » .

ان أخاب الملك إذ سمع من ايليا النبي قوله « فى المكان الذى لحست فيه
الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضا » يقول الكتاب انه « شق
ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت »
(١ مل ٢١ : ٢٩ و ٢٧) فإذا كان الموت الوقتى الهين أزعج أخاب وأرعبه فإذا
ينسبغى أن يعمل من يسير بشره ليلقى به فى جهنم الى الأبد ؟ قال أحد الافاضل
« ما أكثر الذين يرضون بجهنم ولا يتنازلون عن عشرة رديئة أو عادة مذمومة » .

لقد كان من عادات العصور الأولى عند تنصيب أحد خدام الدين أنهم يحرقون
أمامه قليلاً من القطن ، وكان الغرض من هذه العادة أن يتذكر لهيب نار الأبدية .
فالطريق الى السماء وعرة المسلك وبابها ضيق وتجارها شديدة وابليس لا يفتأ يهجم
على المسافرين قصد الايقاع بهم . ولا ريب أنه لا يبقى الانسان من شر هذه الأمور
مثل ذكر الآخرة كما قال رب الجنود « اجعلوا قلبكم على طرقكم » (حج ١ : ٥) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن تأمل العذاب الأبدى هو بمنزلة الدواء المر
الذى ينقى النفس من كل الشرور والخبائث ، فإذا كنت متغافلاً فإذا ذكر الخمس
العذارى الجاهلات اللاتى لم يأتين بزيت لمصابيحهن فسقطن وإن كنت مختلساً

فاسمع سيدنا قائلاً « خذوه من يديه ورجليه واطرحوه فى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » وإن كنت سكيراً فاسمع ما يقوله الغنى لآبراهيم « يا أبى ارحنى وأرسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء و يبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهب » وإن صارعتك الشهوة فافتكر فى اضطرام نار جهنم حتى تخمد اشتعالها فيك .

قيل أن ديونيسيوس الملك المعتصب اخترع من حملة أنواع العذاب سجنأ بناء بصورة أذن فيه ثقب صغير يساعده على سماع كلام المسجونين وصرآخهم وتذمرهم . فليت لنا هذه الأذن لنسمع تأوهات الأشرار فى الجحيم وأنينهم فى جهنم حتى نعلم كم تجلب الخطية من الولايات على مرتكبها ليتأمل محبو العالم كيف أنهم ههنا لا يكرهون ملامسة أى شئ يؤلمهم أم فى الحياة الأخرى فيتراكم عليهم العذاب والآلام بغير انقطاع . وهؤلاء الذين يهابون الموت الآن يلتمسون هناك الموت فيهرب منهم . إذا شعرت باحترق منزلك فأنك تهرب ولا تقف خوفاً من النار فإن كان خوف العذاب الزمنى مخيفاً هكذا فما بالك لا تهرب خوفاً من نار جهنم ؟ لنستأمل فى ذلك جيداً لأن ذكر نار غضب القدير يلين قساوة القلب ويهدى المتسردين والعصاة .

قال المرتل « تأديباً أدبنى الرب والى الموت لم يسلمنى » (مز ١١٨ : ١٨) فكل ما يقاسيه الانسان هنا من الآلام يعتبر هيناً إذا نجأ من الآلام الأبدية .

قال القديس أوغسطينوس « اضرب ههنا . اقطع ههنا . لكى تغفر الى الأبد ابلنا بالفقر هنا ارسل لنا العار هنا اضعفنا بالأمراض هنا . احزننا واشقنا واتعبنا من البلايا هنا لكى ترحنا الى الأبد » .

لنرد فى ذهننا هذه الكلمة المريعة (الأبدية . الأبدية) لنذكر أنه توجد جهنم لا نهاية لها ، وأنه يوجد مجد أبدي لا آخر له ، الشمس إذ تغيب مساء لا يراها الانسان مع أنها موجودة فى كل مكان آخر . هكذا نجد الفضيلة ظاهر والناس لا يرونه . وشر الرذيلة واضح والقوم لا يبصرون . والموت يتقدم اليهم وهم لا يشاهدون وجههم تتحرك تحتهم لا ابتلاعهم وهم لا يشعرون لأن الذى يعرف جيداً

مجد الفضيلة ويشعر أنه بعيد عنها ، وشر الرذيلة ويعرف أنه متمسك بها يذوب خوفاً
بحسرة . وهوذا أحد المتأملين جيداً فى ذلك يقول « من أجل ذلك ارتاع قدامه .
تأمل فأرتعب مند » (اى ٢٣ : ١٥) .

ليت جميع الناس يطبعون صورة الأبدية على أعماق قلوبهم لأنهم لو فعلوا ذلك
لرأينا فى سيرتهم تحسناً سريعاً وفى أعمالهم صلاحاً عجبياً ، ليتهم يجعلون صورتها
ازاء أعينهم على الدوام وصوتها يرن فى آذانهم طول الأيام . قال بعضهم « أيتها
التصورات الخفيفة . تصورات جهنم والدينونة . لا تبرحى من أمام عقلى حين يجتهد
العالم أن يغوينى لكى أدنس سيرتى بواسطة مكايده وحيله الباطلة . ياتصورات
الدينونة وجهنم الهائلة ارتسمى فى أذهاننا ولا تزولى من صفحات ذاكرتنا لنستطيع
أن نعرف انتقام العدل الالهى وقيمة النعمة التى أمامنا يا جهنم . يا جهنم . إن
ذكرك وحده يرعبنا » .

وكما أنه فى ذكر جهنم وعذابها كل خوف للأشرار فى ذكر السماء وأجادها
كل سعادة للأبرار . وكمن من قديسين عاشوا ولا هذيد لهم ليلاً ونهاراً إلا ذكر
فردوس النعيم الذى كانوا يحنون اليه ويهيمون به ويتوقون الى الوصول اليه . كانوا
يتسلون بتصوره فى فكرهم حتى يتاح لهم أن يتطلعوا الى الحقيقة كما قال الرسول
يوحنا « أيها الأحباء نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا
أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يوحنا ٣ : ٢) .

ففى ذكر السماء أعظم تعزية للأتقياء المتغربين فى هذا العالم وهو الذى
يجعلهم يزدرون بكل ما فيه من المشتبهات الحقيرة . فإذا ما دهمتهم الآلام والأحزان
يذكرون أفراح مدينتهم السماوية وإذا لبست الدنيا أحسن زينتها قالوا أين هذا
المنظر الشنيع من مجال بيت أبينا الذى لا يقوى على وصفه لسان ويهتفون مع داود
النسبى قائلين « إن نسيك يا أورشليم تنسى يمينى . ليلتصق لسانى بحنكى إن لم
أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مز ١٣٧ : ٦ ، ٥) .

فما بالناس نحن أذن نأخذ فى التحدث عما فى العالم من جمال حقير ومجد باطل
وننسى أن نلهج بحاسن مدينة الله العلى أورشليم السماوية . لماذا لا تذكرنا بلايا

هذه الحياة بسعادة السماء لماذا لا تذكرنا مخاوف الدنيا بأمان الملكوت ؟ لماذا لا تذكرنا أحزان العالم بأفراح النعيم ؟ لماذا لا نرفع عيوننا الى السماء وننتطلع الى ذلك المجد الأبدى ؟ إن نفوسنا تميل بنا الى التأمل فى مجد الأرض دون مجد السماء ، فعلينا إذن أن نصادر آميالننا إذا انحرفت بنا الى التأمل فى الأرض . ونسر منها إذا رأيناها تنزع بنا الى السماء . فلا يليق بمن خلقوا على صورة الله أن يطلبوا السرور من الأمور الفانية ، بل لنجعل موضوع سرورنا اشتهاى الأبدية .

ومن لا يسر إذا شعر أنه لأجله قد أعدت أفراح سرمدية وسعادة خالدة . فإذا تأملت فى هذا أخذك الميل الى الشوق الذى يولد فىك العمل لتحصيل ذلك المجد حتى تقول مع القديس أغسطينوس « يا أورشليم يا بيت الله السرمدى أنت بعد الله بهجتنا وتعزيتنا وسلوتنا . لأن ذكر اسمك العذب يخفف حزننا و يلطف عذابنا » .

وتقول معه أيضا « ملكنى ذاتك أيها الخير السامى الذى لا خير سواه وأسعدنى بك يا ينبوع السعادة الكاملة . روحى تتوق اليك جداً ولذلك هى حقاً ذابلة حتى أبلغ اليك يا حياتى المحبوب . فعلام تحفى عنى وجهك . أهلك تقول « لا يرانى بشر و يعيش » امتنى يارب وابصرك دعنى أراك وأموت عن العالم .

الفصل الخامس عشر فى انتقال الصالح

« أيضاً إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى » (مز ٢٣ : ٤).

قد دخل مخلصنا القبر ولكنه لم يمكث فيه بل جاوزه . كان الناس يرون القبر سجيناً أبدياً وأنه مدخل مظلم لا خروج منه ولكن يسوع جعله مجازاً للمفدين من هذه الدار الى ملكوت السماء ، فالموت والقبر بعد قيامة السيد المسيح غيرهما قبلها . وذلك الانسان الذى يصبر الى المنتهى ثابتاً فى الايمان والتقوى ينال الحياة الأبدية « ولكن الذى يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » (مت ٢٤ : ١٣) وقال يوحنا الرسول « وهذه هى الغلبة التى تغلب العالم . ايماننا » (يو ٥ : ٤) فحياة المؤمن هنا مفعمة بالرجاء والاتكال على الله . فهو به مكثف وعليه يستند حتى الى الموت يصبح قائلاً « فدى نفسى من العبور الى الحفرة فترى حياتى النوع » (أى ٢٣ : ٢٨) ويقول أيضاً « لأن الله هذا هو الهنا الى الدهر والأبد هو يهدينا حتى الموت » (مز ٤٨ : ١٤).

هذا المؤمن يضطجع على فراش الموت منتظراً الساعة التى فيها ينتهى أجله مملوءاً تعزية ، لا يخشى موتاً ولا دينونة إذ لا سلطان لهما عليه كما قال السيد له المجد « من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى الى الدينونة بل قد انتقل من الموت الى الحياة » (يو ٥ : ٢٤) وكما قال الحكيم « فى سبيل البر حياة وفى طريق مسلكه لا موت » (أم ١٢ : ٢٨).

معلوم أن الموت هو ألد أعداء البشر ويدعوه الرسول بولس « آخر عدو يبطل » ولكنه هو نفسه يهتف به قائلاً « أين شوكتك يا موت » (١ ك ١٥ : ٢٦ - ٥٥) وذلك لأن الموت عدو لقوم وحبيب لآخرين . عدو للخاطئ وحبيب للتعفى يقول

الحكيم « مخافة الرب ينبوع حياة للحيدان عن اشراك الموت » (أم ١٤ : ٢٧) فإسعد الذين يموتون في حال البر والقداسة فهو لاء قد نالوا الطوبى والغبطة كقول الكتاب « وسمعت صوتاً في السماء قائلاً لي أكتب طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكي يستريحوا من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤ : ١٣).

ان ذلك النبي الذي أرسله الله الى يربعام قد أمره أن لا يقبل ضيافة أحد ولا يأكل ولا يشرب عند أخذ ولا يدخل بيتاً أصلاً ، ولكنه إذ خالف الرب هجم عليه أسد عند عودته وقتله غير أن الأسد لم يجسر أن يأكله أو يمزقه بل جلس فوق جثته يحرسها من بقية الوحوش الى أن أقبل عليها أشخاص حلوها ودفنوها (١ مل ١٣) هكذا الموت يسمح له الله أن يقترب منا و يأخذنا ولكن لا يعذبنا بل يحملنا بسلام الى أماكن الراحة . لهذا نجد الأبرار إذا سمعت نفوسهم الدعوة الى مفارقة أجسادهم لبوا النداء وسلموا مبتهجين وهم يقولون « لأنك نجت نفسي من الموت . نعم ورجلي من الزلق لكي أسير قدام الله في نور الأحياء » (مز ٥٦ : ١٣).

فلا يوجد حينئذ شئ يحزن أولاد الله . لا يكدرهم ترك خيرات العالم لأنهم لم يضعوا قلوبهم عليها . ولا تقلقهم مفارقة الملذات الجسدية لأنهم لم يتعلقوا بها . ولا يؤلهم اهمال الأجداد والعظمة لأنهم لم ينشغلوا بها . فهم يسمون في كل شئ بفرح عالمين إن هم مالملاً أفضل في السموات وباقياً (عب ١٠ : ٣٤) ولذلك لم يحبوا حياتهم حتى الموت (رؤ ١٢ : ١١).

نعم قد تلالأت للمؤمن الدنيا بزخرفها ونعيمها ولكنه لم يتخلى عنها ، وقد أخذ هذا المنظر يتضاءل أمام عينيه وابتدأ جسمه البالي الذي حاربه نفسه وقهرت شهواته على الدوام أن ينحل فيتعزى عزاء أبدياً .

بل إن المؤمن المشرف على الموت إذا رأى أهله حواه باكين يشجعهم ويحثهم على سلوك الصلاح الذي ينجي من الموت . فابراهيم واسحق ويعقوب حين دنو موتهم وشعورهم به لم يرتعوا بل كانوا يستحضرون أولادهم و يباركونهم ويظهرون

كانهم لم يكونوا يتوقعون شيئاً جديداً يحل بهم ، و يوسف وهو فى النزح قال لأخوته
بشبات « أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم و يصعدكم من هذه الأرض »
(تك ٥٠ : ٢٤) وموسى حين أخبره الله أنه سيموت لم يخف بل أوصى إسرائيل
بوصية الرب ووصف الله بقوله « ان جميع سبله عدل . اله أمانة لا جور فيه صديق
وعادل هو » (تث ٣٢ : ٤) وداود حين أتت منيته أوصى ابنه سليمان بحفظ وصايا
الرب وقال له « أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها » (١ مل ٢ : ٢) و بولس
الرسول حين شعر ببدنو ارتحاله قال لثيموثاوس « فانى أنا الآن أسكب سكباً
ووقت انحلالى قد حضر » (٢ تى ٤ : ٦) و بطرس الرسول يتكلم عن نفسه
بلا وجل قائلاً « عالماً أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح
أيضاً » (٢ بط ١ : ١٤) .

هناك يضع المؤمن يده فى يد ابراهيم واسحق ويعقوب و ينظر وجه بولس
الرسول ، و يقف مع بطرس ، و يجلس فى الحقول المحصبة مع موسى وداود ، و يصلى
فى نور شمس النعيم مع يوحنا والمجدلية . فيا لها من غبطة عظيمة !!

أجل يشعر المؤمن هنا أنه سيخسر ممتلكاته وكل ثروته ولكنه لا يحزن لأنه يكون
مشغولاً بالتفكير فى ما سيربح فى السماء . يفكر فى المدينة العظيمة التى لها
الأساسات التى صانعها وبارئها الله . يفكر فى المساكن الأزلية التى لا يصح أن
تقابل بها أعظم قصور ملوك الأرض . يفكر فى الخيرات السماوية التى تشبع شعباً
أبدياً وتملأه اكتفاء لم يشعر بحجزه منه لو امتلك كل الأرض هنا .

فما أعظم راحة المؤمن وهو على فراش الموت وما أسمى هدوء باله وسكون
خاطرته وضميره . لا يقلقه شئ لأن خطاياہ قد غفرت له وقلبه اشترك بنعمة الله
وصليب المسيح . فهو يشئى حينئذ أن يظهر محبته الأكيدة ليسوع بشدة . ذلك
المخلص الذى كان ذكره فى قلبه مدة حياته ، ذلك المخلص الذى ألقى اتكاله
وهو الآن رجاؤه ومعتمده الوحيد فله قد عاش واليه الآن ينتقل . وتظهر على وجه
المؤمن لوائح السلام الداخلى والتعزية الالهية وهو يهتف قائلاً « إن عشنا فللرب
نعيش وإن متنا فللرب نموت إن عشنا وإن متنا فللرب نحن » (رو ٨ : ١٤) و يصبح

أيضاً « جعلت الرب أمامى فى كل حين لأنه عن يمينى فلا أتزعزع لذلك فرح قلبى وابتهجت روحى جسدى أيضاً يسكن مطمئناً لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً . تعرفنى سبيل الحياة . أمامك شمع سروروفى يمينك نعم الى الأبد » (مز ١٦ : ٨ - ١١) .

إن كثيرين من القديسين كانوا فى أثناء عذابهم مبتهجين وما سبب ذلك إلا أن النفس كانت تزداد قوة كلما كان الجسد يزداد ضعفاً . وقوة الروح كانت تقوى إيمانهم ، وقطرة واحدة من النعمة الالهية التى كانت أنفسهم مرتوية بها كانت تسكرهم تحتطفهم عن الحواس .

وهكذا جميع القديسين فى كل العصور لا تستطيع المخاوف التى تتجمع عند الموت أن تزعجهم وإذا رأى المؤمن ما يؤله منها فانه يرفع عقله و يتفرس به فيجد مخلصه مصلوباً فيسجج و يتشدد عزمه ويخاطب سيده قائلاً « لقد تأملت قلبى يا مخلصى وقد تأملت أكثر منى بما لا حد له » وقد قال الأنبا موسى أسقف أوسيم عندما قام ليدافع عن المسيحيين أمام مضطهديهم وحاول المؤمنون أن يمنعوه « انى لا أستحق أن أسفك دمي الدنس من أجل من سفك من أجلى دمه الطاهر » .

وكيف يشعر المؤمن بألم بينا رغبته فى مشاهدة مخلصه تنسيه جميع الآلام وهوذا المخلص يقول عن الأتقياء . « ومن يد الهاوية أفديهم . من الموت أخلصهم . أين أوباؤك ياموت أين شوكتك ياهاوية » (هو ١٣ : ١٤) فحينئذ تكون عيننا البار مرفوعتين الى السماء تشيران الى أن قلبه وأمياله المقدسة تتوق الى الوصول الى ذلك المكان والحصول على تلك السعادة والتطلع الى الأبدية .

إن التأمل فى الماضى والحاضر والمستقبل ، كل هذا يملأ قلب الصالح فرحاً وسلواناً فهو ينظر الى الماضى فيجد أنه قد استراح والى الحاضر فيرى فيه كل ما يسره . يفرح بقرب تركه شقاء العالم . يفرح بقرب دخوله باب السماء وما أحلى ذكر المستقبل عنده لأنه يرجو أن يجتمع باله الذى أحبه دون أن يراه كقول الرسول بطرس « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨) .

فمن يستطيع أن يصف مقدار فرح الانسان الصالح وقت الموت عندما يعلم أن ساعة جهاده وتجاربه قد انتهت . إن السلام الذى يملأ قلوب المؤمنين حال موتهم يجعل فراشهم وثيرة لينة كريش النعام فلا يمكن أن تشاهد فى الأعراس ولا فى ولائم الأعياد ولا بين الذين أدركوا ساعة النجاح أثاساً مبهجين مثل المرضى المؤمنين . إن سلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبهم وأذهانهم .

وعند ورود ساعة الموت يمتلئ المؤمن فرحاً وهو يقول « يا ابتاه فى يديك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) وملاك الرب يستلم روحه ليحملها الى الأفراح الأبدية أمام عرش الله والخروف . فما أبهج وما أسعد نهاية ذلك الانسان الذى استحق أن يرى المسيح وجهاً لوجه كما هو ويشترك معه فى المجد والقداسة مشابهاً له فى ذلك ويشكره لأنه يرفعه من أبواب الموت (مز ٩ : ١٢) فمن يستطيع أن يتصور تلك الحالة السعيدة بل ويتصور أقل جزء من بهجتها .

تلك هى نهاية المؤمن الذى جاهد وغلب ، الذى احتمل الضيق والآلام بصبر غير ناظر إلا الى رئيس الايمان ومكمله يسوع (عب ١٢ : ٢) والآن قد انضم الى زمرة الأبرار ليتمتع بحياة سعيدة لا يعقبها موت ولا تعب وهو يرغم بترنيمات سماوية بدون انقطاع ولا ملل حتى صار يحق لنا أن نهتف مع القائل « تمت نفسى موت الأبرار ولستكن آخرتى كأخترتهم » (عد ٣٢ : ١٠) كيف لا والكتاب يصف راحتهم قائلاً « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهو يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الها لهم . وسيمسح الله كل دموعهم من عيونهم والموت لا يكون فى ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فى ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت » (رؤ ٢١ : ٤ و٣) .

إن المرأة الجميلة لا تشعر بجمالها أو تسر به بشهادة الناس لها ولكن سرورها يعظم إذا شاهدت جمالها فى المرأة ، هكذا المؤمن لا يمكن أن يسر بايمانه وفضيلته إذا مدحها الناس وشهدت لها الألسنة بقدر ما يرى نفسه فى مرآة الموت الصافية . فما أنجل ابتهاج نفسه فى ذلك الحين . ومهما كشف الانسان عند الموت من سعادة أبدية

ومجد خالد وميراث لا يفنى فلا يسره ذلك بمقدار علمه أن نفسه مطهرة وأنها عاشت عيشة ترضى الله .

إن الزارع الذى يبذر حنطته لا يفرح إلا إذا رآها قد ماتت لأن موتها يسبق أوان ظهورها ثمرة هكذا الصديق لا يحيا إن لم يميت (١ كو ١٥ : ٣٦) فللمؤمن إذاً أن يصرخ ليلاً ونهاراً قائلاً « ليأت ملكوتك » (لو ١١ : ٢) فكيف يطبق البقاء فى سجن الأرض وكيف لا يشتاق أن يتطلق الى حضرة الهه ومن ذا الذى يذهب كارهاً الى أخذ أجرته بعد التعب أو الى الحصول على أكليل الظفر وصولجان الفخار بعد أن ينتهى من المعركة بالانتصار .

قال القديس كبريانوس « إذا كان انسان قاطناً فى بيت جدرانته مائلة للسقوط وطبقاته مزعزعة الأركان و يشعر أنه مدام فى هذا البيت فهو تحت خطر الموت فكيف تكون أشواقه عظيمة للخروج منه والابتعاد عنه . هكذا كل الأشياء فى هذه الحياة تهددنا بالخراب الروحى ، والمؤمن الحقيقى الذى يخشى من السقوط فى حزنها يشتهى بكلية أن يخرج منها فائزاً بخلاص نفسه ، ولذلك يقول الملاك لدانيال إذ أخذ يسأله عن أموره « أما أنت فاذهب الى النهاية فتستريح . ونقوم لقرعتك فى نهاية الأيام » (دا ١٢ : ١٣) .

اننا نرفع أعيننا ونشاهد أشياء كثيرة خلقها الله ولكن لا نعرف عللها أو مصادرها ، الرسول بطرس يقول « لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض ، (١ كو ١٣ : ٩ و ١٠) . فعلمنا البسيط بما نرى من شأنه أن يزيد اضطراب أشواقنا دون أن يشبعها من المعرفة فكيف يكون سرورنا حينما نرحل من هذه الحياة الدنيا ونفتح عيوننا ونرى كل شئ ونحصل

فى لحظة من الزمن على كل حكمة وعلم ومعرفة نسموها على كل العلماء الذين ظهروا فى الدنيا . روى أن فيلسوفاً حكّم عليه بالموت ففرح لأنه قال « عن قريب أطلع على حقيقة مستقبل النفس » فإذا كان علم حقيقة واحدة حجب الموت لذلك الفيلسوف ، فكيف يود المؤمن إذاً أن ينتقل ليشاهد ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال انسان (١ كو ٢ : ٩) .

كيف لا يجب لمؤمن الانتقال وهو يعلم أنه سيشهد الله تعالى . وما دمنا نؤمن أن الله تعالى المجدد المخوف ينتظرنا ليكشف لنا وجهه الكريم و يشركنا في أفراحه ويمتدنا بامتلاك كنوزه السماوية فكيف نفكر أن نتأخر في هذه الحياة ؟ إن موسى النبي اشتبه أن يرى الله قائلاً « أرني مجدك » فأجابته الله قائلاً « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش » (خر ٢٣ : ١٨ و ٢٠) قال القديس أوغسطينوس « لماذا أمسك عن أن أقول « أمتنى يارب وأراك » ان خسارة كل ما أرى في العالم ليس بشئ أمام رؤيتك فلتغمض عيني عن رؤية كل شئ زائل . أودعك أيتها الغابات والبساتين والأودية والجبال والبحار والنباتات والأنهار لأنني لست أبالي بعدم رؤية محاسنك لأرى من أبدعك وأعطاك هذه المحاسن . لا أطلب أحداً سواك يارب » .

إنها نعمة عظيمة من الله أن ينقذ نفوس الأتقياء من شرور العالم الحاضر . ورحمة منه لا يعرف قرارها أن يجعل تلك النفس في حضرة المقدسة . قال القديس يوحنا ذهبي الفم « لو اتفق أن ملكاً أعد لانسان ما مسكناً جليلاً داخل قصور بلاطه الملوكي ولكنه قبل أن يسكنه فيه أسكنه في كوخ حقير فكم تكون أشواقه عظيمة الى الخروج من ... الكوخ لكي يذهب وقيم في ذلك القصر المنيف . والنفس إنما تكون داخل جسدها في هذا العالم كسجين فيه ولا يمكنها أن تخرج منه إلا بالموت لتنتقل الى بلاط الملك السماوي » .

أيها المؤمن هلم اصعد على أجنحة الرياح الى مقر راحتك . الهك ينتظرك . الملائكة تستعد لاستقبالك . باب السماء مفتوح أمامك . القديسون الذين سبقوك ينتظرون قدومك اليهم . فن منا إذاً لا يقول مع حبقوق « الرب السيد قوتي ويجعل قدمي كالأيائل ويمشي على مرتفعاتي » (حب ٣ : ١٩) .

اسمعوا الباريرغم في تابوته قائلاً « أودعك يا شمس الحياة لأن الرب سيكون نورى وحياتي الى الأبد . أودعك أيتها الأنعام المطربة لأنني أسمع هتاف المجددين في السماء . أودعك يا فرح العالم لأن يسوع هو فرحى وسلامي . امسحوا دموعكم لا تبكوا على . دقوا نغمة الفرح وأبطلوا نغمة الحزن ، صفقوا بأيديكم . أتبكون على

رأس توجها الله باكليل المجد ، وعلى يد تمسك قيثارات الذهب ، وعلى قلب اغتسل من الخطيئة ورقص طرباً ، وعلى من صار فى حضن المخلص . أبتكون على فقير لبس ثوب الغنى ، وسقيم صار صحيحاً ، ومحتقراً أخذ مجداً سرمدياً ؟.

لهذا نسمع آساف النبى يصرخ قائلاً « برأيك تهدينى وبعد الى مجد تأخذنى . من لى فى السماء ومعك لا أريد شيئاً فى الأرض » (مز ٧٣ : ٥٤) وسمعان الشيخ يقول « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لأن عيني قد أبصرتاً خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ و ٣٠) و بولس الرسول يقول « لى اشتاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » (فى ١ : ٢٣).

وقد سمعنا عن أنقياء كثيرين صرحوا عند موتهم بأنهم مسرورون وأن سعادتهم فى انتقالهم من هذا العالم : روى عن شيخ تقى أنه عندما شعر بدنو أجله جمع أولاده وحفدته حول سريريه وفى الدقائق الأخيرة من حياته تناوم وأخذ يبتسم ثلاث مرات وعيناه مغمضتان فلما فتحهما سأله واحد من أولاده عن سبب تبسمه المتكرر ثلاث مرات . أجاب الشيخ الورع « فى أول مرة خطر ببالى كل الملذات التى تمتعت بها طول عمرى فلم أقدر أن أمنع ذاتى عن أن أبتسم ضاحكاً على عمى أولئك الذين يعتبرون تلك الأشياء ذات قيمة مع كونها تشبه فقاقيع الصابون . وفى ثانى مرة تذكرت كل ما نزل بى مدة حياتى من البلايا والهموم ففرحت لدنو الساعة التى تذهب عنى فيها أشواك تلك الشدائد وأبدأ فى قطف وردها . وفى ثالث مرة عندما أمنت النظر فى الموت لم أستطع أن أمنع نفسى عن الابتسام لأفتكارى فى الهول الذى يلقى عليه الناس هذا الملاك المرسل من الله لكى يضع حداً لآلامهم ويقودهم الى مقر الراحة والسرور الأبدى ».

جاء عن القديس اغناطيوس أنه اقتيد من سوريه الى رومية ليلقى فرسة للوحوش الكاسرة فخشى أن ترفق به الوحوش كما تراءفت على غيره من القديسين وأن لا تمسه وقاراً . فقال « ليت الوحوش تزداد نهماً فإن أسنانها ليست إلا كرحى فإنها إن طحنت القمح لا تفنيه بل تصيره دقيقاً . فلنستحقنى فأصير قرصاً نقياً معداً للساء » وقيل عن القديس بوليكر بوس تلميذ يوحنا الرسول أنه حينما وضعوه فى نار

الاستشهاد ربطوه بوترد فقال لهم « دعوني من هذا الوثاق فإن من وهبني قوة على الأتيان الى النار يعطيني أيضاً صبراً على احتمال اللهب ».

والقديس كبريانوس لما سمع حكم القضاء عليه بالموت قال « أشكر الله لتحريره اياي من هذا الجسد » وجاء عن القديس باسيليوس إن الامبراطور فالنص أرسل اليه قواده طالباً منه الرجوع عن الايمان ليولي المناصب ويصله بالخيرات فرفض ذلك وهزأ بهم قائلاً « اعطوا ما تعدوني به للأولاد » فلما هددوه بالعذاب قال لهم « هددوا أعيانكم اللاسعين حبل الأرجوان المستعدين لشهواتهم » ثم هدده موديستوس الوالى بالاستيلاء على أملاكه وبالعذاب والنفي والقتل فقال « لا يخشى فقد المال من لا يملك شيئاً . ولا الغنى من يحسب السماء وطنه الحقيقي ولا العذاب من يسلم الروح بضربة واحدة . ولا الموت من يرى أنه الطريق الوحيد الى حضرة الله » فقال له الوالى انك مختل العقل فأجابه أرجو أن أبقي الى الأبد مختلاً هكذا .

وهذه آخر كلمات القديس انطونيوس لتلميذه « ادفناني تحت الأرض ولا تعرفوا أحداً موضع لحدي حتى إذا جاء يوم القيامة اقتبل هذا الجسد من يد يسوع المسيح بكر القيامة خالياً من الفساد » وقال القديس باخوميوس لتلاميذه قبل موته « اننى أشاهد يا أولادى الأعزاء أن الله عن قريب يريد أن يدعوني اليه . أما أنا فمن دون خوف أقبل نحو الموت لأنى واثق بصلاح الله غير المتناهى .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم فى رسالة أرسلها من منفاه الذى نفته اليه الملكة أودكسيا « انى لما خرجت من المدينة لم أعد أفكر فى شئ إنما أخذت أحدث نفسى هكذا . إن نفتنى الملكة فالأرض بكاملها للرب . وإن أحببت أن تنشرنى فقد نشر اشعياء من قبلى ، وإن أرادت أن تلقينى فى البحر فانى أذكر يونان ، وإن شئت أن ترجئنى فلى أسوة باستفانوس أول الشهداء ، وإن رامت أن تقطع رأسى فأكون رفيقاً ليوحنا المعمدان ، وإن أثرت أن تغتصب مالى فعر ياناً خرجت من بطن أمى وعر ياناً أعود الى هناك وكانت آخر كلمة لهذا القديس قبل أن يلفظ النفس الأخير « أشكر الله على كل شئ ».

ورد فى سيرة أحد الآباء الناسكين فى برية الاسقيط أنه عند موته اجتمع حوله أصحابه وصاروا يبكون ، أما هو فكان مسروراً ولما سئل عن سبب ذلك أجاب قائلاً « لماذا تبكون مع كونكم تشاهدوننى منطلقاً من الاتعاب والشقاء الى دار السعيم والراحة ». وجاء فى أخبار القديسين أن صياداً وجد أحد السائحين يرتل فى حالة احتضاره ترتيلاً شجياً بنغمة مطربة فأقرب منه الصياد وقال له « كيف إن رجلاً مثلك فى ساعة الموت وفى حال الذل والتعاسة يرغم مثل هذا الترنيم الحلو فأجابه السائح « أعلم يا أخى إن ليس بينى وبين ألهى سوى هذا الحائط (وأشار الى جسده) فكلما أراه مائلاً الى السقوط أعلم أنه قد دنا وقت اقترابى من الهى وتركى زمان غربتى وذهابى عند الرب الهى لأتمتع به ».

وقال قديس وهو يحتضر « ياموت أنت آخر أشواقى لأنى بك أكون مع المسيح الهى الذى أحبنى » وسئل غيره أى شئ تحتاج ؟ فقال « السواء » وقال آخر « عندما تسمعون انى مت لا تصدقوا هذا الخبر لأنه لا يعتبر قد مات من سيحيا حياة أفضل . سأكون فى محل أرقى . سأخرج من خيمة هذا الجسد الترابى العتيقة وادخل البيت الأبدى . سألبس جسداً لا يدانيه الموت ولا تلامسه الخطية جسداً مثل جسد مخلصنا الصالح المولود من الروح لا يموت » قال أحد القديسين ينبغى أن نسسمى يوم موت الأبرار بيوم ولادتهم لأن فى هذا اليوم يولدون ولادة جديدة لحياة لا يعقبها موت ».

الفصل السادس عشر فى موت الأثم

« اعطوا الرب الحكم مجدداً قبل أن يجعل ظلاماً وقبلها تعثر أرجلكم على جبال العتمة فتنتظرون نوراً

فيجعله ظل موت ويجعله ظلاماً دامساً » (ار ١٣ : ١٦)

إن السواد الأعظم من الناس يرتجفون رعباً و يستولى عليهم الفزع والاضطراب عند سماعهم ذكر الموت ولا سيما عند دنوه منهم لأنهم يعلمون بأنه الطريق الذى يفضى بهم الى الدينونة الأبدية ، وإن الانطلاق من هذا العالم يقودهم الى تحمل العقاب عما جنت أيديهم من الشرور التى لم يتوبوا عنها والى نوال العذاب جزاء لما ارتكبهوا من المآثم والخطايا التى لم يغسلوا أنفسهم من أقذارها . فهولاء يرومون أن يديموا فى ظلمة هذه الحياة مهما كانت دامسة هرباً من انكشاف أمرهم وانقضاء حكم الله عليهم ولكنهم يحاولون المستحيل .

لهذا ترى الانسان غير التائب ينطرح على فراش موته متوجعاً متألماً وروحه ترتعد ممسحة مملوءة خوفاً وانزعاجاً من الموت وما يعقبه : تراه متروكاً بلا تعزية ولا معونة لأنه لم يؤمن بالله ولم يعرفه ، وقد أنكره وخالف وصاياه . إن الموت حرب شديدة لا يقوى على الدخول فى ميدانها إلا كل جندى عاش متسلحاً بالفضائل : فالخاطئ الذى لم يتورع عن ارتكاب الاثم يحس بهمة العذاب و يرى الموت كأساً لا بد له من ارتشافها وتشتد الوطأة عليه كل يوم وتضطرب فى كل دقيقة جميع حواسه ولا يشعر براحة ولا هدوء ولا يدري أين يتوجه ولا من يلتمس العلاج لدائه . وإذا تحركت فيه الندامة يحاول أن يهملها لأنه يريد أن يصور نفسه لنفسه بصورة صالحة .

ها الموت واقف أمامه يهدده بأخذ روحه فى الحال و ينذره بأنه سيزيل عنه

كل الأفراح والمجد والملذات وكل ما فى العالم . فينظر بارتباك الى ما حوله فلا يرى إلا ما يوبخه من الخارج وما يبكته من الداخل وهو إذ ذاك لا يسمع شيئاً ولا يقدر أن يستفيد من أحد لأن قلبه قد تصلب من زمن مديد بفعل الآثام التى داوم على ارتكابها بعناد شديد . فيفتش فى صحيفة حياته عله يجد شيئاً يستر به نفسه العارية من الفضائل فلا يزيده هذا التفكير إلا خوفاً وانزعاجاً كما قال الكتاب « نعم نور الأشرار ينطفىء ولا يضىء لهيب ناره النور يظلم فى خيمته وسراجة فوقه ينطفىء . تقصر خطوات قوته وتصرعه مشورته » (أى ١٨ : ٥ - ٧) .

قال أحد الأفاضل « إن التفكير فى كل من الماضى والحاضر والمستقبل يلقي الرعب فى قلب المحتضر الشرير فانه يجد فى الماضى بطلان سعيه وراء لذاته . ويرى وراءه سلوكه وكثرة ما ارتكب من القبائح فيتحسر على ما فرط ولا ينفعه الندم . ويرى فى الحاضر ما يحيره حيرة غريبة . يرى الفراق محيطاً به . فراق الأهل والأحباء . فراق الملذات والشهوات . فراق نفسه من جسده . وينظر الى المستقبل فلا يرى إلا الله فى أعلى السماء قاضياً عادلاً مهيباً ، وتحت قدميه نار لا تنطفىء » .

فإذا يعمل الخطاىء حينئذ وماذا يرى إلا كل ما يملأه جزعاً والتباعاً ومن يستغيث ويستجير ، أبالمجد الذى أحبه وهو الآن يفارقه ؟ أم بأهله وهم عاجزون عن انقاذه ؟ أم بالاله الذى يعتقد أنه عدوله ؟ أجل . يتقلب الخطاىء على فراش مرضه ضحية لأشد الاضطرابات والخاوف . يحاول أن يهرب ولا يستطيع . يخرج من أعماق نفسه أحر التأوهات التى لا ندرى إن كانت عن ندامة أم عن يأس من رحمة الله ، وإذا لاحت أمامه صورة يسوع الذى صلب لأجله زاد انزعاجه واشتد هلهه فتشخص عيناه وينفتح منه ذلك الفم الذى علته غبرة الموت ويرتحف بدنه وتغادر تلك النفس التعيسة جسمه الترايبى لتتال عقاب ما جنت . قال الحكيم « عند موت انسان شر يريهلك رجاءه ومنتظر الاثمة يبيد » (أم ١١ : ٧) .

فأى هدوء يجده أولئك الراحلون من هذا العالم وهو مثقلون بالذنوب والخطايا وأى سلام يجد مكاناً فى قلوبهم المملوءة من كل رجس وذنس . وكيف يستريحون من قلق الضمير وهم يتأكدون أن أمامهم عقاباً شديداً وعذاباً مريعاً وانهم

سيحاسبون حساباً عسيراً أمام يسوع المسيح القاضى العادل . ذلك الاله الذى عانده لآخر نسمة من حياتهم والذى احتقروه حتى دنت نهايتهم . كيف يستريح الضمير الذى كان ولم يزل فى نومه أما الآن فقد استفاق من غفلته بقوة عظيمة لأن الخوف من جهنم قد أيقظه فراها فاتحة فاها لا يتلعه الى أبد اندهور . قال الكتاب عن الشرير « صوت رعوب فى أذنيه فى ساعة سلام يأتيه المحرب » (أى ١٥ : ٢١) .

إن ضمير الانسان لا يستيقظ ولا يتنبه إلا إذا أيقظته شوكة الموت فيبتدىء يذكر سيئاته التى نسبها . فيقول الآن أذكر انى أهملت العبادة الآن أذكر انى احتقرت الفقير . الآن أذكر انى سعيت وراء اللذات . الآن أذكر انى كنت أترك كل ما يخص بالله لأتمم كل ما تطلبه منى أميالى الرديئة الشريرة .

أجل . حينذاك يتصور الخاطيء إن كل ما حوله يوبخه ويهدده بما يحل به من العقاب وإذا سألت ما ذا يقول عن مجده وغروره ؟ فأين إذاً الخيرات التى نسى نفسه لأجل جمعها . أنا أؤكد أنه يهبها جميعها لمن يستطيع أن يريحه من ذلك القلق الذى لا يطاق ولكن وأسفاه فإن ثروة العالم كلها لا تشفع فيه . قال الكتاب « تائه هو لأجل الخبز حينئذ يجده و يعلم أن يوم الظلمة مهياً بين يديه » (أى ١٥ : ٢٣) .

قال القديس أوغسطينوس « ستفارقة الخيرات الأرضية التى أحبها وتصحبه الخطايا التى فعلها . أيها الجهلاء يامن أخطأتم بتكثير أموالكم التى جمعتموها بالوسائل المحرمة ستنزع منكم الأموال ، وسيرافقكم ما ارتكبتم فى سبيل حبها من المعاصى ولن تعودوا فيما بعد تتمتعون بمشاهدة الأشخاص الذين تعلقتم قلوبكم بحبهم المحرم بل سيمسكت عوضاً عن ذلك ألم وندم وانزعاج لما فرط منكم من المآثم والمنكرات » .

وما يزيده رعب الخاطيء حال موته تعلق قلبه بالخيرات التى له فالموت الحد الفاصل بينه وبين أولاده وأهله وأصحابه وملذاته . انه حينئذ لا يسعه إلا أن يصرخ « ما أمر الموت » وكسب يكون بكأوه على أمواله التى تفارقه وإذا سأله لما تكبى

أجابك « الهتى التى عملت قد أخذتموها مع الكاهن وذهبتم فاذا لى بعد وما هذا تقولون لى مالك » (قض ١٨ : ٢٤) قيل ان القنفذ بعد أن يكون قد أكل وشبع من ثمار الشجرة المتناثرة على الأرض يتبدى أن يتمرغ فوق ما يتبقى من هذه الثمار فيربطها بريشه ويحملها الى وكره محاولاً الدخول بها اليه من بابه الذى يجعله عادة ضيقاً مخافة أن يلججه غيره من الحيوانات فلا يستطيع الدخول فيضطرب أن يلقى ما كان حاملاً اياه ويدخل فارغاً كما خرج و يذهب تعباً فيما جمع هباء ، هكذا الخطيئ يشعر حين الموت أن كل ما تعب فيه للعالم كان باطلاً وقد ذهب هباء منشوراً .

وكم يتمنى الخطيئ المشرف على الموت أن يعود الى الحياة مرة أخرى أو أن يسترجع حياته الغابرة وأيامه التى قضاها فى الباطل أو أن يولد ثانية ليسلك سلوكاً جديداً وينزل الى ميدان الحياة مرة أخرى ليكسب ما يشعر أنه خسره الآن . ولكن كل هذه الأمنى تشوقات باطلة لا فائدة منها . بل من شأنها أن ترعجه وتريده خوفاً ويستبدى ضميره ينخسه و يوبخه فيحكم على نفسه بالعقاب قبل أن يحكم عليه العدل الالهى . حينئذ تحرق الشياطين به من كل جانب وهى باذلة كل الجهد فى تعذيب ضميره لأنها ترى أنه لم يبق له فى الحياة إلا برهات وجيزة فهى تريد أن تقلقه حتى لا يفكر فى أمر خلاصه . إنها تصور له جميع الخطايا التى ارتكبها والأماكن التى ارتكبها فيها . وتذكره بكل اثم وكان هو قد نسيه وأهمله . قد كان الشيطان قبلاً يجتهد أن ينسى الانسان ما يرتكب من الذنوب ويطمئن بآله من جهة العقاب الالهى ويعده بالرحمة الالهية ، أما الآن فانه بالعكس يذكره بخطايا ويقول له « كيف ترجو رحمة الله أنت يامن قضيت حياتك معانداً اياه وكيف يغفر لك خطاياك وهو الذى أوصاك أن لا ترتكبها ؟ » بل يرى الخطيئ أن الخطايا نفسها تنتصب أمامه وتقول له (أحببتنا فى الغمام الأرضى فراقفناك الى العالم السماوى) .

إن من يتفرس فى البحر حال سكونه ويشاهده راقباً صافياً يحكم على عمه أنه خال من الأوساخ . ولكن من ينظر فى حال هيجانه يندهش لما يراه مخفياً فيه من الأقدار والأوساخ الطافية على وجه الماء . هكذا يرى الخطاة فى حال صحتهم وصفه

عيشهم وراحة بالهم ولكن مهلاً حتى تأتي عواصف الموت فترى ضمائرهم تقذف
ما حوته من أدناس الخطايا وأقذار الذنوب وتكون لهم شوكة حادة ينفذ إلى قلوبهم
ولا تستريح مطلقاً .

إن نيرون قيصر رومية لما أعجب بقصيدة هوميروس التي نظمها على حريق
تروادة أراد أن يمثل ذلك أمامه فأوعز بحرق مدينة رومية ووقف على شرفة عالية يقرأ
شعر هوميروس والمدينة تشتعل وأهلها يصرخون نساء ورجالاً كباراً وصغاراً طالبين
المعونة ولا معونة . هكذا الشيطان يقف بجانب الخاطيء الذي أطاعه وبينما يكون
الخاطيء معذباً من خطاياهم ومحترقاً من توبيخ الضمير يكون الشيطان شامتاً مسروراً
لأنه استطاع أن يخذله كل الطريق حتى سلمه إلى الهاوية .

الويل لمن لا يتوب قبل حلول ساعة موته فإن ملائكة الله يقبلون وقتئذ عليه
والغضب يتقدمهم ونار الله الآكلة ترافقهم فيستولى عليه الانزعاج والرعب ويحاول
الفرار من فوق سرير احتضاره ولكن أنى تكون له القدرة على ذلك . حينئذ لا يجد
لديه وسيلة إلا الندم والتوسل وهل يجدى الندم بعد العدم . يستغيث : ارحموني .
رحموني ولا تحضروني أمام الديان ونفسي مدمنة بالشروع والخطايا . ولا تفصلوني
عن الجسد وأنا ملوث بالناتئة والخطيئة . اتركوني زماناً يسيراً لكي أتوب وأرجع إلى
الله . فتسمع نفسه صوت ملائكة الله قائلين لها (أيتها النفس الشقية . لقد صرفت
أيامك كلها في الكسل والتواني والآن تريدين التوبة والتجاء إن ذلك من المحال
لأن نجيمك قد أقبل وموتك قد دنا واقترب . الله يدعوك لتداني على ما عملت
فاخرجي أيتها النفس الخاطئة لتتألي عقابك . لأن وقت الخلاص قد انقضى وحبل
الرجاء قد انقطع . وكل هذا اتماماً لقول الكتاب الإلهي « كم ينطفئ سراج
الأشرار ويأتي عليهم بوارهم أو يقسم لهم أوجاعاً في غضبه أو يكونون كالتبن قدام
الريح وكالعاصفة التي تسرقها الزوبعة . لتنظر عيناه هلاكه ومن حمة القدير
يشرب » (أي ٢١ : ١٧ و ١٨ و ٢٠) .

ما أعظم الحزن الذي يلحق الخاطيء بعد موته . ولو تجمع كل ذل في العالم لما
ساوى أسى الخاطيء وحرقة . فما أروع الموت للنفس التي ليست في المسيح إذ

يكون لها مضجع مملوء بالأنين ومنظريفت الأكباد وكلمات كلها مرارة وهى ترتعد
كلما قربت من باب الجحيم فتسمع صراخ الأرواح المعذبة فيه وتلثفت الى تحت
فتسرى الأبالسفة فى العذاب الأبدى فى تلك الهوة الملتبسة وتتمنى أن تدفع كل ثروة
العالم من أجل ساعة تعيشها ، ولكن وقد قبض الشيطان عليها فلا بد لها من
النزول ، وهنا من يقدر أن يتصور عويل النفس الهالكة وهى تنحدر الى أعماق
الجحيم . إن مقابر الجحيم الهائلة تتعجب وظلمة الليل الهالكة ترتعب حينما تسمع
صوت عويل النفس الهالكة وهى نازلة وسط اللهب المتصاعد .

كثيرون من الفلاسفة الكفار الذين عاشوا يدعون الناس الى الكفر والاحاد
عندما ذنت ساعة موتهم وشعروا بهولها وبمرارة الكأس الحمام التى تقدم لمن يموتون
فى الخطية اعترفوا بضلالهم وشر غواياتهم .

قال شارل التاسع (نيرون الحديث) وقت احتضاره : ما هذه الدماء . ما هذا
القتل . هوة عميقة تريد أن تبتلعنى ، يا للهول لقد اتبعت مشورة الأشرار ، انى
لا أعرف أين أنا ، انى مرتعش وخائف وركبتاى غير ثابتين ، ماذا أعمل انى هالك
الى الأبد . أنا أعرف ذلك ومتأكد منه !

وفولتير بعد أن قضى حياته كلها فى الكفر والضلال مجدفاً على الله صرخ ساعة
موته قائلاً : أيها المسيح ! الرب يسوع ! وكانت تخنقه العبرات ويبكى بكاءً مرأ لأنه
أصبح متروكاً من الله والناس . ولم يستطع اطباؤه وأصدقائه أن يتحملوا هذا المنظر
المؤلم فهربوا من حوله قائلين : إن آلامه وعذابه أشد مما رأينا فى زيارتنا لجميع
المرضى .

وتوما بيثى الذى بذل كل جهده فى مقاومة الدين المسيحى ومحاربة من يبشر
بالانجيل صرخ عند موته بألم شديد قائلاً : يارب ساعدنى ، يارب ساعدنى . يامن
صلبت على عود الصليب ساعدنى .

والسير فرنسيس بنيبورت الكافر أصبح قبل موته بثلاثة أيام هيكلاً عظام بسبب
شدة آلام نفسه لتجديفه على الله ، وكان يقول ساعة احتضاره هالك وملعون أنا الى
الأبد لأننى طعننت المسيح بالحربة فى جنبه . جهنم تحتى والهلاك يحيط بى فن

ينجيني؟

وميرايو — عند موته — تبرع بثلاثة آلاف من الجنهات لمن يبرهن له على عدم وجود جهنم، كما أن شاسترس عند احتضاره طلب مخدراً ليزيل مخاوف العقاب من فكره.

كان « اتيان الن » جاحداً وكانت امرأته تقية فاضلة فلما دنا أجله وانطرح على فراش الموت وقربت ساعة انطلاقه من هذه الدار الفانية سأله أحد الحاضرين قائلاً: أتشهى أن يتدين أولادك بدينك أو بدين أمهم؟ فأجاب على الفور (بدين أمهم) وجرى مثل ذلك مع الدكتور بولس أحد كفرة جرمانيا المشهورين الذى كان ينكر وجود الخالق له المجد و ينكر المعجزات والوحي وخلود النفس، فانه لما مرض مرض الوفاة قال (انى قريب من الموت وسينتهى وجودى) وبقي ينتظر الفناء بنفس لا تعرف العزاء، إلا انه قبل موته بقليل بقى بضع ساعات لا يتكلم ولا يبدى حركة. وظن الحاضرون أنه لم يعد قادراً على الكلام ولكنه عاد وفتح عينيه وتطلع الى فوق كأنه يرى ما لا يراه إلا القرييون من أبواب الموت وحاول الجلوس ثم قال بهدوء حقاً توجد حياة أخرى ثم أسلم الروح.

وقال أحد العلماء الأشرار عند موته: سأترك جسدى فى القبر وروحي فى أعظم منه. وقال جورج الرابع ملك انكلترا عند احتضاره: ما هذا انه الموت يا ابنى. لقد خدعوني. فما أرهب أن يرى الانسان فى آخر دقيقة من عمره أنه قضى حياته فى سبيل البطل والضلال وأنه لم يبق له سوى توقع الهلاك المريع وعقاب الله الشديد.

فانظروا وتعجبوا فإن ذاك الذى كان بالأمس ذا هبة وسطوة نراه اليوم مرتعداً فاقد السلطة والجاه وهو يتوسل بقليل من الرحمة ولكن ليس من يرثى اليه أو يعطف عليه، ها هو بين مخالب الموت أسير ينوح يسكب دموعاً حارة يبكى إذا ما استعرض أهمله وقساوة قلبه وعدم إيمانه. يتألم ويتعذب عندما يتصور العذاب الذى سيحصده. وظلام النار التى سيستقر فيها، وهينة الشياطين المخيفة التى سيجاورها فما يعمل فى تلك الساعة الرهيبة وكيف يتخلص من تلك الحالة المزعجة؟ فإذا أشفاقك وأنعسك يامن تهاونست فى أمر خلاصك، انك الآن تتحقق أنك كنت مخدوعاً ومغروراً وانك ستعذب باطلاً.

الفصل السابع عشر

فى أن توبة الخاطئ عند الموت لا تقبل غالباً

« أنا أفضى وستطلبينى وتموتون فى خطيئكم » (يوحنا : ٨ : ٢١)

« الشرير الشرير » (مز : ٣٤ : ٢١)

إن الخطاة الأثمة يقضون حياتهم يعبدون الهاً غير الله و يسجدون لآله غير الله يحسبون الهاً غير الله ولا يذكرون الله إلا حين شعورهم بقرب ساعة انطلاقهم إليه . . ولذلك لا يسمعون منه سوى القول المريع (انعطفوا الى الأشياء التى أحببتموها والخطايا التى ارتكبتموها واطلبوا منها الغوث والمعونة لأنكم عشتُم لها وقضيتُم حياتكم فى خدمتها) .

آه . إن الناس يخشون الخطيئة ويخافون من عقابها ولكن علة تجاسرهم على السير فيها هو توهمهم انهم يتوبون حال الموت وإن توبتهم تقبل منهم . قبل أن يلفظوا النفس الأخير يقولون لله أخطأنا ، و يعتبرون ذلك كافياً لخلاصهم ولم يسمعو قول الله الرهيب « فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تحيىء السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا : ١٢ : ١) .

وكأن لسان حال الخاطيء الذى يؤجل توبته للساعة الأخيرة أو لحين الشيخوخة يقول (اللهم انى أعدك بأن أتوب عن الشر ولكن متى عدمت قوتى ولم يبق لى وقت لأغفظك فيه . وسأخلص اليك المحبة ولكن متى عجزت عن التصرف بها فى ما يلد حواسى . وسأندم على اهانتى اليك ولكن متى ضعفت ولم تعد لى قوة للاستمرار فى اهانتك . وسوف اعترف وأقر بأننى أخطأت إذا ما ربطت يداى ورجلاى عن السير فى طريق الخطيئة — ياغبى . انك لا تتهاون إذا دعيت لوليمة أو

إذا فتحت أمامك أبواب للربح . انك تجد لتحصل على كل شيء إلا على رضى الله . فكيف تتلمس الرضى حين موتك ، وأنت لم تسع اليه قط فى حياتك ؟

لو إن حصانا جح من صاحبه وركض هارباً حتى اعترضه نهر فوقف ، فهل من الصواب أن نظن أنه قصد بوقوفه تمكين صاحبه من مسكه ؟ ألا يطبق هذا المثل على من يركض طول حياته وراء شهواته حتى إذا ما اعترضه الموت طلب الرحمة ؟ . قال أحد الآباء (من تتركه الخطايا قبل أن يتركها لا يعتبر رغباً عنها بحض اختياره ، بل يعتبر محروماً منها رغم ارادته) والدليل على ذلك إن كثيرين ممن أصيبوا بأمراض خطيرة أظهروا التوبة لأنهم ظنوا أن ساعة موتهم قد اقتربت ، وما إن عادت اليهم الصحة حتى رجعوا الى سابق عهدهم من معاداة الله . فلم تكن توبتهم أذن عن كرهه فى الخطيئة بل خوفاً من انتقام العدل الالهى . وتوبة كهذه لا تقبل مطلقاً . نعم إن الله وعد بقبول الخطاة حين يرجعون اليه تائبين . ولكن توبة الخاطئ فى ساعة موته لا تعتبر توبة حقيقية صادقة مقبولة لأنها إنما هى توبة اضطرارية ناتجة عن الخوف الشديد . إن سمعى الذى سب داود الملك مرة رجع وطلب منه السماح لما وقع تحت يده ، لكن داود مع كونه اطلق سبيله كلف ابنه سليمان بقتله (٢ صم ١٦ ، ١ مل ٢ : ٤٦ و ٨) .

هكذا كثيرون من الناس على هذه الصورة . لما يجدون أنفسهم قد وقعوا تحت يد الله القوية يتوبون توبة اضطرارية ولكنها لا تقبل منهم لأنها جاءت بعد فوات الفرصة وفى ساعة ضيقة لا تمكنهم من الاستعداد لها كما ينبغي .

إن من لا يحب الله فى حالة الحرية وسعة الوقت يكون أقل حياً حين يحضره الموت و يرى جهنم فاغرة فاها لا ابتلاءه . إن مقاساة الأوجاع والأمور الناتجة عن الحزن تؤثر على قوى النفس ولا تدعها تملك عواطفها فكم بالحرى رهبة الموت وهى أشد تأثيراً لأنها تهد أركان العقل قال الحكيم « ليس لإنسان سلطان على الروح يمسك الروح ولا سلطان على يوم الموت » (جا ٨ : ٨) .

فمن يظن أن توبته فى حالة مرض الموت تقبل منه إنما يتوهم المستحيل . لأن المريض يكون دائماً مشغولاً فى أحوال مرضه . اليوم الحمى شديدة . غداً تنازلت

قليلاً . أمس شعر بخفة المرض ونام مستريحاً . واليوم ثقل المرض عليه وقضى الليل أرقاً . هذا الدواء أفاد وغيره لم يفد ، وهكذا يستعرض أحوال مرضه حتى يبعثه الموت .

إذا كان رئيس السفينة جباناً ولا يمكنه أن يسيرها فى حالة اعتدال الطقس فكيف يمكنه أن يدفعها للسير والطقس فى قلب ؟ هكذا إذا لم يعمل الخاطئ للتوبة وهو فى حال الصحة فكيف يجاهد فى سبيلها وهو فى حال المرض والضعف واضطراب الفكر . هذا . وغير خاف أيضاً أن البعض لا يطول معهم المرض ، والبعض لا يندرهم بالموت مرض يسبقه فقد يموتون بغتة بانفجار أو بدء السكتة القلبية ، والحاصل إن كثيرين فكروا فى التوبة ولكنهم أرجأوها الى ما قبل الرحيل فانقضى العمر ولم ينتهزوا الفرصة ثم انقضى الموت عليهم بغتة وهو بهم الى جهنم وهم الآن فى عذاب أبدى وحسرة لا نهاية لها .

إن الملك القوى إذا أراد الاستيلاء على المدينة يفاوض أهلها أولاً باللين فإذا رفضوا التسليم له حاصر المدينة بغير رحمة واستولى عليها بقوته العاشمة . هكذا الخاطئ الذى يرفض فى حياته نعمة الله وعدله فان الرحمة تنساه إذا طلبها وهو فى طريقه الى الجحيم .

أنتم ترفضون الصلح معه فى الوقت الذى يطلبه منكم ، فهو أيضاً يأبى أن يرتضى بمساومتكم حين يأتى وقت تطلبونه فيه مكرهين . وهو القائل « أنا أمضى وستطلبوننى وتموتون فى خطيئتكم » أى انسان يغفل عن نجاة نفسه قصداً وتعمداً وأى انسان محبوس فى سجن ضيق يمكنه أن يحل القيود من رجليه ومع ذلك يتباطأ ؟ وأى مريض يعطى له دواء مفيد ولا يستعمله ؟

ما أجهل الانسان الذى يشعر انه يكسب الخلاص عندما يحضره الموت بمجرد لفظة يجود بها ! وما هى إذا قيمة قول بطرس الرسول « وإن كان البار بالجهنم يخلص فالفاجر والخاطئ أين يظهران » (١ بط ٤ : ١٨) وما هو معنى قول الرسول بولس « انه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله » (اع ١٤ : ٢٢) أو ما قاله مخلصنا الصالح « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى الى الحياة » (مت ١٤ : ٧) .

فالإنسان الذى يهدى روع ضميره بقوله (سأتوب عندما يقترب الموت) يمثل دور قايين لأنه حزن على قتل أخيه ولكن بعد أن سمع أنه سيكون مطروداً مهاناً (تك ٤ : ١٢ و ١٣) وكحزن هاجر على اغصاب مولاتها ولكن بعد أن سمعت الأمر بطردها (تك ١٦) وكتوبة شاول حيناً ندم على عدم قتله العملاقة بعد أن علم أنه من أجل ذلك سيفقد الملك (١ صم ١٥) هكذا يقول الله لكل خاطئ يريد التوبة عند الموت : أنت لم تتب لأنك تحببى أولئك تكره الخطيئة بل لأن الخطيئة ستتخلى عنك ، وجهنم تستعد لابتلاعك .

انهم يريدون الآن أن يخلعوا ثوب الشر القذر ويلبسوا ثوب البر المقدس ، لا كرهماً فى الشر ولا حباً فى البر . بل لأنهم رأوا أن حالتهم الحاضرة المؤلمة يزدها الشر ألماً ، والبر يزىل خوفها فهم أشبه بجسم منتن حلى بأجل اللباس .

إن شمشون الذى كان يقوى على كل خطر عندما كان مع الله وكانت نعمة الله معه ، لما رأى أن الله خلصه مراراً من أيدي دليمة التى سقط فى حبالها أغتر بالأمل معتقداً بأن لا خطر من استمرار سقوطه لأن الله فى كل مرة يخلصه . وهذا هو نفس الأمل الذى يخدع الخطاة فانهم يتصورون أنه لا يأتى يوم فيه يتخلى الله عنهم كما تخلى عن شمشون . فشمشون إذ أعطاه الرب قوة بعد أن أوثقته دليله مرة واثنين وثلاثاً لينجوا ظن أنه إذا باح لها بسر قوته ينجوا أيضاً لأنه قال « أخرج حسب كل مرة وانتفض . ولم يعلم أن الرب فارقه » (قض ١٦ : ٢٠) وهكذا كثيرون إذا أوقعتهم خطاياهم فى بلية يقولون : عندما ينقذنا الرب منها نعيش له . فإذا أنقذهم منها يعودون بخطاياهم اليها ويقولون كما نجونا منها فى المرة الأولى ننجو فى المرة الثانية وهكذا الى أن تنتهى الحياة وعندئذ يقولون « خلصنا يارب فلا نعود للخطيئة » فيقول لهم (لم يبق بعد زمان لكم لتعودوا للخطيئة ، ولكنها لاصقة بكم وستمتوتون بها) كثيرون هم أولئك الذين لا يستعدون للموت ارتكباناً على أن الخطيئة هيئة وأن الله لا يتركهم ، ويظلون على هذا الوهم حتى تأتى ساعة الموت فيعرفون أن الله كان بعيداً عنهم وأن الشيطان خدعهم كشاول ملك اسرائيل الذى ذهب يطلب الرب فسمع صوت صموئيل النبى يقول له « لماذا تسألنى والرب قد فارقت وصار عدوك » (١ صم ٢٨ : ١٦) .

وهل تظن أيها الخاطئ الذى داومت على ارتكاب الخطيئة وألفتها نفسك طول حياتك إنك تجد طريقة للخلاص منها فى لحظة من الزمان ؟ قيل عن متراداطس المتמרر المشهور أنه كان مواظباً على استعمال العشب المسموم المسمى (سوكران) غذاء له وكان يأكله على الدوام فصار ذلك العشب مألوفاً عنده حتى إذا أراد يوماً الانتحار للتخلص من مصيبة داهمته طلب ذلك العشب وأكل منه بكثرة فلم يؤثر فيه ولم يبلغه مناه . وهذا الأمر عينه يعرض للخطائى المسكين فإنه لاستمراره على ارتكاب الخطيئة كل يوم تصير فى شخصه طبيعة ثانية بحيث لا يمكنه أن يتخلص منها عند دنوه من حافة القبر ولا تفيد الارشادات والنصائح فى ازالة ما ثبت فيه من الشر لأن تأثيرها فى نفسه يخف شيئاً فشيئاً لكثرة تكرارها حتى يضمحل أخيراً . فالذين يسكنون بقرب مطحنة ذات جعجعة قوية ونهر دائم الخريف أو بحر كثير الهيجان يعلمون بالاختبار أن الصوت الذى كان يزعجهم فى أول الأمر تخف وطأة تأثيره لديهم لكثرة تعودهم على سماعه حتى يصبحوا لا يشعرون به . هكذا حقائى الدين كلما تكرروا رفضنا لها ضعف تأثيرها فينا حتى نشرف على الموت وقد فقدنا تأثيرها بالكلية ولم يبق إلا تأثير الخطيئة .

فالتوبة للخطائى المدنف إذا أشبه بالحجر الثقيل لذى اليدين الضعيفتين . وما هو ذلك الحجر الثقيل ؟ هو ملكاته الرديئة المستحيلة الى طبعه .

وهل تظن أيها الخاطئى التعس أنك إذا ملت للأفكار المقدسة يسكت عنك ابليس وهو يعلم أن أوان رحيلك قد دنا ؟ أنه يجمع كل قواه حتى لا تقلت من يده تلك النفس التى تملك عليها طيلة أيام حياتها . إن آخر يوم فى الحروب هو أشدها هولاً لأن فيه ينتهى كل شئ ، فأخر أيام حياتك أشد أيامك هولاً والشيطان يز يدك فيه رعباً وخوفاً . قال الرانى «لأن أبليس نزل اليكم وبه غضب عظيم عالماً أن له زماناً قليلاً» (رؤى ١٢ : ٢١) .

إن اعتماد الانسان على رحمة الله مع استمراره فى ارتكاب الاثم وهم باطل ، لأنه إذا كان الله رحوماً فلا ينبغي أن تكون رحمته خاصة بانسان دون كل البشر فرحمة الله عامة للكل فلورحم انساناً قضى حياته فى الشر والاثم لكان ذلك منه

قساوة على كل البشر ولا متلات الدنيا من الشر لأنه إذ يرى كل انسان أن الله قبل الخاطي بعدما قضى حياته بعيداً عنه فإنه يسلك هو أيضاً هذا السبيل لينال حظه من العالم ولا يمنعه ذلك من أن تكون له الحياة الأبدية بمجرد قوله ساعة الموت (اللهم اغفر لي)!!

قال أحدهم لقد رفض الله أن تقدم له ذبيحة من أحد هذه الطيور اليوم والغواص والكركى (لا ١١ : ١٧) وذلك لأن الأول يختفى في النهار ويظهر في الليل ، والثاني يظل حياته ساكناً ولا يصيح بصوت عذب إلا عند موته ، والثالث له رائحة فم كريهة طالما كان حياً وعند موته تتحول الى عرف زكى وعلى هذا المنوال ترفض توبة الخاطي المحتضر لأنه لم يعمل لها في نهار الحياة ولكنه طلبها في ليل الموت ولأنه أهمل طلب الرحمة في حياته والتسها في ساعته الأخيرة ، ولأنه أرسل من فمه وهو حي رائحة التجديف النتنة على اسم الله ولم يفكر في عبادته إلا وهو يلفظ النفس الأخير .

أن كثيرين إذا سمعوا هذا الكلام أجابوك فوراً : وما هو قولك في اللص اليمين . ألم يخلص في آخر نسمة من حياته ؟ يا للغباوة . كم من المواعظ سمع اللص . انه لم تطرق أذنيه ولا كلمة واحدة من كلام الله . وفي يقيني أن اللص أتى ما لم يأته أعظم القديسين . لأن إيمانه الذي به خلاص كان عظيماً للغاية . أنه آمن بالمسيح ولكن ليس وهو يصنع المعجزات و يأتي العجائب بل آمن به وهو معلق على عود الصليب نظيره . انه آمن قبل أن تحدث الزلزلة التي برهنت على لاهوت ابن الله إن التسلاميذ كلهم قد هربوا وضاع رجاؤهم إذا رأوا المخلص معلقاً على الصليب . أما اللص فقد أعلن إيمانه به وهو يراه مهانئاً من الجميع . فهل لم يكن حقاً عظيماً إيمان مثل هذا ؟

هب أن الله قبل اللص في آخر حياته فهل لا تخشى أن يكون مصيرك الهلاك إذا اعتمدت على هذا الأمل ؟ لقد سمعت أن يونان النبي طرح في البحر فابتلعه الحوت ثم قذفه على الشاطئ حياً (يون ١ : ١٠) فهل تدفع بنفسك في البحر على أمل أن تنجو كما نجا يونان . لقد سمعت أن الفتية الثلاثة طرحوا في أتون النار ولم

يحترقوا ، فهل تطرح نفسك فى النار وأنت تأمل النجاة مثلهم ، و يوسف الصديق نال الوزارة فى مصر بعد أن ألقى فى الحب فهل تتوهم أنك إذا طرحت نفسك فى جب تصل الى منصب الوزارة . فلا ينبغي إذا أن تستند على ذلك اللص الذى عاش خاطئاً وقبل ، فبشئان بين حالتك وحالته ، تذكر يهوذا الذى ندم وقال « أخطأت » ثم لشدة تأثيره مضى وخنق نفسه ومات هالكاً (مت ٢٧ : ٤ و ٥) وقال شاول الملك أخطأت (١ صم ١٥ : ٣٠) وقال فرعون المتقسى « أخطأت » (خر ٩ : ٢٧) وقال بلعام « أخطأت » (عد ٢٢ : ٣٤) ولكن هؤلاء كلهم هلكوا لأن توبتهم لم تكن صحيحة لأن الخاطئ المائت إذا بكى فليس على خطيئته بل على عقابها . إن منح المخلص الخلاص الى اللص كان امتيازاً خصوصياً نظراً للزمان والمكان والظروف الملائمة ، وقد لحظ القديس أوغسطينوس أن المسيح سلك مع اللص سلوك طبيب تخرج فى إحدى المدارس العليا وهو يريد أن يشهر براعته ففتش على أسقم مريض ووهبه الصحة مجاناً وبه نال شهرة فائقة . فلا يصح فيما بعد أن يأتى كل مريض ويطلب منه الشفاء مجاناً . فيسوع المسيح أراد أن يعلن فرط رحمته للخطاة فشقق وخلص أشهرهم فلا ينبغي أن تعتمد أنت على ذلك راجياً أن يخلصك فى آخر حياتك كما خلاصه وإلا انتقلت الفضيلة من العالم وكانت المكافأة فى السماء على الرذيلة طول الحياة مع كلمة وجيزة يقولها الانسان عند الموت . قال القديس أوغسطينوس أيضاً : إن السيد المسيح خلاص اللص لئلا ييأس أحد وقد جعله وحيداً لئلا يطمع أحد . وإذا أردنا أن نستفيد حقاً فلا نجعل لأنفسنا عينا واحدة فقط ننظر بها اللص الأمين بل لنجعل لنا عينيْن نرى بالواحدة اللص الأمين وبالأخرى الأيسر . فلماذا تنظرون لخلص اللص الأمين ولا تنظرون لهلاك اللص الأيسر ، عن يمين المخلص خلاص واحد وعن يساره هلك واحد . فلماذا تعتمد على حالة الذى كان عن يمينه ولا تعبر من حالة الذى كان عن يساره . أنظر الى هذا اللص الأيسر فإنه كان يشاهد الزلزلة العظيمة التى حدثت حين الصلب و يرى تزلزل الصخور وتشقق الأحجار وقيام الأموات من القبور حتى أن قائد المائة والذين كانوا معه يجرسون يسوع لما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا حقاً كان هذا ابن الله (مت ٢٧ : ٥١ - ٥٤) ولكنه مع ذلك لم يؤمن ، فهل تنتظر عند موتك أن يقدم لك الله أدلة على لاهوته أكثر من ذلك ؟

وأية قدرة تكون لك حينئذ أيها الخاطئ على عمل الصلاح الذى تبرهن به على توبتك لأن يوحنا المعمدان يقول « فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » (لو ٣ : ٨) قال القديس أوغسطينوس : هذه هى العقوبة العادلة على الخطيئة . وهى أن الخاطئ لا يريد أن يصنع خلاصاً حينما يكون قادراً عليه . وإذا أراد بعد أن يصنعه فتزول منه القدرة على صنعه .

قال أحدهم « إن الذى لا تدرك أحكامه من عاداته أن يعلق مبدأ القداسة أو خلاص الناس على فعل ما هو صالح زهيد لا اعتبار له فإذا فعلوه يمنحهم — جلت مكارمه — فيما بعد نعمة فائقة و يصونهم صوناً خصوصياً حتى أنهم يلبقون الى نعم الملوكوت لا محالة وإذا تغاضوا عن فعله يعدمهم التأييدات الخصوصية والنعم الوافرة التى حسب رأى العلماء اللاهوتيين لا يلتزم تعالى أن يعطيها للبشر ، و يتركهم يتبعون آراءهم الخادعة فيهلكون . قال له المجد « لأنهم مبصرين ولا يبصرون وسامعين ولا يسمعون ولا يفهمون » (مت ١٣ : ١٣) فهم أشبه ببيت فى قبره مقيد اليدين والرجلين معصوب العينين . فالخاطئ لا يقدر أن يتوب حين وفاته لأنه يكون حينئذ مشدود العينين بعمى روحى يجعله يجهل الله أكثر مما كان يجهله فى حياته .

فلا يستطيع أحد أن يخلص ما لم تساعده نعمة الله .. وأما الذى يرذل هذه النعمة فى حياته فإن الله يرفعها عنه حين مماته حتى لا يقوى على التوبة والخلاص مهما طلبها بدموع .

قال المخلص « صلوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء » (مت ٢٤ : ٢٠) فإذا كان الشتاء غير مناسب للسفر من جهة لأخرى فإن ساعة الموت أكثر عدم ملائمة للسفر الى الحياة الأبدية . ونضرب لكم بعض الأمثلة . يوليانوس الملك الجاحد الذى كفر بالسيد المسيح واضطهد قديسيه وحاول أن يبنى الهيكل ليكذب نبوته خرجت نار من الأرض وصدمت ما بناه ومع ذلك لم يرتدع بل حينما سار الى حرب الفرس تعهد بآبادة المسيحية بعد رجوعه ولكنه طعن فى قلبه برمح أفقده الحياة وشعر بقوة من اضطهده إلا أنه لم يؤمن بل أخذ فى دمه السائل من صدره ونثره فى الجو

وصرخ قائلاً « لقد غلبت أيها الجليلي ».

حكى عن شاب تعلق قلبه بفتاة تعلقاً شديداً حتى نقلها الى قصره وعاشرها مدة حياته دون أن يسمع نصيحة أو يقبل ارشاداً ولما أدركه المرض واشتد عليه ، زاره أحد خدام الله فسأله ماذا ينبغي أن أفعل لأخلص فسربه الخادم وأخذ يطلب منه أن يفى ديونه ويرد ما لديه من الودائع لأصحابها ويعفو لمن أساء اليه فقبل أن يجرى ذلك بكل سرور ولا توان ثم طلب منه أخيراً أن يطرد عنه الفتاة . حينئذ تأوه وقال له « لقد صعبت على الأمر وطلبت منى ما لا أستطيع اجابته » فأخذ يحسن له طردها حتى لا يخسر نفسه فأجابه « لا أستطيع » فهدده بعذاب جهنم . فأجابه « لا أستطيع » فشوقه الى سعادة السوء فأجابه « لا أستطيع » وهكذا أخذ يعده ويتوعده وهو يجاوب « لا أستطيع » الى أن قال بلهجة الاصرار قلت ولا زلت أقول « لا أستطيع » ثم جمع قواه الضعيفة الباقية وقبض على ساعد تلك الشقية وقال لها بصوت مرتفع « كنت عزى فى حياتى وستكونين كذلك فى مماتى » ثم اجتذبا بعنف وضمها الى صدره واحتضنها وقبلها . وفى الحال اشتد عليه المرض ثم اضطربت حركة قلبه وفاضت روحه الهالكة الى جهنم .

وكان أحد الخطاة الغارقين فى الرذيلة إذا نصحه أحد أصدقائه أن يتركها كى لا تهلك نفسه أجابه ياصباح إن الذهاب الى جهنم حسن من أجلها . وشارل الثانى ملك انجلترا قال وهو يحتضر « لا تدعوا نلى المسكينة تموت جوعاً » (اشارة الى حبيبته نلى جوين) و برنر الشاعر الانجليزى لم يذكر عند موته سوى عدوه مانثيوين الحمامى الذى طالبه بالدين وهدده بالسجن فلم يقل سوى ذلك اللعين مانثيوين .

هكذا يهلك الخطاة وإذا يقول واحد منهم لله سامحنى يجاوبه متى عودت لسانك على قول هذه العبارة التى ما لفظتها قط فى حياتك وقد طلبت منك مراراً أن تقوها فكنت تأبى بقساوة شديدة ؟.

قيل عن رجل شقى أشرف على الموت وكان أحد الجالسين حوله يطلب منه إن طلب المغفرة من الله فقال له « كيف يسوغ لى هذا ولى أربعون سنة وأنا أرفض

التوبة».

فاحذر أيها الخاطئ ولا تعلق توبتك على أى وقت غير «الآن» و«والآن»
و«الآن» فقط .

الفصل الثامن عشر فى أن يوم الموت يأتى بغتة

« لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلبده يوم » (ام ٢٧ : ١)

قال أحد الحكماء « ليس شئ أكيداً مثل الموت ، أما وقت مجيئه فلا شئ مجهول نظيره » . وقال القديس أوغسطينوس « إن الله أظهر حسن حكمته خاصة فى أنه أخفى عنا معرفة يوم موتنا ليلزمنا بحسن التصرف كل أيام حياتنا والالتصاق بالقداسة ، لأننا لو نحصل على اليوم الذى نموت فيه لكننا لا محالة نتقاعد عن أعمال التوبة ومباشرة الأعمال الصالحة ونؤخرها الى السنة الأخيرة من حياتنا ، ومن السنة الأخيرة الى الشهر الأخير ، ومن الشهر الأخير الى الاسبوع الأخير ، ومن الاسبوع الاخير الى اليوم الأخير ، ومن اليوم الأخير الى الساعة الأخيرة ، وهكذا نؤجل حتى نفقد خلاصنا بالكلية » ولهذا قال السيد « فكونوا أنتم إذا مستعدين لأنه فى ساعة لا تظنون يأتى ابن الانسان » (لو ١٢ : ٤٠) .

وقال الرسول بولس « إن يوم الرب كلص الليل هكذا يجيىء . لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة كالمخاض للحبلى فلا ينجون » (١ تس ٥ : ٢ و ٣) وقال الرب لملاك كنيسة ساردس « كن ساهراً وشدد ما بقى الذى هو عتيد أن يموت لأننى لم أجِد أعمالك كاملة أمام الله . فإذا ذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب فإننى إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك » (رؤ ٣ : ٢ و ٣) .

وقال المخلص أيضاً « طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وإن أتى فى الهزيع الثانى أو أتى فى الهزيع الثالث ووجدهم هكذا

فطوبى لأولئك العبيد» (لو ١٢: ٣٧ و ٣٨). كانوا فى تلك الأيام يقسمون الليل الى أربعة هزج . وعمر الانسان يشبه بالليل ويراد بالهزج الأول سن الصبوة وبالشانى سن الشبوبة وبالثالث سن الرجولية وبالرابع سن الشيخوخة فيريد المخلص أن نكون مستعدين ومستيقظين فى كل هزج أى فى كل سن ووقت من حياتنا لئلا يأتى بغته فيجدها نياما (مر ١٣: ٣٦).

إن الله لأجل خيرنا أخفى عنا معرفة ساعة موتنا وذلك لنستعد لمجيئه كل حين : وحيث أن الموت ممكن إن يجيئ فى كل مكان وفى كل زمان فالمطلوب منا أن ننتظره هكذا . قال الحكيم «لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته» (جا ٩: ١٢) قال داود عن ابنه الذى مرض وصلى لأجله «لأنى قلت من يعلم . ربما يرحمنى الرب ويحيى الولد» (٢ صم ١٢: ٢٢) فنحن لا نعلم إذا متى نموت ، ولكننا نعلم جيداً اننا لابد أن نموت .

ومع إن الجميع يعلمون جيداً أنهم لابد يموتون إلا إن ابليس ما برح يغرى الكثيرين موهماً إياهم إن الموت بعيد عنهم حتى يزيل ذكره من أفكارهم بالكلية وهكذا ترى الشيوخ الذين طعنوا فى السن ، والمرضى الذين انهكت الأوجاع قواهم يخدعون انفسهم بطول العمر وامتداد الزمن ، ولكن أيها الأغبياء . كم وكم عدد أولئك الذين شاهدناهم وجالسناهم وصاحبناهم وعلى يقين منا ماتوا غفلة بدون أن يلفظوا لنا كلمة وداع . أدرك الموت بعضهم فجأة بينما كانوا جالسين . وبعضهم بينما كانوا سائرين وآخرين بينما كانوا فى فراشهم نائمين . وبما لا ريب فيه أن أحداً منهم لم يكن يحظر بباله أنه سيموت أو يضمحل بغته على الطريقة التى مات بها .

بل وكم عدد أولئك الذين كانوا يحسبون حساب السنين المستقبلية ولم يدعهم الموت يلفظون الألفاظ الأخيرة . أمثال ذلك الغنى الغبى الذى بينما كان يحسب المستقبل قيل له « ياغبى فى هذه الليلة تطلب نفسك منك ».

فالموت أمر محقق ، والزمان الذى ينقضى أجلك فيه غير معروف ، فعليك إذا أن تكون دائماً ساهراً . وجدير بك أن تتدبر أحوالك وتجعل كل يوم كأنه اليوم الأخير لك فى هذه الحياة . كثيرون يبنون بيوتاً ولا يسكنونها وآخرون يذخرون ذخيرة السنة

المقبلة ولا يدركونها . وغيرهم يصرفون أفكارهم الى الزمان الذى لا يضمنون الوصول اليه ويتغافلون عن التأهب للموت الذى يعرفون ان لا بد منه « وإما نهاية كل شئ قد اقتربت . فتعقلوا واصحوا للصلوات . اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يحول ملتصقاً من يبتله هو » (١ بط ٥ : ٧ ، ٨ : ٥) .

فإذا كنت تفرص على الأشياء التى لا تضمنها فكيف لا تفرص على ذاتك مع علمك الأكيد بموتك ؟ لماذا تهتم بالظل الزائل ولا تبالي بالحقيقة الثابتة ؟ إن أيام حياتك غير معروف عددها ، ولكن زوالها واضمحلالها أمر لا ريب فيه ، فإذا لا تهتم بما لا تعلم حقيقته بل كن مستعداً لساعة الموت التى تتأكدوها وهى لك زائداً للطريق « كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب اليها » (جا ٩ : ١٠) .

قال سليمان الحكيم « الكل على ما للكل . حادثه واحدة للصديق وللشرير ، للصالح وللطاهر وللنجس . للذابح وللذى لا يذبح . كالصالح الخاطئ . الخالف الذى يخاف الحلف . هذا أشر كل ما عمل تحت الشمس إن حادثة واحدة للجميع وأيضاً قلب بنى البشر ملآن من الشر والحماسة فى قلبهم وهم أحياء وبعد ذلك يذهبون الى الأموات . لأنه من يستثنى . لكل الأحياء يوجد رجاء فإن الكلب الحى خير من الأسد الميت . لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون . أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نسى . ومحبتهم وبغضهم وحسدتهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الأبد فى كل عمل تحت الشمس » (جا ٩ : ٢ - ٦) ومع ذلك نجد الكثيرين ينشغلون بالملاهى مع علمهم بأن الزمن قصير . ومع أن التوعيدات رهيبه فهم معرضون عنها ويأملون إن يعيشوا مئات السنين . فإن كنت يا غيبي لأجل نوال خير زمنى تهجر النوم وتهمل تناول الطعام مخافة إن يضيع عليك الوقت فما بالك لا تطرح عنك كل اهتمام أرضى وتصرف هذه الحياة القصيرة فى ربح الحياة الدائمة .

فاجتهد وأعمل ولا تكن متواكلاً متغافلاً إذ لست تعلم زمان نهايتك فلا تنخدع وتصرف هذا الزمان فى آمالك الباطلة ورجائك الكاذب بقولك « اليوم »

أو «غداً» فربما يدركك ما أدرك العذارى الجاهلات اللواتى كان هن زمان أضعنه فى الأمل الكاذب وطلبنه أخيراً بدموع ولم يجدنه (مت ٢٥) فلا تستند على ما يأتى من الزمان ولا تلتمس عمراً طويلاً وإنما أطلب أن تكون عيشتك مرضية لله تعالى فلا تهتم بالسنين الكثيرة بل بالسنين الصالحة . ذكر الكتاب عن شاول الملك أنه «ملك سنتين» (١ صم ١٣ : ١) مع أنه ملك عشرين سنة . ذلك لأن الوحى أسقط المدة التى قضاها شاول فى شروره وارتكابه الخطايا والآثام كأنها ليست من عمره . إن كل ما تضييعه من العمر فى شرورك وأهوائك لا يحسب لك ، بل عليك .

فأسرع من الآن واعمل الصالحات ولا تؤجل عملاً منها فإن جهنم مزدهمة بكثيرين ممن أخرؤا توبتهم . أولئك الخطاة الذين باعهم الموت فى وقت تمتعهم باللذات الموهومة فهوى بهم الى قرار الجحيم حيث النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت .

فى مثل هذا اليوم من العام الغابر كان معنا أناس ، نفتش عنهم الآن فلا نجدهم ، لقد تركونا وسكنوا القبور المظلمة ، ليتهم يقومون الآن و يأتون إلينا ليعرفونا قيمة هذا الزمن الذى نصرفه فى الاهتمام بالباطيل كم يتهدون الآن على كل دقيقة لم يصرفوها فى عمل ما يرضى الله ، ليت أحدهم يقوم فينا خطيباً ليشرح لنا غباوتنا فى التهاون و يرينا أنه لو أتيح له الرجوع الى العالم مرة أخرى لما ترك دقيقة واحدة دون أن ينققها فى عمل يتمجد به اسم الله .

فما أجهل الذى يؤجل عمل اليوم الى الغد . إن أهل نينوى يعطون درساً بليغاً للمتغافلين ، فانهم حينما سمعوا الانذار بهلاك مدينتهم بعد أربعين يوماً لم يقولوا لنصبر حتى آخر يوم وحينئذ نتوب بل اسرعوا بالتوبة . فمن يترك نفسه خاطئاً على أمل التوبة بعد حين أشبه بمن يحاول أن يرقص على قم هوة عميقة ، أو بمن يريد أن يجرب فعل السم فيشرب منه قليلاً ، أو بمن يدوس على الشوك ليعرف مقدار ألمه كثيرون يخاطرون باللعب والانهماك فى اللذات وهم على باب القبر وعلى قم الهاوية .

إن الآخرة معلقة بدقيقة واحدة ويظن الأغبياء أن هذه الدقيقة هي دقيقة الموت فقط فيصرفون دقائق حياتهم في خدمة العالم منتظرين دقيقة الموت ليتوبوا فيها . ولعمري أنهم حقاً جهلاء إذ يظنون إن خلاصهم الأبدى يتم بسهولة بدون احتباس بينما الرسول بطرس يقول « لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الأخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين » (٢ بط ١ : ١٠) ويقول الرسول بولس « تمسوا خلاصكم بخوف ورعدة » (فى ٢ : ١٢) وإذا قارنا بين حال أولئك الذين عاشوا يقاومون عواطفهم الجسدية وجاهدوا جهاداً عنيفاً ضد العالم ، وحالنا نحن الذين نعيش عيشة التنزه والتبرج فهل نعتبر أنفسنا مسيحيين والصوت الإلهى يقول « إن كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخاطى أين يظهران » (١ بط ٤ : ٨) .

إن الله لا يجب إن يرانا فى حالة الإهمال ولذلك لا يفتأ يبين لنا عظم خطر هذه الحالة وكيف أن سيوف الموت مسلولة فوق رقابتنا وسهامه الملتبته الحادة مسددة الى صدورنا . فعليك إذاً أن تحاسب نفسك على تصرفاتك فى أيام حياتك قبل أن يحاسبك عليها الديان . هل هيأت نفسك واعدت ذاتك ؟ أمامك هذا الوقت فهو كاف لأن تصلح فيه أمورك لا تهتم بالغد لأن الغد ليل بهم لا تعلم ما هو غمنا فيه . إذا كان لك دين على أحد أفلا تسرع لتقاضيته مخافة أن تموت فيضيع مالك ؟ فلماذا لا تحرص هذا الحرص على نفسك ؟ ولماذا لا تقول « يجب على أن أتوب الى الله فربما أموت حالاً إذ الموت والحياة فى يد الله » أليست نفسك ذات قيمة فى نظرك كالدرهم والدنانير ؟ ألم نسمع قول السيد له المجد « لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (مت ١٦ : ٢٦) فلو كان لديك كل غنى العالم ولكنك خسرت نفسك فأنت فقير وبائس . ولكن إذا ربحت نفسك وكنت مجرداً من كل غنى ومجد عالمى فأنت سعيد وغنى .

تدبر فى نفسك تفهم لماذا أخفى الله عنا معرفة يوم الموت ؟ ذلك لكى نكون على الدوام متذكرين انقضاء حياتنا وزوالها ولكى نتوقع الموت كل حين . وهذا التوقع يجعلنا إن نحفظ أنفسنا من الزلل وإن ننظر الى العالم كشئ زائل ، وهوذا الكتاب ينهنا لماذا تتغافلون . قائلاً هل انكشفت لكم أبواب الموت أو عاينتم أبواب ظل الهاوية ؟ (أى ٣٨ : ١٧) .

كتب شيشرون عن ديونيسيوس انه لما سمع أحد رجاله المدعو ذيموكليس يغبط أصحاب الأبحاد والأموال أراد أن يوضح له كم يعانى هؤلاء من الشقاء والتعب فأمر اعوانه أن يهينوا كرسياً من ذهب يحيط به الخدم بلباس بهى ثم أوعز الى ذيموكليس أن يجلس على الكرسي وأمر العبيد أن يكونوا طوع أمره ثم نصب أمامه مائدة ملكية فاخرة وأخذ ذيموكليس يأكل ويشرب ويطرب ويمجد نفسه لأنه استحق أن يتمتع ولو ساعة بما يتمتع به أصحاب التيجان . وحينئذ رفع وجهه الى فوق فرأى سيفاً قاطعاً ماضياً معلقاً بخيط دقيق فوق رأسه . ففى الحال تغير وجهه وجهد الدم فى عروقه وأخذته الرعدة ولم تكن المناظر الجميلة المحيطة به كافية لأن تنزع الخوف من قلبه ولم تبق له عينان تنظران شيئاً سوى السيف المعلق فوق رأسه ومن ثم طفق يستغيث الى الملك ليأذن له بالفرار والخلاص من ذلك الكرسي كرسى السعادة لأنه لا يريد أن يكون سعيداً . وهذا يشبه حالتنا نحن فسيف الموت معلق على الدوام فوق رؤوسنا . ونحن معرضون فى كل دقيقة لسقوطه علينا فيجب ان لا نجعل الشره يستولى علينا لتلذذ بأطعمة الدنيا وننسى سيف الموت الحاد « بل عظوا أنفسكم كل يوم مادام الوقت يدعى اليوم لكى لا يقضى أحد منكم بغرور الخطية » (عب ٣ : ١٣).

كتب المستر فرنك كرين يقول « إن أحسن ما تجده فى هذه الحياة هو يومك الحاضر . انه كنز عجيب وجوهرة نادرة وكلاهما لك وحدك دون سواك . إن الزمن لا ينقسم الى ثلاثة أوقات . الماضى والحاضر والمستقبل . بل هو قسم واحد لا غير ، هو « الآن » وانك تستطيع أن تفعل أى شئ إذا عمدت اليه فى يومك الحالى .

وذكر على سبيل المثال : قال النهار للإنسان « تعال معى ودعنا نعمل الأعمال سوية » فأجاب الإنسان « اية أعمال ؟ » أجابه النهار « الأعمال الجميلة » فصديقك مريض وزيارة منك تخفف عنه آلامه . وشقيقك فقيرة وحزينة وهمها أن تسأل عن حالتها وتأخذ معك بعض الهدايا لأولادها اليتامى . وأخوك تائه فى الغابة التى كنتم تلعبان فيها وأنتما صغيران وربما أمكنك أن ترشده الى الطريق و... » فقطاطعه الإنسان وقال له « هذه أعمال أريد أن أعملها مع غيرك فى المستقبل وأما أنت فتعال وأجلس هنا بجانبى فانى أريد أن تساعدنى على الحصول

على ٥٠٠٠ جنينه ، فجلس النهار بجانبه ومرت عليها الساعات الى أن دنا وقت رحيل النهار، فهب قائماً وقال للانسان « استودعك الله » فرد عليه الانسان قائلاً « مع السلامة . لماذا تنظر الى هذه النظرة الغريبة ؟ سأقوم بكل ما أمرتني به مع أحد اخوتك » فقال النهار « لم يبق لى إخوة » وتركه ومضى . ولدى خروجه من الباب التقى بالليل داخلاً على الانسان .

إن من أراد الدخول فى النهار الى مدينة محاصرة وبيده تذكرة مرور يفتح له . أما إذا تأخر الى الليل فإنه يمنع من الدخول ولو كرر قرع الباب . هكذا من قرع باب مدينة أورشليم فى مساء عمره فلا يفتح له . قال المرتل « يعودون عند المساء يهرون مثل الكلب .. أما أنت يارب فتضحك بهم » (مز ٥٩ : ٦ و ٨).

قيل أن أحد المصورين كان ماهراً جداً فى الرسم إلا أنه عندما كان يريد رسم انسان كان يبتدىء برسمه من القدم وكان يتفق أحياناً أن القماش لا يكفى فتبقى الصورة بدون رأس أو برأس غير كامل . هكذا نرى كثيرين يبتدون خدمتهم من القدم أى بعمل الأمور الزمنية تاركين الرأس أى أعمال التوبة الى آخر حياتهم . قال الرسول بولس « فانظروا كيف تسلكون بالتدقيق لا كجهلاء بل كحكماء مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة » (اف ٥ : ١٥ و ١٦).

الفصل التاسع عشر

فى وجوب اغتنام الفرصة

« هذا وانكم عارفون الوقت انها الآن ساعة لنستيقظ من النوم . قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلفكم

أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور » (رو ١٣ : ١١ و ١٢)

كان أحد الوعاظ يتأمل فى قوله « هوذا الآن وقت مقبول هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦ : ٢) استعداداً لعظة يلقيها فى الكنيسة فنام ورأى فى حلم أنه حمل الى جهنم وشاهد الشياطين مجتمعين يتآمرون على طريقة يقودون الناس بها الى جهنم فقال شيطان : أرى أن نجول ونسوس فى صدور الناس بأن الكتاب المقدس حديث خرافة وأن دعوى الوحي من أباطيل الأوهام . فقال شيطان آخر « وما فائدة ذلك والناس يؤمنون بوجود الخالق ؟ فلنبذل الجهد فى أن نقنعهم بأن لا وجود لاله ولا مخلص ولا نعيم ولا جحيم فيفعلون ما يشاءون . فقال آخر : ان ذلك لا ينفع لأن الله طبع هذه الأمور على قلوبهم وكتبها على صفحات ضمائرهم . فقام من بينهم شيطان مارد وقال : كل ذلك لا ينفع والأوفق عندى أن نطوف كل الأرض ونترك الناس يعتقدون بوجود الخالق والمخلص ونقول لهم انه سيكون جزاء وعقاب ولكن لا داعى الى الاسراع الى التوبة ثم نجهد فى تأخير توبتهم من يوم لآخر ، وكلما عزموا على التوبة نخرضهم على التسويف فيها ونطمعهم فى رحمة الله وهكذا حتى يموتوا فى خطاياهم . فسر ابليس وكل جنوده بهذه الحيلة الخبيثة وتفرقوا فى كل مكان يخدعون الناس بها .

وفى الحقيقة ان هذا الخداع قد أضل كثيرين فأجلوا توبتهم من يوم الى آخر حتى جاء الموت واختطف نفوسهم الى الجحيم . ولنلاحظ أن أكثر سكان الجحيم

ليسوا من الكافرين بل ممن انخدعوا بهذه الغواية . لقد قال أحد الحكماء « ان الهالكين برحمة الله أكثر من الهالكين بعدله » فاحذر أيها القارئ العزيز من هذا الشر العظيم واعلم أنك لا تعرف ما يأتي به الغد . ربما يأتي وتكون قد فارقت الحياة فاسمع اذن صوت الرب « اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٤ : ٧) .

قال أحدهم تحت عنوان « الغد لا يأتي أبداً — هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦ : ٢) قد قيل ان طريق جهنم معبدة بالنيات الحسنة . الناس يقصدون أن يخلصوا ولكن ليس الآن بل يترقبون وقتاً أكثر مناسبة . يظنون أن الغد يأتي حالاً ولكنهم ينسون أن غداً لا يأتي أبداً . ان الغد اما أن لا يشرق واما أن لا يغرب على أحد . أما اليوم فهو كل ما لنا . هو الوقت المقبول . من يستطيع أن يخبر ماذا يكون في الغد وأين نكون نحن حينئذ . ربما تكون أيها المتغافل رافعاً عينيك في العذاب وصارخاً طالباً نقطة ماء لتبرد بها لسانك المعذب من اللهب فلا يعطيك أحد .

ان فرعون ملك مصر لما قال له موسى متى أصلى من أجلك لترفع عنك الضفادع قال له غداً « مع أن الضفادع كانت تعذبه (خر ٨ : ٩) وهذا شأن الكثيرين من الذين أحاطت بهم الشياطين ومحاولة سلب نفوسهم فاذا سألتهم متى تعزمون أن تنجوا بحياتكم فانهم يقولون لك « غداً » ولكن هيات أن يحصلوا على هذا الغد .

ان والدة نيرون إذ أرادت أن تردعه عن بذخه المفرط جاءت يوماً وهو يب رجلًا ثلثمائة ألف قرش وبسطت ذلك المبلغ على الأرض قطعاً متفرقة لكي يبصر بعينه مقدار العطية المتجاوزة الحد . ليت الذين يقولون « غداً » يعرفون كم غد مر عليهم وهم عنه غافلون .

قال أحدهم : « ما أعظم قيمة الزمن ؟ كيف لا ونحن إذا تصرفنا به حسناً حصلنا على الله نفسه » وقال القديس أوغسطينوس « إن الأبدية عينها لو صرفت كلها في التوبة لما كانت طويلة بالنسبة لما يمتلكه الانسان من الخير بها » قيل إن انساناً صرف حياته في نسيان الله تعالى وارتكاب المآثم فاعتراه داء عضال ذات

ليلة ، فصرخ حينئذ قائلاً « اللهم امتحنى بعض دقائق من الزمان ، أطل يارب حياتى الى غد » فلم يحصل على ذلك الزمان اليسير ليرتب أمر نفسه ويحاسب ضميره بعد أن كان قد أضاع أياماً كثيرة وفرصاً عديدة بغير أن يسعى فيها للخلاص .

فن ثم يجب أن نحترس جيداً ولا نخدع أنفسنا إن لنا عمراً باقياً نتوب فيه ، فكم من كثيرين أجلوا توبتهم ارتكائاً على أنهم يتوبون فى المستقبل ولكنهم ماتوا فجأة . ومن المؤكد أنه ولا واحد منهم كان يفكر إن الموت سيدركه بغتة . لا يغرنك الشيطان ويحرضك على فعل الشر وهو يقول لك « افعل هذه الخطية الآن ثم اندم عليها غداً » بل يجب عليك أن تجاوبه قائلاً « من يعلم أن هذا اليوم ليس هو آخر أيام حياتى ، وإن لحقنى الموت أثناء ارتكابى هذا الشرفأى ويل وأى تعاسة يحلان بى ؟ » وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب يقول « اطلبوا الرب ما دام يوجد . ادعوه وهو قريب » (اش ٥٥ : ٦) .

قال سليمان الحكيم « لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته . كالأسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة وكالغصافير التى تؤخذ بالشرك كذلك تقتنص بنو البشر فى وقت شر إذ يقع عليهم بغتة » (جا ٩ : ١٢) فهذا الزمان الذى نحن فيه هو أثنى شئ لدينا ويجب أن نقدره حق قدره فهو كنز عظيم إذا ضاع منا فليس من الممكن أن نستعيضه . وسيكون هذا الزمان موضوع نوحنا وندبنا فى جهنم حيث نقول « أواه من يعطينا ساعة واحدة من الزمن لكى نتوب فيها ونرجع الى الله » هذا الزمان الذى نستخف به الآن عتيد ان يكون شيئاً مشتهى . ولكن لا يناله أحد . فلا ندع فرصة تمر علينا قبل أن نصلح فيها خطائنا ونستغفر الله على ما أثمنا به ونتوب توبة صادقة نقية صادرة من كل القلب « مفتدين الوقت لان الايام شريرة » (اف ٥ : ١٦) .

لننهض من رقة تعامينا ولنفتح أبصارنا لنرى كيف قضينا السنين الغابرة من حياتنا ونندم على ما فات ونعقد النية ونوجه العزم الى اصلاح الخلل وتدارك أمور النفس قبل فوات الفرصة ولا نعيش الزمان الباقي فى الجسد لشهوات الناس بل

لارادة الله (١ بط ٤ : ٢) .

ان الزمن الذى نحن فيه ثمين ولم يعط لنا إلا لنصرفه فى تقديس نفوسنا وجعلها صالحة بين القديسين فى مقام الابراز والصديقين . انه زمن مجهول المقدار لا نعرف هل نحن فى وسطه أو فى منتهاه ؟ فمن الممكن أيها الانسان أنك لا تكون فى الغد بين الأحياء ، ولا بين اخوتك وبنيك وأصدقائك ، ولا فوق الأرض التى ملكت . ولا فى البيت الذى بنيت . ولا أمام المال الذى جمعت بل بين ألوف من الديدان وبقايا من العظام النخرة فى حفرة مظلمة ضيقة . وربما يكون جسدك فى هذه الحفرة ونفسك فى حفرة أعمق منها . تراها الجمر المضطرم وحيطانها اللهب المحتدم . وها الرسول بطرس ينهينا قائلاً « سيروا زمان غر بتكم بخوف » (١ بط ١ : ١٧) .

البدار البدار أيها المسيحى العزيز الى انتهاز الوقت وصرفه فى تقوى الله وكسب نعمته ورضاه . سيروا أيها المسيحيون فى النور مادام لكم نور الزمان فسوف يأتىكم ليل الأبدية الذى لا تستطيعون فيه أن تسيروا خطوة واحدة بل تقفون فيه عند الحد الذى بلغتموه فى نهار الزمان . سيروا مادام بيدكم مصباح الحياة الى أن تبلغوا أبواب الفردوس حتى إذا هبت ريج المنون واطفأت مصباح حياتكم تدخلون الجنة بسلام آمنين « لأن زمان الحياة الذى مضى يكفينا لنكون قد عملنا ارادة الأمم » (١ بط ٤ : ٣) .

أعتبر أيها الانسان ان ندامتك ستكون أبدية ما لم تنتهز فرصة هذه الحياة لتكتسب ملكوت السماء . ليت شعرى ماذا يكون مقدار حزنك لما ترى انه كان يمكنك بقليل من الاجتهاد فى زمن الحياة أن تريح هذا الملك السماوى الذى خسرتة لأجل لذة وقتية . ما كان أشد غيظ عيسو وما كان أمر أسفه لما استفاق ورأى أن أخاه الصغير قد اكتسب بكوربته التى باعها بأكلة عدس . فقد كان يتنهد ويبكى وينتحب ، وهكذا سيكون مصيرك أنت يا من بعت ملكوت السموات لأجل خيرات وقتية زائلة .

قل لى يا من تؤجل توبتك متكللاً على الرحمة الالهية من أين تعلم أن هناك سيعطى لك زمان لتتوب فيه ؟ كيف تؤجل وقت التوبة مع كوننا نراك تسرع فى جمع الأموال وارتكاب الشرور ؟ كيف تسرع الى قضاء الامور العالمية بهذا المقدار وإذا طلب منك عمل صالح فلا نسمع منك إلا لفظة « غداً » مع أن المرتل يقول « أسرع ولم أتوان لحفظ وصاياك » (مز ١١٩ : ٦٠) .

ان علة هلاك معظم الناس هو أنهم يتوانون عن التوبة والعمل الصالح عقب سماعهم كلمة الله ، والرب يقول « تأتى ساعة وهى الآن » (يو ٤ : ٢٣) وذكر عن القديس انطونيوس أنه دخل الكنيسة يوماً فسمع فصل الانجيل يقال فيه « يعوزك شئ واحد . اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملاً الصليب » (مر ١٠ : ٢١) فأطاع فى الحال ووزع ماله على المحتاجين وقضى حياته فى البرية لا يملك سوى قوت يومه .

ان الكتاب قد حدد وقت الرجوع الى الله بقوله « فالله الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل » (اع ١٧ : ٣٠) وذلك لأن الرجوع الى الله حالاً هو حسن ومضمون لخلاص النفس ، والله نفسه يطلب رجوعنا بقوله « ارجعوا عند توبيخى . هاأنذا أفيض لكم روحى . أعلمكم كلماتى » (ام ١ : ٢٣) وقال لزركا « أسرع وانزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك » (لو ١٩ : ٥) وقد حصل أن كثيرين رجعوا حالاً عندما تأثروا من سماع الكلمة فنالوا الخلاص كيشوشيا الملك الصالح والسامرية وزركا والخصى وكريئيلوس والسجان ولكن للأسف الشديد نرى كثيرين يؤجلون الوقت خادعين ذواتهم .

كثيراً ما يعزم انسان على التوبة ولكنه يؤجل حتى ينتهى من بعض المسائل التى تعيقه . وأخر الى أن يتفرغ من عمل يباشره . الحال إن أعمال الدنيا ومشاغلها لا انقطاع لها ، ومسائل الحياة لا تنتهى قط . والتوبة لا دخل لها ويجب أن لا تتوقف على مثل هذه الأمور . فمن ينتظر أن يتوب حتى ينتهى من أمور الحياة أشبه بانسان يكون قاصداً أن يعبر نهراً وإذا يجد السفينة صغيرة وأمواج النهر تلعب بها يخشى ويخاف من العبور وينوى فى نفسه إن ينتظر حتى ينقطع مجرى النهر ويعبره بأقدامه ، ولكنه

باطلاً ينتظر لأن النهر لا يببس ، وهو تبعاً لذلك لن يصل الى الشاطئ الثانى فتنتضى حياته دون أن يبلغ غايته . وهكذا مسائل الحياة لا تنتهى وأعمال الدنيا لا تفرغ حتى خروج الروح . ولو فرضنا أن مجارى النهر تنقطع فإن شوق الانسان الى العالم لا ينقطع ومحبه هذه الحياة لا تحف . فكف سمعنا عن أناس كانوا وهم فى حالة المرض الشديد بل وفى وقت الاحتضار مشغولين بأمر الحياة و يسألون عنها باهتمام !

كم هى المدة التى يضعها الكتاب أمامنا للتوب فيها ؟ « انكم عارفون الوقت أنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم » (روم ١٣ : ١١) كما أنه يوجد تهديد للناس بأن الموت يأتهم بغته (رؤ ٣ : ٣) . قال أستاذ لتلاميذه « يجب أن تتوبوا قبل الموت بيوم » فأجابوه « ومن يعلمنا بيوم الموت ؟ » فقال لهم « إذاً توبوا من الآن » .

فى مستقبل العمر ونضارة الشباب يقول الانسان لنفسه لا أتقيد من الآن بالدين وأضيق الخناق على نفسى فحينما تأتبنى الشيخوخة حينئذ أتوب . ولكن هل الحياة مضمونة للشبان كم من الشبان ماتوا فى فجر حياتهم ؟ اذهبوا الى القبور واسألوها عن ضمتهم بين جوانحها فتجيبكم « انى أضم الناس من كل طبقة ومن كل سن فلا فرق عندى بين شيوخ وشبان وأطفال ورجال ونساء ، الكل عندى على حد سواء »

أيها الانسان : لا يغرنك كون سراج حياتك وهاجاً مستدلاً بذلك على أن فيه زيتاً كثيراً فلا ينطفئ إلا بعد زمن طويل . لأن مقدار الزيت الذى فيه لا يعلمه إلا الله وحده وفضلاً عن ذلك فإن سراج الحياة يظل مضيئاً بكثير أو بقليل من الزيت حتى ينطفئ انطفاء لا نور بعده .

قال أحد الحكماء : إن مثل الدنيا كالسفر فى الطريق أوله المهد وآخره اللحد وفيما بينها منازل متعددة وكل سنة كمزلة . وكل شهر كفرسخ . وكل يوم كميل . وكل نفس كخطوة . والناس يسىرون فيه متسابقين فالبعض يقطعون كل الطريق ، بينما يكون باقياً لغيرهم منها فرسخ أو أكثر أو أقل .»

ان المسابقة لانتهاز الفرصة حالاً لى من أهم الأمور الدينية . إن كثيرين يتسابقون فى الاعمال الدنيوية التى تمهم قبل أن يدركهم الموت ولكنهم لوماتوا قبل أن يتمموا أعمالهم هذه فلا حرج عليهم إنما يجب أن يسرعوا فى اتمام التوبة لأنهم إذا ماتوا بدون توبة قضى عليهم بسجن الهاوية أما التائبون توبة حقيقية فلا يهلك منهم أحد .

إذا كان روح الله قد أثر فيك وأنت تسمع صوته تعالى بوجوب التوبة فانهض إليها بعزم القلب فى نفس هذه اللحظة لتنال نعمة الخلاص بالمسيح قبلما تذهب الفرصة منك .

أقيم قديماً بالمدين اليونانية تمثال كتب عليه شعربصورة محادثة بينه وبين أحد المارة تشرح المغزى من اقامة هذا التمثال .

واليك المحادثة :-

« ما هو اسمك أيها التمثال ؟ »

« يدعوننى الفرصة »

« ومن صنعك ؟ »

« ليسيبوس »

« ولماذا أنت واقف على أطراف أصابعك ؟ »

« لأرى الناس اننى لا أبقى إلا دقيقة واحدة . »

« وما هى الأجنتة التى على قدميك ؟ » .

« لأرى الناس كيف أمر بسرعة »

« ولكن لماذا هذا الشعر الطويل على جبهتك ؟ » .

« لكى يقبض على الناس حينما يروننى . »

« إذا ما سبب صلع رأسك من الخلف ؟ »

« لأرى الناس اننى إذا مررت مرة فلا يمكن اعادة القبض على »

« فإذا حسبنا لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع » (غلا ٦ : ١٠)

وبما أنه ليس للناس مدة ثابتة يضمنون فيها البقاء فى هذه الحياة فيجب عليهم أن يبادروا الى التوبة بدون تأخير . لا تؤجل توبتك لئلا يأتى وقت يقفل فيه باب التوبة وتكون كالذين عزموا على السفر فى البحر ولكنهم يهلون أخذ طعامهم معهم ولا يفتنون الى ذلك إلا بعد أن يعرضهم الجوع بأنياه إذ يكونون قد ابتعدوا عن بلادهم ولا يمكنهم الرجوع اليها فالإنسان إذ ينصرف من هذه الدنيا لا يوجد له هناك مجال يشتري فيه زيتاً ، هذا فضلاً عن إن الاسواق جميعها تكون قد أقفلت .

إن الإنسان لا يعلم إن كان يعيش الى الغد أم لا ومع ذلك يهمل التوبة مؤملاً أن يتوب فى المستقبل . إن من يرث مالاً وافرأ لا جناح عليه إذا انفق منه شيئاً . إما الذى ليس له سوى قوت يومه فلا ينبغي له أن يذر ما هو محتاج اليه . فهذه الحياة ليس لك فيها نصيب ولا يوم واحد . فلماذا تتوقع العام المقبل لتتوب ؟ وكيف تعد نفسك يا عزيزى بسعة الأيام وطول الأعوام وأنت فقير من الزمان افتقاراً كلياً ولا تملك منه شيئاً حتى ولا ساعة واحدة ؟ فلا يخدعك هذا الزمان ولا تعش مغروراً فانك فقير ومسكين . ربما فى هذا اليوم تحرم من هذه الحياة وتندم بشدة لأنك اضعتها هدرأ . لا تعد نفسك بطول العمر فهذا الأمل قد أهلك الكثيرين .

إن الله يريد أن ترجع اليه فى هذه اللحظة لأنها كافية لتوبتك ، فلا تنتظر الغد بل اهتم باليوم لأنه يقول « فى وقت مقبول سمعتك وفى يوم خلاص أعنتك » (٢ كور ٦: ٢) .

الفصل العشرون فى قيامة الأموات

« إن كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت ». (٢ كوه ١ : ٣٧)

عقيدة قيامة الأموات أسس العقائد المسيحية وعليها تتأسس هذه الديانة لانه إذا بطل رجاء القيامة بطل رجاء الخلاص ورجاء السعادة الأبدية ، والحق أنه إن كنا نموت موت البهائم فخير لنا أن نحيا حياتنا ونتمتع بكل مشتتات الدنيا . ومثل هذا القول خلاصة أقوال الفلاسفة الالبيكوريين . ولكن اعتقاد القيامة الذى يحسبه أعظم الفلاسفة من اقطع ضروب الجهل هو ركن رجاء المؤمنين وسرورهم ، وما كان موضع الهزء والسخرية فى أريوس باغوس (أع ١٧ : ١٩) هو موضوع ترانيم النصر للمسيحى فى ساعة الموت وعند دخوله السماء .

قال أحد الملحدين « الغاية الوحيدة من الوجود على وجه الأرض هى التلذذ والتنعيم . هنا السعادة الحقيقية . وما وراء الستار وما بعد الحياة كذب وخداع لا وجود له » فقالت أم فقدت وحيدها « سيدى : كان لى ولد وحيد كان عزى وفخرى وموضوع أفراحي وآمالى فقدته ، فإذا كان حقيقة كما تزعم إن السعادة على وجه الأرض فقط ولا وجود لها بعد الحياة فكيف يمكننى أن أفرح بعد وفاته وأتتعيم بالحياة إذا لم أكن على يقين من أنى سأراه يوماً فى جنة الخلود وأمتع العين برؤياه .

لا يزال كثيرون يصرحون بأن الموت نهاية الحياة وأن من يموت يعود الى عناصره الأولى فيختلط بعضها بالهواء وبعضها بالماء وبعضها بالتراب ويصير بعض هذه الأجزاء نباتاً وبعضها حيواناً ، ويستبعدون ان يقوم الجسد بعد ذلك ويرجع كما كان . وهذا جهل عظيم بقدرة الله الذى يقول عن نفسه « هل يستحيل على الرب

شئى « (تك ١٨ : ١٤) .

وحقيقة الخلود والقيامة وان تكن روحية فإن لنا فى ظواهر المادة وحالاتها ما يبرهن لنا هذه الحقيقة و يقرها من الادراك والتصديق ، فإذا كان الانسان فى استطاعته أن يصنع أوراقاً لامعة شفافة من خرق بالية . وأن يصنع من الرمل زجاجاً وبلوراً . وإذا كنا نرى الأشجار تفقد خضرتها ثم تعود اليها ، والفصول الاربعة يعود كل منها بعد ذهابه . والبذرة بعد أن تلقى فى الأرض وتموت تنبت نباتاً جيداً حسناً . فهل بعد ذلك يعجز الله عن اقامة جسد الانسان حياً كما كان وهو هو الذى سبق وأوجد هذا الجسم من العدم .

قال السيد المسيح « الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها . ولكن إن ماتت تأتى بشمر كثير » (يو ١٢ : ٢٤) فالبذرة إذاً فى موتها لم تتلاشى بل استعدت للتغير من حال الى حال . هكذا أمر موت الانسان فإنه ينقل من هيئة الى هيئة وهو هو بعينه . إن شجرة البلوط الكاملة تختلف فى الهيئة والصفات عن البذرة التى نشأت منها ولكن حياتها هى نفس حياة البذرة . قال القديس أوغسطينوس « إذا كان ممكناً أن يزيد فى الحبة جرماً لم يكن فيها قبلاً أفلا يستطيع فى القيامة أن يعيد ما كان فى جسد الانسان » .

حيثما ينتهى سفر السائح فى هذا العالم يموت ليعيش فى عالم أفضل . ليس الموت إلا انتقال . ليس الموت طى الجناحين بل اعدادهما لطيران أطول . والموت ليس الاصطدام بصخر مخفى بل هو دخول سريع الى فرصة ظاهرة للعيان .

يحكى أن ابنة صغيرة كانت تجول فى حديقة حول بيت أبيها فرأت عشا فى شجرة قريباً من الأرض فنظرت وإذا فيه أربع بيضات منقوشة نقشاً جميلاً كما يكون بيض العصفير عادة فأسرعت وأخبرت أمها بما رأت ، واتفق أنها ذهبت فى اليوم التالى لزيارة بيت عمها وبقيت عندهم أسبوعين ثم عادت الى بيتها وأول شئ فعلته أنها دخلت الى الحديقة لترى العش فلم تجد فيه البيضات بل وجدت قشورها . فحزنت لذلك وذهبت تخبر أمها بالأمر والدموع مل عينها . فقالت لها أمها لا تحزننى يا عزى يزتى فإن أفضل شئ فى تلك البيضات قد خرج وطار الى فوق

والذى بقى منها إنما هو قشورها التى لا فائدة منها . وهذا شأن أجسادنا نموت فتخرج أرواحنا وتذهب الى خالقها وتبقى تلك الرمم الفانية . وقد أدرك المصريون الأقدمون هذه الحقيقة ومثلوها على هذه الصورة فانا نجدهم فى نقوشهم وصورهم يمثلون الميت ملقى على سريره ونفسه خارجة من جنبه فى شكل طائر .

وقد دعيت القيامة قيامة الأجساد خوفاً من أن يظن أحد أن النفس تموت مع الجسد لان النفس خالدة لا يمكن ان يتسلط عليها فناء .

وقال الحكيم عن كيفية موت الانسان « فيرجع التراب (الجسد) الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) أما أين تكون النفوس بعد الموت فقد ذكر الكتاب أن أرواح الأبرار تكون بعد الموت فى الفردوس مع المسيح لتأخذ عربون السعادة والمجد (مت ١٧ : ٣ ، لو ١٦ : ٢٢ ، ٢٣ : ٤٣ ، يو ١١ : ٢٦ ، ١٤ : ٣ ، ١٤ : ٢ ، كو ١ : ٥ - ٨ ، فى ١ : ٢٣ ، ١ تس ٥ : ١٠) ونفوس الاشرار تحفظ فى سجن الظلام الى حكم اليوم العظيم (لو ١٦ : ٢٣ ، ١ بط ٣ : ١٩ ، ٢ بط ٢ : ٩ ، يه ٦ و ٨) أما مكافأة النفس النقية بالوجود فى السماء ومجازاة النفس الشيعسية بالطرح فى جهنم ، فلا يكون إلا بعد أن تلبس النفوس أجسادها : لأنه عدل هو أن تكافأ النفس فى الجسد الذ أحسنت فيه وتجازى النفس فى الجسد الذى أساءت به . فالعيون التى منعت نفسها من التلذذ بالمناظر العالمية والألسنة التى أبت أن تتذوق الدنيا ، والآذان التى حرمت ذاتها التمتع بأصوات هذا الوجود ، هى التى ستفوز بكل سعادة العالم الآخر ، أما الأعين الشريرة والأفواه الكاذبة والأعضاء الفاسدة فلا بد أيضاً أن تجازى بكل شقاء فى الحياة الآتية ولا يكون ذلك للنفس وحدها أوللجسد وحده بل للنفس إذا لبست جسدها ، اما قبل القيامة فكلاهما محفوظة لتلك الساعة .

ففى هذا العالم لا تقوى النفس على اتيان أى أمر بدون الجسد فهو الآلة التى تتمم كل شئ ، والنفس والجسد كلاهما فى ارتباط كللى لا يدرك . هكذا بعد انفصال النفس عن الجسد بالموت تعود اليه بالقيامة لتسأل عن جميع أفعالها وتجازى عليها . ليس من العدل أن تكافأ النفس دون الجسد لأنه هو الذى قاسى المشقات

وقام بخدمتها إذا كانت صالحة فقد تعب وجاهد فى احتمال الأتعاب والأسهار والأصوام فيجب إذاً أن يشارك النفس فى أمجادها . وإذا كانت النفس غير صالحة فالجسد هو الذى سقط فى الرذيلة وتمتع بالشهوات وتلذذ وشبع وينبغى أن يشارك النفس فى عذابها . قال السيد المسيح « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدر أن يقتلوا . بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (مت ١٠ : ٢٨) .

فلا بد إذاً من القيامة ليأخذ كل واحد نصيبه كما قال ابراهيم للغنى « اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك وكذلك لعازر البلىا والآن هو يتعزى وأنت تتعذب » (لو ١٦ : ٢٥) إن ما نراه فى هذا العالم كثيراً ما يدهشنا ويحاول إن يفشلنا . نحن عندما نرى الرذيلة قائمة والفضيلة مكسورة الجناح . نتألم عندما نرى الأفاضل محترقين والأراذل ممجدين . فلا بد إذاً من قيامة يخرج بعدها الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين فعلوا السيئات الى قيامة الدينونة (يو ٥ : ٢٨ و ٢٩) نعم لابد من قيامة فيها تتمجد الفضيلة وتندحر الرذيلة ، ويتمتع الأتقياء ويتعذب الأشرار .

أما الكيفية التى تقوم بها الأجساد فقد سئل عنها الرسول بولس « كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ؟ » فأجاب « ياغبى الذى تزرعه لا يحيا ان لم يموت ، والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقي ، ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد ... هكذا أيضاً قيامة الأموات ، يزرع فى فساد ويقام فى عدم فساد ... لان هذا الفاسد لابد إن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت » (١ كور ١٥ : ٣٥ — ٥٣) .

فالقيامة إذا تغيير وليست استحالة . والجسد المقام يشابه الجسد الذى يموت من بعض الوجوه وإلا يكون العمل خليقة وليس قيامة . وإذا كنا ننكر مشابهة الأجساد الطبيعية للأجساد المقامة مشابهة خاصة فاننا ننكر القيامة نفسها ولكن يوجد فرق بين المشابهة الخاصة والمشابهة المطلقة الكلية لأن هذه يتحتم بموجبها أن كل ذرة دقيقة فى الجسد المائت ينبغى أن توجد فى الجسد المقام ويمكننا أن نوضح ذلك بملاحظة

الفرق بين جسد الانسان وقت الطفولية وجسده وقت الشبوية وجسده وقت الشيخوخة فع أنه يختلف عن بعضه فى هذه الأعمار إلا أنه هو الجسد بعينه لم يتغير بغيره ، فالجسد المقام إذاً يكون جسداً ولكن ليس فى صورته الطبيعية إذ أنه يمنح عدم الفساد والخلود والروحانية ليكون مناسباً للعالم الأبدى ، فلا يقوم الأعمى أعمى ولا الأعرج أعرجاً ولا الضعيف ضعيفاً بل يقوم الكل أصحاء كاملين .

ولكن ما أعظم الفرق الذى سيكون بين أجساد الابرار وأجساد الأشرار التى تقوم ، وباله من اختلاف جسم بينهما . قال دانيال النبى وكثيرون من الرافدين فى تراب الارض يستيقظون هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار للآزدرء الأبدى ، والفاهمون يضيئون كضيء الجلد والذين ردوا كثيرين الى البر كالكواكب الى أبد الدهور» (دا ١٢ : ٣ و ٢) فيقوم الأبرار بأجساد بهية لامعة لا تحس بأى تعب أو شقاء لن يجوعوا ولن يعطشوا ولا تقع عليهم الشمس ولا شئ من الحر (رؤ ٧ : ١٦) ولن تسود عليهم الشهوة لأنهم يكونون كملائكة الله (مت ٢٢ : ٣٠) ولا يكون جسدهم بعد لحماً ولا دماً (١ كو ١٥ : ٥٠) والفخر الاعظم والوعد الاكمل أنه سيكون كجسد المسيح « ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١ يو ٣ : ٢) وقال الرسول بولس : « الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (فى ٣ : ٢١) .

فيالها من سعادة عظيمة تحيط بأولئك الذين صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات (غلاطية ٥ : ٢٤) وما أحسن قول بعضهم فى ذلك «يسير المؤمن فى هذه الحياة وغايته التمتع بالله ومشاركة الطبيعة الالهية بالصفات الحسنى وتجلياتها المحسوسة بين البشر الى أن يأتية الموت . ولا يكون الموت لمن يؤمن بالخلود إلا حادثة بسيطة تفك روحه من أسرها الترابى لتعدها حياة أعظم وأكمل وأمجد فيكون مثله فى ذلك مثل دودة تدفن نفسها بشرنقتها ، تموت بكيانها الظاهر لا لتفنى بل لتقوم فراشة جميلة لها أجنحة تطير بها عن الأرض وتحلق فى الفضاء حيناً تر يد فتكون بمظهرها الثانى أجل وأقوى وأكمل» .

فجسد الأتقياء الذى أقع واستعبد (١ كو ٩ : ٢٧) وجسد الشهداء الذى

تقطع وتمزق واحترق لا بد أن يعود صحيحاً بل يأخذ أسمى حالات المجد فتضمّد الجراحات وتتلأأل يا لمجد فى القيامة . زوى بعضهم ، أنه كان من عادة الرومانيين أنه عندما يحضر القائد الظافر الى مدينته يذهب أولاً الى بيته خفية فيستريح فيه ويتمتع بأصحابه وأهله مدة أسبوع أو أسبوعين الى أن يأتى الوقت المعين الذى فيه يخرج من بيته ويدخل المدينة رسمياً ، حينئذ يعترف به وتفتح له الأبواب ليدخل بالعز والمجد ويسير بموكب حافل فى وسط المدينة الى الكابيتول (دار الحكومة) بين هتاف الفرع وصيحات السرور . هكذا أيضاً أولئك القديسون الذين جاهدوا وظفروا وانتقلوا سيقومون الى المجد و يعلن مجدهم فى موكب الأبرار و ينالون مع السعادة .

أما الخطاة فيقومون بأجساد مملوءة شناعة ومنتشحة بالسواد فتنبعث منها الروائح الكريهة ، فيألفها من تعاسة شديدة و ياله من حزن مفرط يحقان بأولئك الهالكين المزدولين عند اتحاد نفوسهم بأجسادهم فتذكر النفس عندما ترى الجسد كل ما ارتكبت فيه من الشرور وكل ما استخدمته فيه من المعاصي فتقول له « أيها الجسد الملعون أنى لأجل رغبتى فى أن أنعمك هلكت » فيجاوبها قائلاً « أيها النفس اللعينة الشقية . أنت التى كنت حاصلة على العقل والفطنة فلماذا تنازلت معى وساعدتني على ارتكاب كل تلك الشرور التى سببت لى الهلاك الأبدى » .

أما كيف تكون القيامة فيقول الرسول بولس : « فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير . فانه سيبوق فيقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير » (١ كور ١٥ : ٥٢) وقال السيد المسيح « فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع رياح من أقصاء السموات الى أقصائها » (مت ٢٤ : ٣١) فتسرى صدر أمر الله الى ملائكته باحضار جميع بنى البشر حينئذ تنحدر قوته الى أعماق القبور فتتعش العظم الرميم . وكم من أجساد مندثرة ضمن طيات الأرض ولكن الله الذى يخبرنا عنه الكتاب أنه هو الذى يحيى الموتى و يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة (روم ٤ : ١٧) يأمر جميع الناس قاطبة أن يقوموا : حينئذ يسلم البحر الأموات النذيين فيه و يسلم الموت والهاوية الذين فيها (رؤ ٢٠ : ١٣) وهكذا تأخذ البرية أن تلد ميلاداً جديداً وهذا العمل العجيب

لا يحتاج الى سنين متعددة لأن قدرة الله لا تقف عند زمان ولا مكان بل كما قال لرسول بولس : « فى لحظة » أجل . حينما يصدر الأمر الاضى بانتهاء العالم ينتهى فى الحال « من أجل ذلك فى يوم واحد ستأتى ضرباتها موت وحزن وجوع وتحترق بالنار لأن الرب الاله الذى يدينها قوى (رؤ ١٨ : ٨) والأرض والسماوات تبسّد كثوب تبلى كرداء يطوئها فتتغير (عب ١ : ١٠ - ١٢) وقال الرسول بطرس : « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السماوات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠) .

حينئذ تنقطع أصوات العصافير المغردة و ينقطع هتاف الطرب والسرور وتقف حركة الحياة فلا تعود تسمع صوت فأس الخطاب كما فى العصور الأولى ولا دوى الآلات صادراً من أماكن العمل و يكف التلميذ عن التأمل فى كتبه ، والمصور عن التفرس فى جلال الشمس وقت المغيب و ينقطع الخطيب قبل انتهاء خطابه و يصير فوق استطاعة الشاعر أن يحرك الأوتار الخالدة ، يخلع الملك ثوبه الارجوانى و يضع الفلاح معوله ولا يكون هناك حاجة بعد للعلماء ، وسيف الغضب المعلن والذى كان ممنوعاً عن العمل مدة فتح باب للتوبة يعود فيتم عمل به بقوة مهلكة على عالم فاجر . و يقفل باب التوبة فى وجه كل من لم يدخله قبل ذلك . نعم فكل ما نراه فى هذا العالم من الفساد والشر والظلم والنفاق سيزول عما قريب .

فهيا ياملائكة الله انذروا الخطاة بيوم الدينونة العظيم . واطلمى أيتها السماء واحجبي عنهم أنوارك وأهطلى أيتها النار من العلاء واحرقى مقتنياهم وانفتحى أيتها الأرض من أسفل وابتلعى جميع قصورهم . فهذه هى النهاية التى تضمحل فيها كل المدن والقرى والممالك والقصور والحصون . هذه هى النهاية المزمعة ان تلاشى كل غنى وكل مجد عالمى وجميع التمتعّات الزمنية « قد جاء الوقت . بلغ اليوم فلا يفرحن الشارى ولا يحزنن البائع لأن الغضب على كل جمهورهم » (حز ١٢ : ٧) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم : « انى لما أتأمل مجئ الديان وكيف تصرخ الأبواق بصوت عظيم وكيف تفتح القبور ، كيف تفرغ اللحود وكيف يقوم الأموات

من القبور كالمستفيقيين من الرقاد . وكيف ترجع الانفس الى أجسادها . عندما أفكر بهذا يا اخوتي اغبط وامدح المنتظرين المنتهين واندب وانتحب على الغافلين المهملين .»

أجل فى ذلك اليوم يخرج كل انسان من الجوف الذى ضمه ، ولكن ما أعظم الاختلاف بين الحاليتين . حالة الناس قبل القيامة وحالتهم بعدها . فترون ذلك الذى كان بالأمس يرجف العالم منه خوفاً ورهبة فى غاية الفزع والاضطراب . قد فارقه بأسه وكل مجده فيسأل أين سلطتى وجاهى ؟ أين عظمتى واهتى ؟ فيجواب « انت لم تخرج من لحدك لتعود الى مجدك الأول بل لتساق للمحاكمة .»

قال الرائي « ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمنسح شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت على الأرض كما تطرح شجرة التين ثمرها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملفت وكل جبل وجزيرة ترحرحا من موضعها ، وملوك الأرض والعطاء والأغنياء والأمراء الأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى المغاير وفى صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا واخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف . لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف » — (رؤ ٦: ١٢-١٧).

قد كانوا فى الحياة الأولى مفتونين بالشهوات ومغرمين بالنجاح ومتلهين باللذات . أما الآن فقد ماتت فيهم تلك العواطف المهلكة ولم يبق لهم إلا الخضوع للقوة القادرة التى تسيطر عليهم حينئذ ليجاءوا بوعا أثوه فى حياتهم على الأرض . ترى أين يفر الخاطي من ذلك الهول ؟ قد يحاول أن يلتجئ الى القصور الشامخة والأبراج الحصينة ولكنها تكون حينئذ قد هدمت . لعمري كيف يكون حال أولئك وهم يرون قصورهم التى تعبوا فى هندستها ونقشها تلتهمها النار التهاماً ، وماذا يكون شأن التجار وهم يرون اللهب يدخل مخازنهم ويأكل ما بها . أجل سيسمع حينئذ

بكاء وعويل لم يعرف منذ انشاء العالم . ستدوس المرأة ولدها الرضيع وهى لا تشعر
وهمل الاب ابنه وهو لا يدري .

أجل هو يوم بوق وهتاف على المدن المحصنة وعلى الشرف الرفيعة . أما الأبرار
فلن يدنو منهم شر ولا يقترب منهم خطر بل يخطفون جميعاً لملاقاة الرب فى الهواء .

الفصل الحادى والعشرون

فى يوم مجئ الرب العظيم الثانى

«لأن يوم الرب عظيم ومخوف جداً فمن يطيقه ؟» (يو ٢: ١١)

لقد جاءت أيام عديدة على العالم اشتد هولها وعظم خطرهما كيوم الطوفان و يوم احراق سدوم وعمورة و يوم قتل أطفال بيت لحم وكم من أيام حدثت فيها زلازل وبراكين أهلكت ما لا يحصى من النفوس وهدمت البيوت الشامخة وأزالت عز مدن عامرة ، ولكن هذه الايام ظل وخيال ليوم الرب العظيم الذى يأتى فيه ثانية فى مجده (مت ٢٥ : ٣١).

لقد أتى المخلص أولاً وديعاً متواضعاً فأخذ العالم من اتضاعه سبباً لاحتقاره واذلاله ، أتى ليسكب على الناس فيض رحمته فاتخذ العالم من رحمته سبباً ليسئى الى هذا الاله الجزيل الصبر والجلود . فمن الواجب إذاً فى مجيئه الثانى أن يأتى ليصلح هذين الجرمين اللذين أجرم بهما البشر ، فيأتى أولاً بعظمته وثانياً بعدله . فهذا الخروف الوديع الذى ببصر عجيب فى هذه الحياة احتمل من الخطاة اهانات وافتراءات عديدة يصير أسداً مفترساً ، مجرد النظر اليه يولى الخطاة رعباً ويلبسهم ثياباً من الخوف والرجز دون أن يكون لهم أقل أمل فى الرحمة . ان الخطاة لا يعرفونه الآن بل يظهر لهم انه اله لا يبصر الاثم أولاً يبغضه أو كأنه لا يشعر بما يهان به اسمه القدوس . إلا أنهم سيعلمون وقتئذ إن الله يبغض الخطيئة بغضاً عظيماً .

إن حزقيال النبى رأى فى رؤياه كرويين لكل منها وجهان ، الوجه الواحد وجه انسان والوجه الثانى وجه اسد (حز ٤١ : ١٨ و ١٩) وهذا يمثل لنا اتم تمثيل سيدنا يسوع المسيح المتصف بوجهين : الاول وجه انسان أنيس حلیم وديع وهو الذى

ينظر به الى الخطاة منه أن مات عنهم الى يوم القيامة ، والوجه الثاني وجه اسد وهو الذى يلتفت به اليهم يوم الدينونة .

قال المرتل « الرب قد ملك فلتبهج الأرض ولتفرح الجزائر الكثيرة . السحاب والضباب حوله . العدل والحق قاعدة كرسيه . قدامه تذهب نار وتحرق أعداءه حوله . أضاعت بروقة المسكونة رأت الأرض وارتعدت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام الزب سيد الأرض كلها . وأخبرت السموات بعدله ورأى جميع الشعوب مجده » (مز ٩٧ : ١ - ٦) .

إن الملك إذا عزم أن يدخل مدينة طاعة تعيدخلها بالحبة ومعه عساكره وهم لا بسون ثياب السرور وحلل الأفراح ، و يقبلون على تلك المدينة بالسلام والتحية والتكريم وكل محبة . أما إذا كانت المدينة عاصية فيوافي غاضباً عليها وعساكره مدججة بالسلاح لمحاربتها بشدة وقساوة . هكذا ربنا يسوع ملك المجد كان مجيئه الأول الى العالم بصلح وسلام . وملائكته اهدوا المسكونة التحية قائلين « وعلى الأرض السلام » (لو ١٤ : ٢) وأما مجيئه الثاني فإنه سيكون بروح الشدة والغضب لأنه يأتي للانتقام والمجازاة وتعذيب الخطاة .

فحينئذك يصيح القول « أين مراحمك القديمة ؟ كنت أراك فى مجيئك الأول وديعاً متواضعاً كالحمل ، واليوم أراك قوياً مزجراً كالأسد . كنت أراك تفتح ذراعيك ليقبل اليك الخاطي واليوم أراك تطرده الى النار المؤبدة . كيف استحالت تلك المحبة الى بغضة ؟ أنها الخطيئة يا الهى التى جعلتك تغضب وبحق لك إن تغضب على مرتكبيها لأنك سبقت وممت لأجلهم » .

قبل أن تخرب اورشليم حسب نبوة المخلص على يد تيطس الرومانى ، سبق خرابها بعض حوادث دلت عليه فظهر نجم ذو ذنب يشبه سيفاً مجرداً وظهر رجل جعل يطوف قبل فتح المدينة بأربع سنين الشوارع والأزقة كالمجنون وهو يصيح « صوت من أربع جهات العالم صوت على اورشليم . صوت على الهيكل . صوت على الحصن . صوت على جميع الناس » وهكذا يسبق مجئ المخلص ما يدل على رهبته

فتستحشد الشمس والقمر والنجوم والأفلاك على مقاومة العالم وإعلان غضب الديان الآتى على السحاب بقوة ومجد عظيم فتظلم الشمس والقمر وتحدث زلازل عظيمة وتنحل العناصر وتضطرب الجمادات . وهذه المخلوقات ولو أنها لم ترتكب خطيئة أو تسبى ذنباً غير أن الله لكى يظهر عظمة دينوته سيفنيها لأن الأشرار اتخذوها آلات لتنفيذ مآرهم فيهلك الأرض لأنها حملتهم و يفنى النور لانه أضاء لهم وهم مستغرقون فى الخطيئة « ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شئ لذلك ترتجى كل الأيادى و يذوب كل قلب انسان » (اش ١٣ : ٦ و ٧) .

فياله من فرق عظيم بين يوم قيامة ابن الله من القبر ، وبين اليوم الذى يحى فيه لبيدين العالم فى اليوم الأول كان ينادى لكل انسان بالسلام وفى اليوم الثانى يرسل صوته بغضب فيزعج كل المسكونة .

مبادا يكون فى ذلك الوقت حال الانسان غير التائب الذى كان متغافلاً عن الأمور الروحية ؟ ألا ينزعج قلبه وترتعد فرائضه حينما يرى علامات قرب مجئ المسيح للدينونة ؟ وماذا يعمل حينئذ إذ يرى الأعمال العالمية قد بطلت وأن أئمن وأعز خيرات الدنيا قد أصبحت عديمة القيمة والفائدة ؟ وكيف يكون حاله حينما يرى الرب يسوع الذى ازدرى بأنجيله واستهزأ بوصاياه آتياً فى السحاب ليضع أعداءه عند موطن قدميه ، ألا يقول للجبال أسقطى على وللا كام غطيتى من وجهه الجالس على العرش ومن غضب الخروف ! لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف ؟ (رؤ ١٦ : ١ و ١٧) .

فعلى هذا الشكل المريع يظهر الديان العادل ، والغضب يتقدمه وذلك دليل على مبلغ الصرامة التى سيدين بها العالم حتى أن مجرد رؤية يسوع قادماً فى غضبه يكون أشد من عذاب جهنم . قال ملاخى النبى : « فهوذا يأتى اليوم المتقد كالثور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتى قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١) .

أى خجل وأى خوف يشعر بها انسان يقف أمام ملك اهانه أوقاض تعدى عليه ، وأية رعدة تعترى العبد حينما يرى سيده ناقماً عليه بغضب شديد ، وكم من

الرعب والاضطراب يداخل تلك النفس التي تكون قد احتقرت يسوع وازدرت به عندما تراه آتياً ليدينها ! قال زكريا النبي : « فينظرون الى الذي طعنوه و ينوحون عليه كنانح على وحيد له و يكونون فى مرارة عليه كمن هو فى مرارة على بكرة » (زك : ١٢ : ١٠) ذكر إن الباشق يخيف أنواعاً من العصافير خوفاً شديداً حتى انها عندما تراه تحاول التخلص منه ولو تزج نفسها فى بئر عميق أو أتون منقد ، وهكذا يتمنى أن يفعل اها لكون فى يوم الدينونة و يفضلون أن يطرحوا فى أعماق اللجج لو كان ذلك بنجيمهم من المثل أمام رب القوات وقد سل عليهم سيف الانتقام . قال الكتاب الالهى « وفى تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه و يرغبون إن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩ : ٦) .

قال الرب عن كيفية مجيئه « وحينئذ يبصرون ابن الانسان آتياً فى سحابة بقوة ومجد كثير » (لوقا : ٢١ : ٢٧) فياله من مشهد قاس على الخطاة حينما يرون أن الديان هو ينفسه الذى مات على الصليب لأجل خلاصهم . وأنه هو نفسه الذى طرحوا كلامه خلفهم . ما أعظم الحزى الذى يستولى على الخاطئ حينئذ وما أشد نوحسات ضميره . فخلصنا سيأتى للدينونة بالجسد الذى مات به و بالجراحات التى أراها لتلاميذه عقب قيامته . فينظر اليه الأبرار بفرح لأنهم نالوا الخلاص بهذه الجراحات و ينظر اليه الأشرار بخوف عظيم لأنهم لم يستفيدوا من هذه الجراحات شيئاً .

حينما مثل أخوة يوسف أمامه فى مصر وقال لهم « أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه الى مصر » يقول الكتاب « فلم يستطع اخوته أن يحبوه لأنهم ارتاعوا منه (تك : ٤٥ : ٤٣) . قال القديس أوغسطينوس « ان السيد المسيح قد اختفى فى مجيئه الأول تحت حجاب ناسوته ولكنه سيأتى فى يوم الدينونة بمثل لاهوته . فإذا كان جل شأنه فى حالة ترضيه ضعفنا جعل أعداءه يسقطون على الأرض بكلمة واحدة منه عندما قال لهم فى ليلة الآمه « أنا هو » (يوحنا : ١٨ : ٦) فإذا يحدث إذا لاح فى مقدمة الجيش السماوى بكل عزته وقدرته . انه يرفع صوته بصيحة أرهب من أصوات الرعود و يكرر كلامه السابق قائلاً « أنا هو » أنا هو الذى أهتتموه وكفرتم به وصلبتموه « أنا هو » هوذا اسم الرب يأتى من بعيد غضبه مشتعل

والحريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة «
(اش ٣٠ : ٢٧ - ٣٣) .

ان الاسرائيليين لما شاهدوا البروق والرعود فى جبل سينا داخلهم الخوف جداً
وقالوا لموسى « تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت »
(خر ٢٠ : ١٩) فكيف يعمل الخاطي عندما يرى علامات ذلك اليوم ولا سبيل
أمامه للهرب ؟ إن آدم حينما سمع صوت الرب بعد المخالفة اختبأ بين الأشجار . أما
الشرير فلن يجد له ملجأ بين الشجر لأنها حينئذ تحترق بأغصانها من هيبه الرب .

قال الكتاب « فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال . ارتعدت وارتجت لأنه
غضب . صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ
السموات ونزل وضياب تحت رجليه . ركب على كروب وطار وهف على أجنحة
الرياح . جعل الظلمة ستره حوله مظلته ضياب المياة وظلام الغمام من الشعاع
قدامه عبرت سحبه . برد وجر نار . أرعد الرب من السموات والعلی أعطى صوته
برداً وجر نار . أرسل سهامه فشتهم وبروقاً كثيرة فأزعجهم » (مز ١٨ : ٧ - ١٤) .

فماذا يقول حينئذ أولئك الذين قدم لهم المسيح ذاته واقتداهم بالآلامه المقدسة
وموته ولم يخلصوا له بل أساءوا اليه بخطايا متعددة مزدريين بدمه المسفوك « فكم
عقاباً أشر تظنون أنه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس
به دنساً وازدرى بروح النعمة فانتا نعرف الذى قال لى الانتقام أنا أجازى يقول
الرب . وأيضاً الرب يدين شعبه . مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى »
(عب ١٠ : ٢٩ - ٣١) .

اننا نجد فى هذا الزمن كثيرين من البشر لا يخافون يسوع ولا يهابونه كما يهابون
أقل الناس . أنهم يخشون أن يفتروا اثماً ضد أحد فيدفعه الغيظ الى الانتقام منهم ،
ولكنهم يرتكبون مخالفة الله والتجديف على اسمه بغير مبالاة « القائلين لله ابعد عنا
وماذا يفعل القدير لهم » (اى ٢٢ : ١٧) « لذلك تقلدوا الكبرياء . لبسوا كتوب
ظلمتهم . جحظت عيونهم من الشحم جاوزوا تصورات القلب . يستهزئون

و يتكلمون بالشر ظلماً من العلاء يتكلمون . جعلوا أفواههم فى السماء ، وألسنتهم
تشمشى فى الأرض ... وقالوا كيف يعلم الله وهل عند العلى معرفة»
(مز ٧٣: ٦-١١).

فلأجل ذلك قد خصص الرب يسوع يوماً معيناً هو يوم الدينونة العامة الذى فيه
يعلن ذاته ليعرف الجميع انه هو السيد العظيم المطلق التصرف ومن ثم لا يدعى هذا
اليوم يوم رحمة أو يوم رافة أو يوم غفران بل يقول عنه صفنيا النبى « قريب يوم الرب
العظيم قريب وسريع جداً . صوت يوم الرب . يصرخ حينئذ الجبار مرأ . ذلك اليوم
يوم سخط ، يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار ، يوم ظلام وقتام ، يوم سحب
وضباب ... وأضايق الناس فيمنشون كالعمى لأنهم أخطأوا الى الرب فيسفع
دمهم كالتراب ولحمهم كالجله . لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع انقاذهم فى يوم
غضب الرب بل بنار غيرته تؤكل الأرض كلها . لأنه يصنع فناء باعثاً لكل سكان
الأرض » (صف ١: ١٤-١٨).

ونور المسيح فى ذلك اليوم سيكون للأبرار سرورا وبهجة ، وللأشرار حزناً عظيماً
وكدراً جسيماً فيكون بكاء مرأ و ينتحبون انتحاباً شديداً لأنهم لم يعملوا لينتفعوا
من موته العظيم ليتطهروا بدمه الثمين وعند مشاهدتهم جلال مجده السماوى وسمو
بهاء عزته الربانية يطأطئون رؤوسهم ويخنون هاماتهم عند موطنى قديمه .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « فى ذلك اليوم يهمل الانسان كل الكنوز التى
جمعها ويذهب الى هناك عرياناً ذليلاً عابساً خائفاً و يقف الجميع فى موقف
الدينونة الرهيب حيث ترتجف الملائكة . حيث تفتح أسفار أعمالنا . حيث الدود
القديم الشفقة وحيث الزمهرير القارص ، حيث النوح الذى لا عزاء بعده . حيث
الدموع المنهمرة كالطل حيث الظلام الحالك . فاذا عسانا نختمل حين نقف حاملين
أثقال خطايانا على أعناقنا فنرى فى تلك الساعة الألسن المتكلمة بالالحاد
وبالأباطيل تلتب فى السعير التهاباً متواصلاً . وأسنان انثامين تصر ندماً وحسرة .
وأفواه المجدفين تسد بجمر النار المضطربة . وأيدى محبى المال ترتعش كالقصبة
المرضوخة . والأعين التى كانت تألف نظر الشر وتفرح بالاثم لا ترى إلا اللهب

المشتعل والعذاب القاسى .

فأين عند ذلك الانسباء والأهل ، أين حينئذ الاب الشفوق ؟ أين حينئذ الأم
المشحنة ؟ أين الاخوة الأحياء ؟ أين حينئذ سلطة ملوك الأرض ؟ أين الذين كانوا
يمشكرون العقاب ؟ كم من ندامة تستحوذ عليهم . كم يندبون وينوحون ولا يرحمهم
أحد . كم يتهدون ولا من يشفق عليهم . فياله من حزن مفرط . هل لأجل لذة وقتية
ومجد حقير زائل نحرم أنفسنا من ذلك المجد الحقيقى ونورثها العذاب الذى
لا يطاق ؟.

الفصل الثانى والعشرون

فى الدينونة العامة

« إن كنت تراقب الآثام يارب يا شهيد فمن يقف » (مز ١٣٠ : ٣٠)

إن كثيرين يعتبرون الدينونة العامة ضرباً من ضروب الخرافات ولذلك لا ترى فى أخلاقهم تحسناً ولا فى سلوكهم استقامة لأنه ما من أحد يعتقد « أن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (مت ١٢ : ٣٦) مع ذلك يمعن فى شره و يقيم فى ائمه . فهل فينا من يؤمن بالدينونة العامة ؟ كثيرون يقولون نعم ولكن ما هى الأعمال التى تتممونها لتكسبوا بها الفخر فى ذلك اليوم ؟ هل التوغل فى غيبة العالم . والانهماك فى ملاذه . والسعى المتواصل فى طلب مجده ؟ . إذا كنتم تريدون أن تعرفوا هل أنتم تؤمنون حقاً بالدينونة العامة أم لا فعليكم بفحص تصرفاتكم لتروا بأنفسكم أنكم إذا دعيت لما يخص أجسادكم وأمياالكهم البدنية سارعتم وعدوتم . وإذا طلب منكم أن تعملوا أمراً يرضى الله انتحلتم الأعذار التى بها تعتذرون وضيق الصدر الذى يستولى عليكم . إن الذى يشعر بأنه مزعم أن يقف أمام قاض فى محكمة عالمية لا يظهر اهمالاً فى الاستعداد مثل أهالككم أنتم يا من ستقفون أمام القاضى العادل فى محكمة الدينونة الربيهية .

قال أحدهم « كيف تقولون أنكم تؤمنون بوجود ديان سيدينكم على أفعالكم وأنتم لا تعملون له حساباً ؟ فإن كنتم تؤمنون أن المسيح سوف يدينكم فحسناً تفعلون . ولكن لماذا لا تخافونه ولماذا تجذفون عليه فى حين سخطكم . وتحلفون باسمه زوراً . وتغيظونه وتحزنونه فى ملاهيكم . لماذا تفضلون بشرى على رضا ؟ ولماذا تؤثرون تركه على ترك عشرة دنسة تميلون اليها ؟ ولماذا تصرفون الأموال الباهظة على الشر والفساد ولا تقدمون منها اليسير لديانكم ؟ أتجسرون على اتيان

هذا العمل مع واحد تعرفون انه سيدينكم ؟ كيف لا وأنتم حتى في الكنائس تستهينون به فتضحكون وتمزحون بل تسجدون لأصنامكم الساكنة في قلوبكم وهو قائم أمامكم ؟».

قال الرائي « ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أماما الله » (رؤ ٢٠ : ١٢)
فسيحضر اذا جميع البشر ليدانوا سواء رضوا أو لم يرضوا . وليس أحد من أعظم ملوك العالم يسمو بهذا المقدار حتى يترك . وليس أحد من أحقر فقراء العالم يكون دنيئا بهذا المقدار حتى يهمل . ففي هذا الحشد الذي سيجتمع للدينونة سيأتي الشيوخ والاحداث ، الأقوياء والضعفاء ، الأسرى ، والأمراء ، الأغنياء ، والفقراء ، العبيد والاحرار ، وبالجملّة عموم الجنس البشرى .

فما أرهب هذا المشهد حيث الجميع بدون استثناء سيقفون أمام كرسي الديان ليعطى كل واحد حساباً عما صنع خيراً كان أم شراً . وما أشد صعوبة تلك المحاكمة ، ولذلك يقول المرتل « لا تدخل في المحاكمة مع عبدك » (مز ١٤٣ : ٢) .

إن القوائد المنتصر يرجع الى المدينة فرحاً يعدد مفاخر انتصاره ، وبعكس ذلك القوائد المنكسر فانه يرجع مطاطئ الرأس ذليلاً ، وربما حدا به الحزى الى الانتحار .
هكذا يقف البار في يوم الدينونة كقوائد حارب وانتصر يفتخر بما تعب في سبيل الصلاح وأما الخاطئ فبماذا يفتخر ؟ كان في الحياة يفتخر بشرويه وأما هنا فاذا يقول هل يتباهى بأنه جمع ثروة طائلة لأجلها كان يوقره الناس ؟ هل يفتخر بأنه سعى حتى نال أسمى الرتب وحظى بأجل المراكز ؟ هل يفتخر بأنه تمتع بكل الشهوات والملذات ؟ كل ذلك قد انتهى أوانه ولم يبق أمامه إلا أن يختمل عقابه .

فما ظنك إذا أيها الانسان ؟ الدينونة آتية ولا ريب . مقبلة ولا شك . فعلى أي شئ تتشكل ؟ هل على رحمة الله ؟ كيف لا وقد ملاك الله بها حتى فاضت . وهل تظن أن الله سيحاسبك على سيئاتك فقط ؟ كلا تأمل . إذا جلس الديان العادل للمحاكمة يضع أمام عينيك من الجهة الواحدة كل ما فعلت من الشر وكل ما أهملت من الخير ، ومن الجهة الأخرى يضع أمامك حسناته الكثيرة التي جاد عليك بها ورحمته الوافرة التي غمرتك . يريك كل البلايا التي خلصك منها وكل

الخيرات التى تفضل عليك بها حتى تقابل بنفسك الاحسانات التى وهبها لك مع الخطايا التى كنت تقدمها له . *

فيالها من خيبة وعار عظيمين ، و ياله من خزي لا يوصف لمن يرى مدينوناً لذلك الديان العادل . فالى أين يهرب ؟ ينظر الى فوق فيرى الديان مستشيطاً من الغضب ، والى أسفل فيرى جهنم مفتوحة لا بتلاعه « من يقف أمام سخطة ومن يقوم فى حو غضبه . غيظه ينسكب كالنار والصخور تنهدم منه » (١٦ : ٦) .

قال بعضهم « لا تروعن الرعود العظيمة ولا أقطار النار المتكاثرة ولا الصواعق المهلكة ولا السواد المدهم الذى تتسربل به الشمس بقدر ما يروعنى وقوفى بخجل عظيم أمام الله والناس وأنا أحمل خطاياى » .

إن عبيد داود الملك الذين خلق نصف لحاهم ومزقت ثيابهم لم يستطيعوا أن يظهروا أمام الناس (٢ صم ١٠ : ٥) . فكم بالحرى الذين جردهم الشيطان من كل فضيلة وأبعدهم عن كل صلاح وهم يظهرون أمام الخليفة بهذا المظهر ، والشيطان يجذبهم أمام الله كأنهم أسراه وغنائمه . حقاً ما قاله دانيال النبی « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون الى العار للآزراء الأبدى » (دا ١٢ : ٢) .

وقد ذكر عن بيوس أحد أعيان رومية أنه لما جئ به الى محفل الشيوخ المشيرين لحاكمته وعاین الخلق الذين أتوا لمشاهدة المحاكمة أخذ منه الخجل مأخذاً عظيماً عندما شرع القاضى يستجوبه ولم يقو على احتمال هذا الموقف فاستل مديّة كان قد أخفاها تحت ثيابه وطعن بها نفسه فخر صريعاً ولكن هبات أن يكون للأشرار فى يوم الدينونة قدرة على اماتة أنفسهم ليتخلصوا من ذلك العار الذى لا يوصف .

سيكون خجل الأشرار فى ذلك اليوم عظيماً وسيكون لهم من الحزن والضيق بقدر ما يكون للأبرار من الفرح والسرور . ويزداد خزيم وعذابهم عندما يقارنون بين حالتهم وحالة الأبرار الآن ، الحالة التى كان عليها كل منها فى الحياة ، فيشدّكرون الغنى الباطل والمجد الكاذب والملاذ الدنيئة التى كانوا يتلذذون بها

والتي كانوا يفتخرون بها على اولاد الله و يدركون أن ما لحقهم الآن من العار العظيم إنما كان بسببها ، بينما يرون أن أحزان المؤمنين قد تحولت الى سلام خالد .

وهل يستطيع أى خاطئ أن يعتذر؟ هوذا المخلص قد أقام الأبرار ليدين بهم الأشرار . قال الرسول بولس : « أستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم » (١ كو ٦ : ٢) وكيف ذلك ؟ أيقدر أشقى الخطاة أن يقول فى يوم الدينونة الرهيب يارب أنك كنت تخلص أصغر الخطاة فقط فلم أتجاسر على الاتيان اليك لأنى كنت من أشر الخطاة فلذلك مت باليأس ؟ هب أنه وجد من يقول ذلك أفلا يظهر له زكا العشار ويقول له لقد كنت أشقى الخطاة ومع ذلك قبلنى المسيح . ولنفرض أن لصاً اقترب من المسيح قائلاً يارب كانت خطيئتي السرقة فظننت أنها من الخطايا التي لا تقبل توبة عنها ولذلك لم أتقدم اليك فى الحياة تائباً ملتمساً المغفرة ، ولكن عندما يحرق ببصره و ينظر اللص الذى خلص على الصليب جالساً بجانب السيد بلباس بهى فاذا يكون موقفه ؟ وإذا قال الزانى لقد كنت أعتبر خطيئتي أعظم من أن تغفر ولذلك لم أتقدم اليك ملتمساً الخلاص ، فانه يرتد خائباً عندما يرى راحب الزانية والمرأة الخاطئة التي قبل المسيح توبتها وغفر لها ذنوبها .

وليس ذلك فقط بل سيكون خزي الخطاة من المسيحيين عظيمًا حينما يواجههم الله بكثيرين من الوثنيين الذين كانوا لا يعرفون الله مدة طويلة من حياتهم ولكنهم عندما سمعوا صوته أطاعوه وتابوا عن خطاياهم . ألم يقل المخلص أن « ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقاصى الأرض لنسمع حكمة سليمان وهؤلاء أعظم من سليمان ههنا » ، « رجال نينوى سيقومون فى الدين مع هذا الجيل و يدينونهم لأنهم تابوا بمناداة يونان وهؤلاء أعظم من يونان ههنا » (مت ١٢ : ٤١ و ٤٢) ألا يقول المسيح الخاطئ فى ذلك اليوم « تجعلنا مثلاً بين الشعوب . لا نغاض الرأس بين الأمم . اليوم كله خجلنى أمامى وخزى وجهى قد غطاني » (مز ٤٤ : ١٤ و ١٥) .

فوا أسفاه على الانسان الذى يفتش حينئذ فى سفر حياته فلا يجد فضيلة يستر بها عورته . ولذلك يقول الله لملاك كنيسة اللاودكيين « أشير عليك أن تشتري

منى ... ثياباً بيضاء لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك » (رؤ ٣ : ١٨) ويقول الرسول بولس « وإن كنا لا يسين لا نوجد عراة » (٢ كو ٥ : ٣) وحق الله في إقامة دعواه على الخطاة ظاهر لا يمكن انكاره فلو كنت في أى مقام أو رتبة ولحقتك اهانة من أى انسان كنت تسعى للانتقام منه ؟ فكيف إذاً لا ينتقم الله لنفسه ممن أهانوه بشروهم وهو قادر على الانتقام ، وكيف لا يدين البشر وهو خالقهم والمحسن اليهم ؟.

أما الديان فهو سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح وبحق ينبغي أن يدين البشر لأنه هو الاله القادر على كل شئ الذى جاء لخلاصهم ومات لأجلهم فمن حقه أن يحاسبهم على هذه النعمة التى تفضل عليهم بها ليرى هل اعتبروها أم أنكروها ويتضح ذلك من قول المخلص نفسه « الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن » (يوه ٢٢ : ٢٢) وقول بطرس عنه « بأن هذا هو المعين من الله ديناً للأحياء والأموات » (اع ١٠ : ٤٢) وقول بولس « لأنه أقام يوماً هو فيه مزع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ إقامة من الأموات » (اع ١٧ : ٣١).

قال أحدهم « فحينئذ يأتى ابن الله يسوع المسيح حاملاً علامة الانتصار وملائكة السماء تخدم عزته الالهية فترفع القبائل أصواتها وتعترف صارخة بصوت واحد هلمو يا . هلمو يا . المجد لك يا ابن الله يسوع المسيح . وأما الذين أنكروه واحتقروا أنجيله فيطرقون وجوههم وتذرف عيونهم دموعاً ، وتظهر ذنوبهم ويصرخون من مرارة قلوبهم . الخجل يغطى وجوههم ويقولون أيتها الجبال اسقطى علينا وغطينا من أمام وجه الجالس على الكرسي ، الذى لا يقبل لنا عذراً الآن لأنه قد أنذرنا قائلاً توبوا قبل يوم الدين وإلا فستموتون بخطاياكم . هذا هو يوم النعمة أما الزمان المقبول فقد مضى . يطلبون الموت فيبتعد عنهم ويطلبون الفناء ولا يجدونه . يتذكرون حينئذ العظات والانذارات التى كانت توجه اليهم فى الحياة ولم يكونوا ليعمروها اهتماماً ولكن باطلاً كل ذلك لان اليوم يوم الحصاد . يعرفون الذى أنكروه ويقولون أنه هو المسيح المخلص الذى كلمهم بأنجيله الطاهر حيث قال لهم توبوا وارجعوا عن طرقكم الرديئة فتحيا وتعالوا الى وأنا أريحكم . يقولون رفضنا

تعاليمه الصادقة واحتقرنا انجيله المقدس ورسله الذين بشرونا باسمه وحسبنا قولهم كذباً أو من الأحاديث الفارغة . ضللنا ولا هادى لنا ولا منقذ ولا مخلص . اسقطى اذن علينا أيتها الجبال وغطينا من أمام وجه الجالس على الكرسي الذى سفك دمه الطاهر لأجلنا وأخذنا خاصة له وقربنا اليه ونحن ابتعدنا بارادتنا ، وبآثامنا استوجبتنا نقمته . أنكرناه قدام الناس فاستوجبتنا ان يذكرنا قدام أبيه الذى فى السموات . فحينئذ تسطع هيبة العلى على الجالسين لد عزته وتقع الرهبة الأخيرة فى قلوب بنى البشر الذين احتقروه وخالفوا نواميسه الالهية ورفضوا كلمته المكتوبة ويلتفت اليهم برجزه وغضبه آمراً ملائكته إذ يقول لهم اجمعوا الزوان واحزموه حزماً حزماً واطرحوه فى بحيرة النار الى الأبد و يلتفت الى الأشرار و يقول لهم اذهبوا من أمام وجهى الى النار المؤبدة المعدة لابلis وجنوده . اذهبوا يامالعين . قسيت قلوبكم فلم ترجعوا الى لأشفيكم . أعطيتكم عيوناً لتبصروا فاعمضتموها وآذاناً لتسمعوا كلمائى فلم تسمعوا . فأننا الآن لا أسمع صراخكم واعمض عين رحمتى عنكم فهلكون من أمام وجهى . كتبت لكم ناموسى فى قلوبكم فحيتموه بآثامكم . وأرسلت لكم مبشرين فاحتقرتموهم . صرت انساناً وكلمتكم بالحبة كما يكلم الاب ابنه فقصمت أذانكم ولم تريدوا أن تسمعوا قولى فتحت لكم باب نعمتى فرجعتم الى الوراء ولم تدخلوا . رفضتمونى ورفضتم انجيلى وكلمتى كلمة الحق . داو يتكم فلم تريدوا أن تشفوا فأظهرت ذنوبكم الآن وأمرت العناصر أن تشتكى عليكم . أحببت مبغضى بغضة بنى . اتفقت على صنع الشر لتضطهدونى وأحببت ملئداتكم أكثر منى أنا الذى سفكت دمي لأجلكم . اضطباراً اضطبرت عليكم وألهمت المبشرين باسمى أن يندروكم فأندروكم ولم تسمعوا لهم وامت بخطاياكم . فالآن قد صقلت سيفى وهيأت قوسى وملأت أثناء رجزى وأبعدت رحمتى عنكم فن يخلصكم من يدى أو من ينجيكم من نقمتى أو من يشفع فيكم لدى ؟ رفضتمونى أنا شفيعكم الوحيد وبعتمونى بملذات الحياة القصيرة التى لم أطل أيامكم فيها إلا لتتوبوا وتعودوا الى ، وما شفقت على أنفسكم التى اشتريتها بدمى ولا رجعت عن رجاساتكم . أجيبنى الآن واعطونى حساباً عن كل ما صنعت . أجيبنوا الآن ماذا فعلتم بنعمتى التى كانت تفرع أبواب قلوبكم ولم تريدوا أن تفتحوها . لقد قسيت قلوبكم وأغلظتم أعناقكم وتمردتم على بأفعالكم

فلو كانت لكم حجة صحيحة لعذرتكم ولكن لا حجة لكم . الآن تدانون بأفعالكم وهي تحكم عليكم بالنار الأبدية التي قد أعدت لأبليس وجنوده « فاذهبوا عنى يما ملاعين الى النار المؤبدة حيث البكاء وصرير الأسنان » . فياها من ساعة مرعبة ، ويا له من يوم يسيل الجمد .

ولننظر الآن كيفية المحاسبة وماهية الدينونة وكيف يدين الله البشر . قال يوحنا الرسول في سفر الرؤيا ، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام اله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة ودين الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم « (رؤ ٢٠ : ١٢) وقال دانيال النبي « كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة . نهر نار جرى وخرج من قدمه . ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدمه . فجلس الدين وفتحت الأسفار » (دا ٧ : ٩ و ١٠) .

فدينونة بنى آدم ستكون حينئذ بموجب أسفار . قال القديس أوغسطينوس . « الويل لحياة بعض الناس إذا فحصتها يا الهى بحق » وكيف يقوون على الجواب حينما يتكلم عليهم بغضب . ويرجفهم بغيظه (مز ٥ : ٢) وأول أسفار الدينونة هو « الكتاب المقدس » قال السيد المسيح « من ردنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه . الكلام الذى تكلمت به هو يدينه فى اليوم الأخير » (يو ١٢ : ٤٨) ففى ذلك اليوم يقف المسيح ويسأل كل واحد قائلاً : ماذا عملت بانجيلى هل أطعت التعاليم التى ذخرتها لك فيه هل لهجت بشرائعى ونواميسى هل اتخذتها دستوراً لحياتك وأعمالك . هل جعلتها عمادك وموضوع فرحك وسرورك فى حياتك أم رفضتها ولم تكثر بها واعتبرتها هذياناً . هل أخضعت نفسك لها أو تمردت عليها طوعاً لا رادتك وأفكارك . هل أسكنتها فى قلبك كسيد لكى تتسلط عليك وتديرك حسب ارادتها ، أو جعلتها عرضة لتقوياتك وتخريفاتك وتأويلك الكاذبة حسب ميل قلبك الشرير الممتلى بالغرور . هل اتخذتها سراجاً تستضيء به أم أثرت أن تعيش فى الظلام . هل قبلت الكلمة معتبراً اياها خارجة من فى ، قادرة أن تنقى قلبك وتمنحك الخلاص . هل حفظت طرقى ووصاياى وسلكت بموجبها أو أهملت

وأطعت أوامر ابليس عدوك وعدوى ؟».

فإن اتخذ الإنسان كتاب الله مصباحاً له وسار مهتدياً به يحصل على النجاة .
أما إذا أهمل ذلك الخلاص الذى تكلم به الرب فلا يمكن أن ينجو . سيقف
الكتاب المقدس فى ذلك اليوم ويشتكى على كل من تعداه وأهمله ولم يتمم ما
جاء فيه .

وبما أن الديان العادل غيور على كلمته فسيقضى على أولئك الأشرار بقضاء
كتابه الكريم . ذلك القضاء المربع القاتل «لأنى دعوت فأبيتُم ومددت يدي وليس
من يبالى . بل رفضتم كل مشورتى . أبغضتم العلم ولم تختاروا مخافة الرب . لم ترضوا
مشورتى . ردلتُم كل توبيخى . فكلوا الآن من ثمر طريقتكم واشبعوا من
مؤمراتكم » (ام ١ : ٢٤ - ٣١) .

و يوجد أيضا سفر آخر يدين به المسيح البشر وهو « سفر الضمير » . ولهذا يقول
الرسول بولس « لذلك أنا أيضا أدرب نفسى ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو
الله والناس » (اع ٢٤ : ١٦) وقال أيضا « لأن فخرنا هو هذا شهادة ضميرنا »
(٢ كو ١ : ١٢) فانه فى يوم الدينونة سيقف أمام ذلك الديان العادل أولئك الذين
عاشوا بدون أن يععبوا برهم وبآخرتهم أو يهتموا بأرواحهم الخالدة وبما يلزم لها
وسيقف بجانبهم ذلك الضمير الذى تعب كثيراً عندما كان يؤدى وظيفته بين أولئك
الأشرار ، وسيرفع الديان صوته قائلاً « قم أيها الضمير . أيها النائب الجليل واشتك
على هؤلاء الواقفين أمام القضاء » فيقوم الضمير معدداً كل شرور الانسان وكيف
كان يوبخه عليها ، كما قال الرسول « شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بيننا
مشككية أو محتجة » (رو ٢ : ١٥) .

فإن كان الانسان كافراً يقول له « كثيراً ما أظهرت لك وجود الخالق سبحانه
فى الطبيعة وقوانينها التى صاغها وسنها بقوته فضررتنى وأخذت قوتى » وإن كان
يهودياً يقول له « كثيراً ما كلمتك بمجئ المسيح سيدك كما فى أسفار العهد القديم
وقلت لك انه هو الملك الذى اتى الى العالم للخلاص فوضعت يدك على فى

وأُسكتنى « وإن كان مسيحياً بالاسم يقول له « أذكرك انى مراراً كنت أظهر لك واجباتك وأوبخك على أعمالك الشريرة وعدم عيشتك بالأمانة لمن مات لأجلك . ألا تذكر انى كثيراً ما كنت أُنَبِّك على تهاونك بتعاليم الكتاب المقدس وأوصيك بالصلاة وغيرها من الفضائل فكنت تتغاضى عن سماع صوتى وترفض العمل بمشورتى التى كنت أقدمها لك بكل محبة واخلاص » .

وإذا كان من محبى المال يقول له « كثيراً ما كنت أردعك عن السعى وراء المال وأفهمك أن المال يطغيك وينسيك الهك . وأنت لا تأخذ منه شيئاً يوم تموت فكأنت آذائك مسدودة بالذهب والفضة فلم تسمع كلامى » وإذا كان من محبى الشهوات يقول له « مراراً عديدة كنت أبُكَتْكَ على خطاياك وأقول لك انها مكرهة للرب ، وأنت بذلك تسعى فى طريق جهنم فكنت تضربنى بضربات متنوعة ، مرة بقضيب حب الذات ، ومرة بعصا محبة العالم وأجاده وأخرى بالخضوع لشهوات الجسد حتى أخذت أنفاسى ولم أعد قادراً على الحركة » .

فيقول الديان العادل جواباً على ذلك « أيها الضمير انك لم تقصر فى اتمام واجباتك ولا ذنب عليك ولكنهم هم المذنبون فى عدم اصغائهم لك وفى عدم اتباعهم نصائحك . لذلك قم أيها الضمير وانتقم لنفسك منهم للضربات التى ضربوها لك فى حياتهم الأرضية . تسلط عليهم فى جهنم وكن لهم دوداً لا يموت ينخر فى أحشائهم ويعذبهم بأشنع أنواع العذاب . ثم يلتفت نحو المذنبين ويقول لهم « بما أنكم لم تطيعوا أوامرى ولم تحفظوا عهودى فليمكث عليكم غضبى ولتأكلكم النار الى أبد الابدين » .

والسفر الثالث هو « سفر التوكيل » فعندما يفتح هذا السفر يقول السيد المسيح لكل واحد « اعط حساب وكالتك » (لو ١٦ : ٢) لقد كنت موكلاً على وزنات كثيرة متنوعة . كنت موكلاً على جسم فأذا عملت له ؟ هل حفظت صحته بكل ما فى إمكانك ؟ هل حفظته خالياً من الشوائب أو أسمته بتجرع المسكرات وعرضته بها للتضعضع وارتكاب الأمور التى لا ينتج عنها إلا الضعف وانتهاك القوى ؟

كيف تصرفت بعينيك ؟ هل استعملتها فى طريق الطهارة أم النجاسة . هل ظننت أن الغاية من خلقها لم تكن إلا للتمتع بالمناظر المبهجة والمرانى الجميلة التى تعرض للسقوط فى الخطية ؟ أم أنك استعملتها فى ما هو لائق وبالأخص فى قراءة الكتب التى تهذب دينياً وأدبياً وترشدك الى معرفة ارادة الله من نحوك ؟

ماذا عملت بلسانك . هل استعملته فى الشتم والتلفظ بالألفاظ القبيحة والقاء الفتن بين الناس والتلفظ بالأغاني المتذلة والأنغام الشيطانية . أم أستعملته فى تسبيح ربك بالنعمة الروحية وفى التكلم مع الآخرين ببشارته ، والى غيرك من الأعمال الحسنة المدوحة .

ماذا عملت بعقلك ؟ هل استخدمته فى التفكير فى عمل الشر وإيجاد الضغائن وتأليف الكتب والمقالات الكفرية وغيرها من الامور الضارة للعالم . أم استعملته فى التفكير فى محبة الهك وفى تأليف الكتب التى من شأنها تهذيب الآخرين وفى عمل الخير ونشر ألوية السلام بين الناس ؟

لقد وكلتكم على روح ، فهل اهتممت بها جيداً ؟ هل اعتبرتها ذات قيمة فى نظرك وشعرت انك لا تستفيد إذا ربحت العالم كله وخسرتها ؟ أو أنك عشت كالبهائم التى لا تدرك .

أيضاً وكلتكم على أموال ، كثيرة كانت أو قليلة ، فكيف تصرفتم بها . هل صرفتم فى ملذاتكم وشهواتكم الدنيوية أم استعملتم فى عمل الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك من الأعمال النافعة .

وأيضاً أعطيتكم وقتاً . فكيف قضيتهم ؟ هل فى لعب القمار والجلوس بالمقاهى ومحلات الألعاب الرديئة وغير ذلك من الأمور الممقوتة . أم قضيتهم فى السعى وراء الأمور الضرورية لخلاص نفسك وفى عبادة ربك وعمل مشيئته وخدمة الآخرين !

« أعط حساب وكالتك » هل أحببت الله حباً خالصاً حقاً . هل كنت تقود الناس الى الخير أو الى الشر . كم قتلت بشكوكك ونيمتك وكم أفسدت . كم

اختلست من مال غيرك ؟

« أعط حساب وكالتك » أين وضعت نفسك . أين جعلت صورتك . أين القيت وزنتك ، أفي حماة الزنى الرجسة . أفي نجاسة الفسق ودنس الفجور . أفي لحد النهم والسكر ! أفي قبر الطمع والشراسة .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها المحبون للفضة والبخلاء ، أيها الخطفة والمرابون . أيها الخائنون . أين وضعتم قلوبكم ؟ أفي رمس الاحتشاد والاستكثار ! أفي قبر الجور والظلم ! أفي لحد الخطف والنهب .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها الخاقدون . أين وضعتم ضمائرهم وأفئدتكم ؟ أفي قبر الوشاية والسعاية ! أفي لحد الاساءة والضرر ! أفي قبر القتل والعداوة !

« اعطين حساب وكالتكن » أيتها النساء الجاهلات المتراخيات . أين وضعتن قلوبكن ؟ أفي أيدي ابليس المحتال . أفي أيدي السحرة والمنجمين ! أفي التزين والتجمل . أفي تحسين الوجوه بالأدهان واللطوخ وبقيّة الآلات الشيطانية ! .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها الرعاة الذين سلمت اليكم النفوس لترعوها . أين وضعتم عقولكم وقلوبكم ! أفي اتباع نواميس وشرائع أم في عادات العالم الجاربه . أفي التصرف بارادتي ومشيتي أم في هوى أميالكم البشرية الشريرة فكنتم عثرة للآخرين !

« اعطوا حساب وكالتكم » هل فيكم جميعاً من يحتاج أنه أخطأ جهلاً ؟ أيها الخطاة : لو قلت ذلك لقامت عليكم المناير وجميع أجراس الكنائس والأسفار الالهية وخدام الكلمة وكذبوكم لأنهم طالما نصحوكم والتمسوا منكم أن ترجعوا عن غيركم ولكنكم رفضتم المعرفة ولذلك أنا أرفضكم (هو : ٤ : ٦) .

هل تحتاج انك حملت على الخطأ مكرها ! هل تقول انك لأجل مولاك أوصاحبك شهدت زوراً أو سرقت سرقة أو سعت في سبيل الاتم ! هل تقول انك لأجل أن تعمل عائلتك غالطت في الميزان وغشيت في المكيال ! هل تعتذر أيها

الرجل بامرأتك ! هل تعتذرى أيتها المرأة بزواجك ؟ كلا . كلا . أنت بلا عذرايها
الانسان (رو ٢ : ١) لم أترك فى كتابى أى ارشاد إلا وقدمته لكم فلو فحصتموه
لعرفتم قوانين هذه الدينونة . لقد سبق أبوكم آدم وستر نفسه بأوراق التين ولكن لم
تحف عني خطيئته فاعتذاراتكم لا تستر عيوبكم . أنا فاحص القلوب والكلى .
عرفت أن الذى دفعكم الى الشر ليس التخلص من الفقر أو ضغط الآخرين
عليكم بل هو ميلكم الفاسد ورغبتكم الشريرة .

قال أحدهم « حينئذ يقول المخلص للخاطن لقد رفضتني ورفضت تعليمي . لقد
بذلت نفسي من أجلك واشتريتك بدمي فلم أبغضتني مجانا ؟ مهدت لك طريق
الحق لئلا تعثر رجلك . فلماذا عرجت عن طريقى وسلكت فى سبلك التى أفضت
بك الى هذه الهلاك ؟ بشرتك بالخيلى بأفواه عبيدى وبكلمتى المكتوبة . فلم
سددت أذنيك ؟ وبماذا تجيب عند ذلك . أن أجبت بالكذب فترى على من
تكذب ؟ أتكذب على فاحص القلوب والكلى ؟ وإن أجبت بالصدق فإن وقت
التوبة يكون قد فات لأن اليوم هو يوم الدينونة ولا يقبل فيه عذر ولا رجاء . وما
أعظم جهل الذى يرفض الآن بشارة الانجيل التى تقود الى الحياة الأبدية ويصنع
بيديه آلة هلاكه الأبدى . ويسير على قدميه الى هوة الهلاك مختاراً و يغمض عينيه
لئلا يرى النور . ويسد أذنيه لئلا يسمع الحق . وإن قال أحدهم اننى كنت أخالف
شريرة الله وأعرف أننى قد فعلت إثماً ولكن لا أعرف ماذا أصنع لأتبرر فأجيبه .
أيها الأخ الحبيب : أما تعلمت منذ صباك الأسفار المقدسة وسمعت كلام الحق ؟
أما تذكر أنك حالمًا بلغت الصبوة أخذ والداك يلتفتانك لتتطرق باسم يسوع كأنها
يريدان أن يرضعاك اياه مع اللبن وكم من مرة رفعاً أيديهما الى السماء متضرعين الى
يسوع المسيح من أجلك . ولما صرت فى سن التمييز كم مرة سمعت كلام الله فى بيته
وكم عظة بلغت أذنيك . فمن يقبل بعد ذلك عذرك ؟ من يعذر جهلك ؟ ومن يصدق
أنك لم تعرف الطريق المؤدى الى الخلاص وأنت مسيحى تهذ ليلاً ونهاراً بتلاوة
الانجيل المقدس إن النور الطبيعى عنه كاف لأن يدللك على طريق الخلاص ،
والشريرة المطبوعة فى ضميرك تكفى لأن تحثك على السعى فى طريق الحياة فكم
بالحرى إذا كانت الشريرة المكتوبة أمام عينيك الجسدية تحثك كل يوم وكل

ساعة ، فعذرک من هذا القبيل غير مقبول فانك عرفت جيداً طريق الحق إلا انك لم ترد أن تسلك فيه . وإن قال آخر قد عرفت بشارۃ الانجيل وتعلمت الأسفار المقدسة منذ صباى ولكن لم أر أحداً يسير بموجبها فلهذا تغاضيت عن أمر الخلاص قائلاً ما إذا إلا واحد من كثيرين و « فى يوم الله يعين الله » فأنا أجيئه قائلاً أيها الأخ الحبيب لقد خدعك الشيطان بهذا الفكر الردى ليلهيک عن تدبير نفسك وتجهيز الاعمال الصالحة ليوم الدين وأنت تعلم جيداً أن لك نفساً واحدة لا غير وفى يوم الحشر ستكون ملزماً أن تقدم جواباً لله عنها وحدها لا عن غيرها فمالك إذاً وقريبك ! هل أقامک الله وكيلاً أو محاسباً على أنفـس عبـيده ؟ وهل يجازيك بذنب غيرك ؟ فأنت تقول انك تعرف البشارة المقدسة وقد درست الأسفار الالهية منذ صباك وإن الحق والحياة فيها . أما قال الله لا تدينوا لئلا تدانوا وبالكيل الذى تكيلون به يكال لكم !

فدبر نفسك يا أخى ولا تشغلن أفكارک بما لا يعينک . فكل هذه الأفكار ما هى إلا وساوس ابليس ونتائج قساوة القلب فلا فائدة لك من هذا العذر مطلقاً بل بالعكس تزيد على أثمک بالنسيئة التى تم بها على قريبک الذى لست بملزم أن ترد عنه جواباً فى يوم الدين . لأن فى ذلك اليوم كل واحد يقدم جواباً عن نفسه فقط وكل مجرم يحاسب على ذنوبه الشخصية . فهذه الحجج التى تقدمها لتعذر بها عن معصيتک ورفضک النور الالهى باطلة . وأنت تعرف أنك أثمت ولكن أميالك المعوجة وارادتک المتصلبة لا تدعک تعود الى سبل الهداية والحياة . فويل ثم ويل لمن يظن أنه باعتذاراته يقدر أن ينجى نفسه من رجز الله فى يوم النسيئة . لأن ذلك اليوم هو يوم الحساب وليس يوم الاعتذار وأنا أكرر القول الويل لمن لا يسمع كلمة الله . الويل لمن يرفض بشارۃ الانجيل وينشغل بملذات هذه الحياة الفانية التى تزول مع الزمن . ستندمون أيها الخطاة حيث لا يفيد الندم وتعصون البنان تحسراً . سيروا الآن فى طرقکم الملتوية وتناسوا يوم الآخرة ، ذلك اليوم الرهيب .. واغمضوا أعينکم عن النور . وأقيموا لأنفسکم حججاً ولكن ستندمون حين تقفون أمام الديان العادل لتعطوا جواباً عن كل ما فعلتم فى دور هذه الحياة عندما تفتح مصاحف ذنوبکم وتراها كل عين . سـروا الآن وابتـدعوا لأنفسکم سنناً وشرائع لتفتلتوا من طاعة

المسيح الذي حرركم من نير عبودية الجحيم . ولكن ستعلمون في يوم الدينونة انكم قد بنيتهم على رمل وإن جميع أعمالكم ما هي إلا قش تقع عليه نار السعير الدائم فيحترق وأى احتراق .

فبماذا يجيب الانسان حينئذ ! لقد أخبرنا الكتاب أن كل الذين كشفت لهم عيوبهم وسئلوا عنها لم يستطيعوا أن يقدموا جواباً . لقد قال ناثان لداود بعد أن أوضح له خطيته : « أنت هو الرجل » فلم يجب بكلمة (٢ صم ١٢ : ٧) ولما وبخ ايليا أنخاب الملك لاغتصابه كرم نابوت لم يلق جواباً (١ مل ٢١ : ٢٩) ولما وبخ الذى حضر الى العرس وليس عليه ثيابه بالقول « يا صاحب كيف دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس » يقول الكتاب « فسكت » (مت ٢٢ : ١٢) هكذا يكون في يوم الدينونة ، ليس للخاطي حينئذ إلا أن يسكت .

وبعد نهاية المحاسبة يتقدم المشتكون والشهود فيقف الشاهد الأول وهو « الشيطان » و يشهد على الخطاة ثم يكشف لك واحد منهم جميع ما صنع من الآثام والشروع معينا له الوقت الذى ارتكبها فيه بالتدقيق وبعد ذلك يصيح قائلاً « إن هذا الانسان صار ملكاً لى لأنه ارتضى فى الأرض أن أملك عليه وعمل بوصاى وأطاع مشورتى فينبغى أن يكون حيث أكون أنا فى المكان المعد لى (مت ٢٥ : ٤١) .

ثم يتقدم الشاهد الثانى وهو « الخطايا » و يقف أمام ضمير كل انسان فيرى ما ارتكبه منها مخطوطاً بعروف من نار و يرى كل أنواع قساوته وتسامحه وفخخته وغروره وكل أنواع رجاساته ودعارته وكل نواياه وخفياه وكأن هذه الخطايا تقول له « بما أنك أحببنا فى الأرض وملت الينا فلذلك تعلقنا بك الى النهاية وأتينا برفقتك الى هذا المحشد ولا نفارقك الى أبديين » .

ثم يتقدم الشاهد الثالث وهو « كفارة المسيح والفداء الذى افتدى به البشر » . قال القديس يوحنا ذهبي الفم « إن جراحات المسيح تشهد على ذنبك أيها الخاطي . ومسامير يديه ورجليه تشتكى عليك ، وصلبيه يهتف ضدك » .

قال أحد الأفاضل « ليس غيظ أشد من غيظ الصديق من صديق له خانه أو غيظ الأب من ابن له أهانه ، أو ألم العريس من عروسه إذا خالفت مشيئته لأنه كلما كانت روابط المحبة أمتن وأشد كان الغيظ إذا ما صدرت أمور تتنافى مع هذه المحبة أعظم وأنكى » فما أمر التوبيخ الذى يوبخنا به مخلصنا الالهى إذ يرينا صليبه المقدس الذى قد هدرنا نحن كل ثمنه ، و يظهر لنا جراحاته و يذكركنا بدمه الذى سفك من أجلنا . ما أشد الغيظ والغضب اللذين ينظر بهما الى الخطاة الذين من أجل خلاصهم قد تحمل أشد صنوف الآلام مدة حياته على الأرض ليعدهم الميراث السماوى المخلد . انه تقديس اسمه سيديهم لأنهم كفروا به ، و بهينهم كما أهانوه ، و ينسأهم كما نسوه . فمن يقف أمام غضبه ؟

وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الأشرار من الأبرار ، فيقف الأبرار عن يمين الديان أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعاً على اليسار نظير الجداء المعدة للذبح كما يقول أيوب « انه ليوم البوار يمسك الشرير ليوم السخبط يقادون » (أى ٢١ : ٣٠) وهم ينتظرون الحكم الرهيب الذى يقضى عليهم بالهلاك الأبدى .

انما هنا نجد الأشرار يحتقرون الأبرار و يزدرون بهم فيعيش الخطاة فى سعة وسرور ورحب ، و يعيش المؤمنون فى ضيق وكرب ، ولكن أيها الصديقون لا تحزنوا ، ولا تكتئبوا أيها الأبرار فسوف يأتى وقت فيه تقام دعواتكم حيث ينتقم الله من الظالمين وحيث يتحول حزنكم الى فرح (يو ١٦ : ٢٠) أما أنتم يا محبى العالم فهناك بلا ريب تغيرون أفكاركم وتندبون جهلكم . قال الكتاب واعدأ البار « إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار » (مز ٩١ : ٨) وقال أيضاً « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها ... وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم » (ملا ٤ : ٣ و ٢).

فحينئذ يتبدل الحال و يتغير فمن كان عالياً ينحط ، ومن كان منخفضاً يرتفع . ووقتئذ يقوم هابيل زاجراً أخاه التبعس قاين ، و يلتفت يوحنا المعمدان الى هيرودس مبكثاً ومعنفاً وهكذا يقوم المظلومون على الظالمين والمحترقون على العظماء . نعم يقوم موسى على فرعون . و نابوت على أخاب . وإيليا على ايزابل .

وداود على شاول . هناك يتقدم هيرودس ليجازى على ما صنع وتلتهب أعضاء
نيرون بنار غضب القدير . أما بولس فيطلب لكى يأخذ الاكليل الذى أعده الله
للذين يحبونه . وبطرس يتقدم ليستلم الميراث الذى لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل
المحفوظ لأجله فى السماوات « طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله .
طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكين الآن لأنكم
ستضحكون ... ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلت عزاءكم .. ويل لكم
أيها الشباعى لأنكم ستجوعون . ويل لكم أيها المضحكون الآن لأنكم ستحزنون
وتبكون » (لو ٦ : ٢٠ و ٢١ و ٢٤ و ٢٥) .

عند ذلك لا يجد الأشرار مفرأ من العقاب ولا مهرباً من العذاب لأنه « خفيف
هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١) فلا يستطيع الخطأى أن ينظر شيئاً
لأن الديان نفسه هو العارف والشاهد (أر ٢٩ : ٢٢) ولا يكون له أى وجه فى
نقض الحكم والتماس اعادة النظر فيه لأن الله يحكم بغير محاباة حسب عمل كل
واحد » (١ بط ١ : ١٧) وبالاجمال يقفل دونه كل باب وينتزع منه كل رجاء
ويحل به اليأس المفرط . أما الأبرار الصديقون فانهم يكونون على حال من السرور
والانشرحاج أجل من أن توصف « بهذا تكلمت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة فى يوم
الدين » (١ يوح ٤ : ١٧) ثم يلتفت يسوع اليهم جميعاً بوجه يعلوه السرور ويخاطبهم
بكلمات رقيقة حلوة قائلاً لهم « تعالوا يامباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ
تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) وهكذا فى وسط الأصوات المبهجة والتراتيل
اللذيذة يصعدون بجلال فوق الكواكب ويستوون على عروش المجد الى أبد الدهور .

فهيأ أيها الأبرار هيئوا ذواتكم للسعادة الدائمة ، انهضوا لها فقد آن الأوان لتكلموا
بعد انتهاء الجهاد . ابصروا المسيح الذى تاقت نفوسكم اليه . هيأ فاعينوا مملكته
السى أعدها لكم . هيأ فابصروا الرب الذى أحبكم وأحببتموه وافرخوا معه فرحاً
لا يوصف وليس ينزع أحد فرحكم . هلموا فتمتعوا بالخيرات التى لم ترها عين ولم
نسمع بها أذن ولم تخطر على بال انسان .

حينئذ يقول البار بأعلى صوته « ما أجل هذا الملك العجيب الذى شراه لنا

المسيح بدمه الثمين؟ يا لها من محبة عظيمة أن يكون هذا ثمرة الايمان وآخرة عمل الروح! هل ساقطتني رياح النعمة فأوصلتني الى هذا المرفأ الأمين؟ ألهذا المجد الفائق كان يقتادني المسيح؟ يا لها من طريق مباركة وآخرة سعيدة، هذا هو المجد الذى تسكلم عنه الكتاب وكرز عنه الخدام، الآن أرى أن الانجيل هو بشارة مفرحة لجميع الشعب. أياثى بى نوحى والآمى وتعبى وانبى وهزء العالم بى الى آخره هذه أمجادها! ويحك أيتها الطبيعة يا من قاومت هذه البركات، ويحك أيتها النفس غير المستحقة لهذا المجد كم كنت تأبين السير نحوه؟ ويحك أيها القلب الخداع كم كنت تريد أن تسلمنى الى اللهب الأبدى وأن تحرمنى من هذا المجد! ويحك أيها الجسد الساقط كم كنت تطمع فى الملذات لتحرمنى هذه السعادة العظمى! أما كنت تحضنى على ركوب متن الشر لأبتعد عن الاستقامة؟ أما كنت تجربنى الى الشك والريب؟ ويا نفسى إلا تمتعين خجلاً من طمعك فى الابتعاد عن الحق الذى لولاه ما جننت الى هنا؟ ألا تحجلين إذ كنت تتملصين من محبة القدير؟ ألا تحجلين إذ كنت تفكرين بأمور رديئة عن الله؟ ألا تحجلين من عزمك سابقاً على الهروب من العناية الالهية التى لولاها ما وصلت نهاية هذه الطريق. والآن إذ أنت مقتنعة أن الطريق التى كنت تسميها «صعبة» والكأس التى كنت تقولين أنها «مرة» إنما كانتا ضروريتين لك وإن الله قصد بها خيرا، فقد كان يصلب أشواقك ويكسر قلبك ويجبره، كل هذا لخلاصك فالفضل لنوالك هذا الاكليل ليس راجع اليك، ولكنه راجع الى يهوه والحمل الى الأبد».

ثم يلسف الديان نحو الأشرار بوجه يتقد غضب و يناديهم بصوت الانتقام « اذهبوا عنى ياملاعين الى النار الأبدية المعدة لأبليس وملائكته » (مت ٢٥ : ٤١) وهذا الحكم يتضمن عقابين : الاول « اذهبوا عنى عقاب الخسران والثانى » الى النار الأبدية « وعقاب الخواس . فهو يقول لهم اذهبوا عنى أنا الحكم الذى منى خرجتم والى مضيركم ، اذهبوا عنى أنا الذى تجسدت وتألمت لأجلكم ولم تقدروا ذلك ، اذهبوا عنى أنا الذى طلبتكم بالحاح لترجعوا الى فلم تسمعوا الى نصحى .

اذهبوا عنى وعن ملائكتى وعن قديسى وعن سمائى . اذهبوا عنى لا لتعودوا الى الارض لتنعمو ثانية ، بل الى النار الأبدية لتعذبوا الى الأبد « فيكون عوض

الطيب عفونة ، وعوض المنطقة حبل . وعوض الجدائل قرعة وعوض الدياج زنار
 مسح وعوض الجمال كى » (اش ٣ : ٢٤) « أحببت اللعنة فأنتكم ولم تسروا
 بالبركة فتباعدت عنكم فلبستم اللعنة مثل ثوب قدخلت كميأه فى أحشائكم
 وكزيت فى عظامكم . لتكن لكم كثوب تتعطفون به وكمنطقة تمنطقون بها دائماً
 هذه أجرة مبغضى من عند الرب وأجرة المتكلمين شراً على نفسى »
 (مز ١٠٩ : ١٧ - ٢٠) « اذهبوا عنى يا ملاعين » ملاعين من قبل أبى الذى
 أحسن اليكم ، ملاعين من قبلى أنا الذى فديتكم ، ملاعين من الروح القدس
 الذى رفضتم دعوته . ثم يأمر ملائكته قائلاً خذوهم من أيديهم وأرجلهم واطرحوهم
 فى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، فيتقدم الملائكة لتنفيذ
 أمر سيدهم فيحملون الخطاة الى النار الأبدية و يسوقونهم أمام أعين الصديقين
 فتنشق الأرض وتفتح جهنم جوفها فتبتلعهم ويغوصون فى لججها الى الأبد ، ويتم
 بذلك قول داود النبى « مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب بسخطه يبتلعهم
 وتأكلهم النار » (مز ٢١ : ٩) .

قال علماء الطبيعيات وعلى الأخص بلوطرخس الحكيم « إن الصاعقة حينما تقع
 تسحق الأشياء الصلبة القاسية وتطحنها وأما الأشياء اللينة الرخوة فلا تضرها
 ولا تؤذيها » وسيكون هذا الأمر بعينه فى الدينونة الرهيبة ، فإن الديان العادل يزعج
 الخطاة غير التائبين المتكبرين القساة . أما المتواضعون والتائبون فيرق لهم
 ويرحمهم . فحينئذ يتعذب الأشرار إذ يذكرون تنعمهم . و يقولون لأنفسهم مع
 الغنى الذى رأى لعازر المسكين مجداً بينا هو معذب « لقد خدعنا أيتها النفس
 الرديئة ، حببى لنا اللذة لتقودينا الى الهلاك الأبدى فيا ويلنا وبالشقاوتنا » .

قال متى : أيتها النفس الشقية تلبشين فى قساوتك وفى عصيان الهك وهذه
 الدينونة المريعة تنتظرك ، علينا اذن أن نستعد لأخماد غضب الديان بأيماننا الصحيح
 المشمر اعمالاً صالحة . ما بالنا نبكى على موتانا بكاء حاراً ولا ننظر الى نفوسنا
 المنفصلة عن الله ولا ننديها ونرثها . فلنسكب دموعاً غزيرة على خطايانا لنستطيع
 أن نطقى بها اللهيب المشتعل المعد لكل نفس تموت بخطيئتها .

الفصل الثالث والعشرون فى افتضاح المنافقين

« هانذا عليك يقول رب الجنود فما كشف أذبالك الى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والمنالك

خزبك » (ناحو ٥ : ٣)

إن كثيرين من المؤمنين يؤمنون إيماناً لفظياً لا غير . فهم يتكلمون عن الايمان وينادون بالايمان و يعطون بالايمان ولكنهم بلا ايمان فى أنفسهم من الداخل ، وقال عن أمثال هؤلاء بولس الرسول « لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغبرون شكلهم الى شبه رسل المسيح . ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك نور فليس عظيماً إن كان خدامه أيضا يغبرون شكلهم كخدام للبر الذين نهايتهم تكون حسب أعمالهم » (٢ كو ١١ : ١٣ - ١٥) .

وقد أوضح السيد المسيح انكشاف أمرور ياء المسيحى الخائن فى اليوم الأخير كما يظهر ذلك من قصة العبد الكسلان المذكور فى انجيل لوقا ص ١٩ ذلك العبد الذى عوضا عن أن يتاجر بالوزنة التى أعطيت له لفها بمنديل وطمرها . ولما جاء يوم الحساب جعل يعتذر عن تهاونه وخيائته بحجج باطلة فارغة لا تجديه نفعاً ، ولذلك حكم عليه سيده حكماً صارماً عنيفاً . ولا يخفى إن هذا العبد هو كناية عن جميع الاشرار المنافقين . والحكم الصارم الذى صدر ضده عبارة عن عاقبتهم الخيفة ومصيرهم الشنيع فى يوم الدينونة كما قال الكتاب « ويميت المنافق بنفخه شفثيه » (اش ٤ : ١١) .

فلا ينبغي أن يبرح من بالناس مصير الاشرار الخيف ونهايتهم المؤلمة حيث لا يفيدهم الرياء والادعاء بالتقوى ولا المظاهر الكاذبة التى يصورها نار غضب

القدير، نعم إن كثيرين من المسيحيين بالاسم في هذه الحياة لهم صورة التقوى ولكنهم يشكرون قوتها (٢: ٣: ٥) وكثيراً ما يتكلمون اظهار الصلاح والفضيلة ويتظاهرون أمام الجميع كأنهم أتقياء صالحون السيرة قديسون وقد تنطلى هذه الحيل والخداعات الباطلة على البشر الذين لا يعرفون من الانسان إلا ظواهره، ولكن مهما اغتر البشر في أمثال هؤلاء ومهما شهدوا لهم بالصلاح والتقوى فانه في اليوم الأخير سيفضحهم كاشف الخفايا والأسرار كلها العارف بما تكنه القلوب وما تطويه الصدور. لأنه ليس كما ينظر الانسان لأن الانسان ينظر الى العينين وأما الرب فانه ينظر الى القلب (١ صم ١٦: ٧) فانه سيظهر حقيقة الانسان المنافق لجميع البشر في ذلك اليوم فيسطر خطاياه أمامه بحروف من نار حتى يراها جميع الناس فيسند هشون ويقولون «أهذا الذي كنا نظنه ملاك نور؟» ولذلك يعلمنا الكتاب أن الرعدة تأخذ المنافقين (اش ٣٣: ١٤).

إن كثيرين تراهم يمزجون أنفسهم بأولاد الله حيث لا يمكنك تمييزهم منهم وهم أشبه بالزوان الذي ينبت مع الحنطة (مت ١٣: ٣٦) وكما أن الزوان لا يفرز عن الحنطة إلا في يوم الحصاد هكذا هؤلاء المراءون يبقون مختلطين بالمؤمنين حتى يوم الحساب حيث تصبح القلوب معلقة فوق الرؤوس والأعمال ظاهرة مكتوبة بحروف من نار يقرأها جميع البشر. لأن في هذا اليوم يدين الله سرائر الناس (رو ١٦: ٢) وقد شبه الرسول يهوذا هؤلاء بغيوم بلا ماء وبأشجار خريفية بلا ثمر (يه ١٢).

إن الهيئة المنظورة في هذا العالم هي كشبكة الصيد التي تجمع السمك من كل نوع (مت ١٣: ٤٧) هكذا هي تجمع البار مع الشرير وقد نجد كثيرين من الأشرار نظهم من أولاد الله وقد نحكم كثيراً على بعض أولاد الله بأنهم ليسوا بمؤمنين، ذلك لأننا نرى أولئك المنافقين المدعين بالدين والصلاح لا يتركون عملاً صالحاً إلا أتوه ولا أمراً مبروراً إلا مارسوه، فيصلون مع المصلين ويصومون مع الصائمين ويحسون مع المحسنين ولكن إذا استجلبنا كتبهم وجدناهم أبالسة وشياطين كالذين قال لهم السيد «أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم أن المستعلى عند الناس هو رجس قدام الله» (لو ١٦: ١٥) ولهذا يقول الرسول بولس

« إذا لا تحكموا فى شئ قبل الوقت حتى يأتى الرب الذى سينير خفايا الظلام
ويظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله » (١ كو ٤ : ٥).

كم من شفتين باسمتين تنطويان على قلب دنس ونفس فاجرة ! كم من ظاهر
مشرق بنور البر والطهارة يخفى داخله نية خبيثة !

كم من لطف منظور وحياء ظاهر يغطى شرارة فتن ودسائس !

آه لو أعطى لنا كشف ما يجرى « داخل المخادع » لوقفنا على حوادث مريعة
كافية لأن تصعقنا لا سيما من الذين نظنهم كملائكة الله الذين يتخذون الدين ستاراً
والتقوى حجاباً يخفون بهما ما يرتكبون من المعاصى والفجور .

« ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات »
(مت ٧ : ٢١) قال قسيس شيخ وهو قريب من الموت « اننى أتوقع إن سارى فى
السماء من لم أظنهم يدخلونها وأن لا أرى بعضاً ممن حسبتهم من أخص أهلها » اننا
أيضاً سنتعجب فى السماء عندما نرى الحقيقة هكذا فليس كل من يقول يارب
يدخل الى هناك ، ويدخلها كثيرون من الذين لم يتظاهروا بمظاهر التقوى ولكنهم
سقوا كأس ماء بارد لتلاميذ المسيح وعاشوا عيشة أهل الايمان منتظرين رحمة الله .

أجل . كما أن الأشجار المثمرة يبرز من باطنها الثمر مع الورق فى أوان الاثمار
هكذا فى ذلك اليوم المرهوب تبرز كافة الأشياء التى عملها الناس صالحة كانت
أم خبيثة ، ويحمل كل واحد أمام مجلس قضاء الحاكم الرهيب عمله كثمر وكلامه
كوقر « فليس مكتوم لن يستعلن ولا خفى لن يعرف . لذلك كل ما قلمتموه فى
الظلمة يسمع فى النور وما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح »
(لو ١٢ : ٣ و ٢) ستظهر حينئذ الخطايا التى أخفيت والأثام التى سترت والأفكار
التي يظنها الناس قد مرت فى ساحة الخيلة ورضى بها القلب ملتناً ثم عبرت .

كم من كثيرين يرتمون فى مضاجعهم ويفتحون باب فكرهم لأمر رديئة
تطرقه وهم مطمئنون لأنه ليس من سبيل لأحد أن يكشف ما يفكرون فيه ولكنهم
يتعجبون عندما يرون هناك أنها لم تكن خافية على اله السماء والأرض ويخزون عندما

يرونها تتسراى أمامهم كأنهم فكروا بها أمس فقط كم من خطايا ارتكبتها الانسان ونسيها وأهلها ولم يعد يفكر فيها سوف يراها مكشوفة أمامه كأنه لم يمض زمن على ارتكابها إياها فبم قول الكتاب « منه ترتعد الشعوب . كل الوجوه تجمع حمرة » (يو ٢: ٦).

كم من الشرور مكتومة . كم من الرذائل مخفية . كم من الأثمة لا يعرفهم أحد ، كم من انسان يلبس ثوب الرياء و يغطي به فساد و يظل محتفظاً بهذا الثوب الذى يحرص عليه لامعاً براقاً الى أن يمثل أمام العدل الالهى ، وحينئذ تتقدم تلك اليد القادرة وتشق هذا الثوب ليظهر ما اختفى تحته من دنس وفجور ورداءة .

فهناك يشير الديان الى رجال كثيرين ممن كانوا يظهرون بمظهر التقوى و يقول إن من هؤلاء من كان زانياً ومن كان سارقاً ومن كان كاذباً قبيحاً و يشير الى كثيراً من اللواتى ظهرن بملابس الحشمة والوقار و يصرح بأن منهن من كانت شريرة ومن كانت خبيثة حسودة ، وهكذا ينكشف ما كان مخفياً و يظهر ما كان مطوياً ولا يستطيع أحد أن يصف مقدار الخجل الذى يستحوذ حينئذ على المرائين .

قيل إن فتاة سقطت فى اثم الدنس مع شرير ولما حملت منه ارتاعت عند تأملها فى ما سيصيبها من الخجل امام أهلها وامام الناس عندما يأيتها المخاض فأرسلت واستدعت الفتى الذى ائتمت معه وطلبت منه أن يقتلها فأحضر لها كأساً مسمومة فشربتها وماتت تخلصاً من العار .

فإذا كان خوف الانسان من أن تشهر خطاياها فى بيته أو مدينته عظيماً بهذا المقدار . وخشيته من أن يشير اليه الناس و يقولون عنه كلها رأوه بأن هذا هو الأثم لا يستطيع وصفها ، ورعبه من أن ينفض الناس من حوله بهذا المقدار لاشتهار شره جسيماً جداً . فإذا يكون شأنه حينئذ ينكشف أمره لا أمام أهله وأهل مدينته فحسب بل أمام الخلق بأسرها . لا عجب إن صح فيه قول أرميا النبى « قد سمعت الأمم بخزبك وقد ملأ الأرض عويلك » (ار ٤٦: ١٢).

قد يمكن هنا أن نستخدم وسائط من الحيل والخداع لنخفى بها عيوبنا عن

الناس ولكن هل نستطيع أن نخفيها عن الله؟ هوذا القديس باسيليوس يقول «إن الخجل الذى يرافق الهالكين دائماً و يستمر معهم هو أروع جداً من النار التى يصلونها» وقال الكتاب «يلبس مبغضوك خزيًا» (أى ٨ : ٢٢) وقال أيضاً «ليلبس خصمائى خجلاً ولتعتطفوا بخزيهم كالرداء» (مز ١٠٩ : ٢٩) وقال أيضاً «فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التى خانونى اياها» (حز ٣٩ : ٢٦).

إن البشر يظنون هنا أن الله متغافل عن شروهم لأنه يؤخر عقابهم إلا أنهم سيعلمون فى يوم الحساب أنه كان يطلع عليهم و يعدد ذنوبهم وهوذا أرميا النبى يقول «القلب اخدع من كل شئ وهو نجيس من يعرفه أنا الرب فاحص القلب مختبر الكللى لأعطى كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله» (ار ١٧ : ٩ و ١٠) يعيش الخاطئ الآن فى ظلام وكأنه لا يرى خطاياه ولكن الله فى اليوم الأخير سيلاشى هذا الظلام و يظهر النور فى وسط قلب الخاطئ ليرى تفاقم شر الخطية الذى كان يستخف به ويحسبه كلا شئ ولهذا يقول المخلص «ها أنا آتى كلص . طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمشى عرياناً فيروا عورته» (رؤ ١٦ : ١٥).

أجل أن هذا الرياء وذاك النفاق سينكشفان و ينفضح أمرهما وأولئك المتظاهرون بالفضيلة ستظهر حقيقة حائهم ، ولا أدل على هذا أكثر مما كتب فى احدى سير الآباء . ذلك أن راهباً من الأتقياء الصالحين أخذ ذات ليلة يتأمل فى حقيقة الدينونة ويمعن النظر العقلى فى قول رسول الأمم الى أهل غلاطية «ولكن ليمتحن كل واحد عمله وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره . لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه» (غلا ٦ : ٤ و ٥) وفى قوله لأهل رومية «الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله» (رو ٢ : ٦) وفى قول داود النبى «لأنك أنت تجازى الانسان بعمله» (مز ٦٢ : ١٢) وفى قول سليمان «أفلا يفهم وازن القلوب وحافظ نفسك ألا يعلم فيرد على الانسان مثل عمله» (أم ٢٤ : ١٢) وفى قول ارميا النبى «أنا الرب فاحص القلب مختبر الكللى لأعطى كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله» (ار ١٧ : ١٠) وقول المسيح «فإن ابن الانسان سوف يأتى فى مجد أبهى مع ملائكته وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله» (مت ١٦ : ٢٧) فاستغرق الراهب متأملاً فى هذه الأقوال الرهيبة نحو

ساعتين متواليتين ثم انتقلت أفكاره الى ما يوافق ذلك من الأقوال الالهية مثل قول الأمثال «لأن طرق الانسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سبله» (أم ٥ : ٢١) وفي قوله «كل طرق الانسان نقيية في عيني نفسه والرب وازن الأرواح» (ام ١٦ : ٢) وقول الجامعة «لأن الله يحضر كل عمل الى الدينونة على كل خفي إن كان خيراً أو شراً» (جا ١٢ : ١٤) فازداد قلقه وأرقه وأخذ يقول في نفسه ما أصعب ذلك اليوم وما أشد هوله ! كيف يحمل الانسان حمل نفسه ولا يساعده في ذلك الحمل أحد . فطوبى لمن استطاع أن يخفف هذا الحمل بالتوبة النقية والأعمال المرضية والاتكال على بريسوع ، وليس على بره الذاتي لأن بر الانسان مهما كان فهو أنجس من خرقه الخائض . وقد سبح في هذه الأفكار كما يسبح الانسان في بحر زاخر لا أول له ولا آخر فغلب عليه النعاس ونام نوماً عميقاً وإذا شغلت هذه الأفكار ذهنه سببت له حلماء عجيباً وهو انه تصور نفسه منتقلاً بالروح الى حيث يدان كل انسان بعد موته في يوم الدينونة الرهيب ، فرأى المسيح جالساً على منبر العدل وعند كرسيه ملاك يمسك بيده ميزاناً ، ورأى الأرواح تمر أمامه وكل منها يحمل كيسين أحدهما مكتوب عليه (كيس الأعمال الصالحة) والثاني مكتوب عليه (كيس الأعمال الشريرة) ثم رأى الملاك يأخذ الكيسين و يضعهما في كفتي الميزان فإذا رجحت كفة الأعمال الصالحة يصدر الديان حكمه بادخال النفس الى فردوس النعيم حيث الهناء المقيم والسعادة الأبدية ، وإذا رجحت بالعكس كفة الأعمال الشريرة فإنه يصدر في الحال حكمه بطرح تلك النفس في النار المؤبدة المعدة لأبليس وجنوده .

وبينما هو مندهش من هذا المنظر رأى سيدة جميلة تظهر على هيئتها النبالة والحشمة ويتجلى عليها الشرف والوقار ، وتأمل في الكيسين اللذين تحملهما فرأى كيس الأعمال الصالحة أعظم من كيس الأعمال الشريرة وأكبر منه كثيراً جداً فانشرح صدره وتهلل وجهه بالفرح وقال حقاً إن هذه السيدة ستنال السعادة الدائمة ولكن بالشدة استغرابه وبالفراط دهشته فانه لما وضع الملاك الكيسين في كفتي الميزان رجح الكيس الاصغر في الميزان وارتفع الكيس الآخر الكبير الحجم الى فوق كأنه لم يكن . وفي الحال أصدر القاضي حكمه العادل بشجب تلك المرأة التعيسة

وطرحها فى الظلمة البرانية حيث البكاء وصرير الاسنان . قال الراهب صاحب
الحلم : فلما ازدادت حيرتى تجاسرت وتقدمت نحو الملاك وسألته كيف أن ذلك
الكيس الحقيقى الصغير يرجع فى الميزان على الكيس الكبير ؟ فقال لى تقدم أياها
الانسان وانظر الى ما بداخل كل من الكيسين فتفهم السبب . قال ذلك وفتح أولاً
الكيس الكبير فوجدته مفعماً بأكياس صغيرة مكتوباً عليها العناوين الآتية
(صلوات . تأملات . اعترافات . مناومات . صدقات . زياره مرضى . عيادة
مسجونين . كساء عراة . اطعام جياع . تربية أيتام . اعالة أرامل . سماع عظات .
حضور قداسات) وما شاكل ذلك من أعمال الخير . فازدادت اندهاشاً وحيرة ولم
أفهم كيف إن أعمالاً عديدة كهذه كلها صالحة وتقوية لا تكون راجحة فى كفة
الميزان الالهى واضطربت أفكارى وتغير لونى وكدت أشك فى عدالة الله . فقال لى
الملاك لا تستعجب ولا يعترينك أقل ارتياب فى عدالة الرب الرؤوف الرحيم ، ثم
فتح الكيس الآخر فأرأنى صرة صغيرة مكتوباً عليها (نفاق ورياء) وقال اعلم أن
جميع أعمال هذه السيدة لم تكن صادرة عن محبة فى يسوع المسيح لأنها ما كانت
تعمل عملاً خيراً إلا بقصد الافتخار والتباهى واستجلاب المدح من الآخرين .
ولأجل الربح الذاتى فاستوفت بذلك أجرتها فى حياتها لأنها لم تسمع لقول القادى
فى وجوب عمل الصدقة فى الخفاء .

فتذكرت حينئذ ما قيل فى كلمة الوحي عن النفاق والرياء من أنه من صفات
الأشرار إذ قيل « قد حرثتم النفاق حصدم الاثم أكلتم ثمر الكذب »
(هو ١٠ : ١٣) وقيل « وأعاقب المسكونة على شرها والمنافقين على اثمهم »
(اش ١٣ : ١١) وقد حذرنا المسيح منه إذ قال « تحرزوا لأنفسكم من خمر
الفريسيين الذى هو الرياء » (لو ١٢ : ١) وقال لنا بلسان رسله إن المحبة يجب أن
تكون بلا رياء (رو ١٢ : ٩) وكذلك الايمان (١ تى ١ : ٥) والمحبة الأخوية
(١ بط ١ : ٢٢) وأن على المسيحى الحقيقى إن يطرح كل مكرو رياء
(١ بط ٢ : ١) وإن المرائين يقطع نصيبهم من الملكوت .

تذكرت ذلك فعلمت أن السيدة المذكورة قد استحققت المجازاة عدلاً بطرحها فى
البحيرة المتقدة بالنار . ولما استيقظت من نومى كتبت أحلامى عساها تنفع كل من

يقرأها و يسمعها . فياليتنا نتجنب فعل ذلك الفريسي الذى وقف يصلى ويقول
اننى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين ولا مثل هذا العشار . وليتنا نفتدى
بالعشار الذى لما دخل الهيكل لم يشأ أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره
قائلاً اللهم إرحنى أنا الخاطئ ، ونقول مع عزرا « اللهم انى أخجل وأخزى من أن
أرفع ياهلى وجهى نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا واثامنا تعاظمت الى
السماء » (عز ٩ : ٦) .

كثيرون يجعلون عبادتهم مجرد فلسفة كلامية وفصاحة منطقية فيلقون المواعظ
المؤثرة ويخطبون الخطب الرنانة ولكنهم لا يصدرون ذلك كله إلا من الشفتين وأما
القلب فشغول بأمور أخرى ولذلك يقول الكتاب « لئلا أجردها عريانة وأوقفها
كيوم ولادتها » (هو ٢ : ٣) .

كم من الكهنة وخدام الكلمة والوعاظ الذين يلبسون الملابس السوداء المحتشمة
ويمسكون بأيادهم الصليبان الذهبية و يضعون على صدورهم القرايين والأنجيل
ينكشف حالهم فى يوم الدين وتكون لهم هذه الادعاءات والمظاهر المصطنعة ناراً
حامية تصلى أجسادهم وتحرق صدورهم . قال السيد المسيح عن أمثال هؤلاء إن
كل أعمالهم يعملونها لكي ينظرهم الناس فيعرضون عصائهم و يعظمون أهداب
ثيابهم .. ولعله يطيلون صلواتهم » (مت ٢٣ : ٥ و ١٤) وقد شبههم بالقبور المبيضة
(عدد ١٧) أولئك الذين اتخذوا الدين سلعة يتاجرون بها على عقول الناس ، الذين
لم ينسخطوا فى سلك الخدمة الدينية إلا لما ضاقت فى وجههم سبل الخدمة العالمية
وصاروا للغير قدوة رديئة ومثالاً سيئاً وبذلك يضاعفون عقابهم و يذخرون لأنفسهم
غضباً ليوم الغضب ويحل بهم الهلاك الذى توعد به الرب الرعاة غير الأمناء الذين
بأفواههم يباركون و بقلوبهم يلعنون (مز ٦٢ : ٤) الذين يقولون « الرب لا يرانا .
الرب قد ترك الأرض » (حز ٨ : ١٢) هؤلاء الذين يشير اليهم السيد بقوله : اجتهدوا
أن تدخلوا من الباب الضيق . فانى أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا
ولا يقدرون بعدما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأت تقفون خارجاً
وتقرعون الباب قائلين يارب يارب افتح لنا يجيب ويقول لكم لا أعرفكم من أين
أنتم . حينئذ تبتدون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت فى شوارعنا . فيقول لكم

لا أعرفكم من أين أنتم تباعدوا عني يا جميع فاعلى الظلم (لو ١٣ : ٢٤ - ٢٧)
وقوله « كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب أليس باسمك تنبأنا وبأسمك
أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة فحينئذ اصرح لهم انى لم أعرفكم
قط . اذهبوا عني يا فاعلى الاثم » (مت ٧ : ٢٢ و ٢٣).

وقد علمنا الانجيل المقدس اننا إذا صلينا أو صمنا أو تصدقنا فيجب إن لا نكون
كالمرايين الذين يعملون هذه الأمور فى الشوارع لكى يظهروا للناس بل يجب علينا
أن لا نعرف شمالنا ما تفعل يميننا ونباشر الفضائل فى الخفاء وأبونا الذى يرى فى
الخفاء يجازينا علانية (مت ٦ : ١ - ٨) لأن الحكم فى يوم الدينونة سيكون على
ما تكنه القلوب لا على ما تخرجه الأفواه فباطلاً نتكلم إذا كنا لا نعمل . لقد كان
بنو اسرائيل يعبدون الله هذه العبادة ولكنه رفضها وسد أذنيه عن سماع صلواتهم
وقال « لأن هذا الشعب قد اقترب الى بغمه وأكرمنى بشفتيه وأما قلبه فأبعده
عنى » (أش ٢٩ : ١٣) وقال أيضاً لحزقيال « و يأتون اليك كما يأتى الشعب
ويجلسون أمامك كشعبى و يسمعون كلامك ولا يعملون به لأنهم بأفواههم يظهرون
أشواقاً وقلوبهم ذاهب وراء كبهم » (حز ٣٣ : ٣١).

إن الرب يكره الرياء لأن المرأى ينسب الى الله الجهل كأنه انسان يرضه
الأكرام بالشفعتين ولا يعرف ما فى القلب . والكتاب يعبر لنا عن الله إن له عينين
كلهيب نار (دا ١٠ : ٦ ورؤ ١٩ : ١٢) و يقول عنه أيضاً « وليست خليقة غير
ظاهرة قدامة بل كل شئ عريان ومكشوف ليعنى ذلك الذى معه أمرنا »
(عب ٤ : ١٣).

فليعلم كل واحد إن اعترافه الظاهر بالدين بغمه لا يضمن له الخلاص
ولا يكفل له النجاة إنما القلب المتخضع المتواضع هو مسكن الله وهيكله الحى . وهو
سيؤثره على عمود السحاب والنار والمسكن وقُدس الأقداس . فهوذا مسكن الله مع
الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم
(رؤ ٢١ : ٣) وقال المرتل « لأنه هو يعرف خفيات القلب » (مز ٤٤ : ٢١).

الفصل الرابع والعشرون فى صعوبة الانفصال الأبدى

« فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدي والأبرار الى حياة أبدية » (مت ٢٥ : ٤٦)

قد عبرت الكتب المقدسة عن التمييز بين الأبرار والأشرار فى اليوم الأخير
بعبارات مختلفة :-

أولاً : بتمييز المعادن المختلفة . والى ذلك أشار الرسول بولس بقوله « ولكن إن
كان أحد يبني على هذا الأساس ذهباً فضة حجارة كريمة خشباً عشباً قشاً فعمل
كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبينه لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل
كل واحد ما هو » (١ كو ٣ : ١٢ و ١٣).

ثانياً : بتمييز التبن من الخنطة كقول يوحنا المعمدان « الذى رفشه فى يده
وسينقى بيده ويجمع قمحاً الى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ »
(مت ٣ : ١٢).

ثالثاً : بتمييز الراعى الخراف من الجداء بقوله « فيميز بعضهم من بعض كما يميز
الراعى الخراف من الجداء فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار »
(مت ٢٥ : ٣٢ و ٣٣).

رابعاً : بتمييز الزوان من الخنطة حيث يقول « دعوها ينميان كلاهما معاً الى
الحصاد وفى وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولاً الزوان واحزموه ليحرق . وأما
الخنطة فاجعلوها الى مخزنى » (مت ١٣ : ٣٠).

خامساً : بتمييز السمك الجيد من الرديء بعد اجتماعها فى شبكة واحدة بقوله «وجمعوا الجياد الى أوعية . وأما الأردياء فطروحها خارجاً . هكذا يكون فى انقضاء العالم . يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار» (مت ١٣ : ٤٨ و ٤٩).

إن الأشرار شديداً الرغبة فى الالتصاق بالأبرار ليخفوا بمصاحبتهم ما هم عليه من اثم ونفاق وقد يحاولون أن يخفوا شرورهم عن الناس لكى لا ينفضوا من حولهم . فكم اذن يكون الافتراق صعباً عليهم حينما يأتى ملائكة الله ويخرجونهم من بين الأبرار فيقولون للخاطى «أية خلطة للبر والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة . وأى اتفاق للمسيح مع بليعال . وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن . وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان» ويقولون للأبرار «فانكم أنتم هيكل الله الحى كما قال الله أنى سأسكن فيهم وأسير بينهم وأكون لهم الها وهم يكونون لى شعباً . لذلك أخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم» (٢ كو ٦ : ١٤ - ١٧) يقولون للسارق لا تستحق أن تبغى مع الذى كان يأكل خبزه بعرق جبينه . ويقولون لمحب المال المرابى الظالم لا ينبغي أن يقف مثلك بجانب من كان يوجد بسخاء على المحتاجين . ويقول للندس لا تقف بجانب العفيف . وهكذا يتم الانفصال المريع بين الفريقين . حينئذ يؤخذ الواحد ويترك الآخر (مت ٢٤ : ٤٠) يؤخذ الابن ويترك الأب ، تؤخذ الأم وتترك الابنة ، يؤخذ الأخ ويترك الأخ الآخر ، يوضع الأبرار عن اليمين والأشرار عن اليسار ، يرتفع الأبرار الى فوق ويسقط الأشرار الى أسفل . يسمع الأبرار قوله «تعالوا» و يسمع الأشرار قوله «اذهبوا» وكلاهما يتفصل عن الآخر الى الأبد ..

وإذا كان الانسان الذى يطرد من جمعية أو من هيئة يعتريه غم شديد ، فأى عذاب يحل بمن يشاهد نفسه مرفوضاً من بين القديسين ومساقاً للوقوف فى صف الشمال مع الهالكين ؟ قل لى أيها القارئ العزيز على أى شئ حزمت وفى أى مكان من الاثنين تريد أن تقف ؟ أفى جهة اليمين أم فى جهة اليسار ؟ وأى الصوتين تحب أن تسمع . أتحب أن تكون حبيباً أم عدواً ؟ ما أروع الحالة التى ينتهى اليها الأشرار عندما يبعدون عن القديسين وهم يقولون لهم «يا لشقاوتنا

المؤبدة ويا للندامة التى لا تنتهى . طوباكم أيها الأبرار . يا لسعادتكم . يا لغبطتكم
ثم تنادى الام ولدها والاب ابنه والأخ أخاه والصديق صديقه قائلين لم يعد يمكننا
أن نراكم الى الأبد» .

حينئذ يبتدون بوداع المؤمنين فيقول الهالك لأخيه الصالح الوداع يا أخى أنى ما
عدت أراك . والام الشريرة تقول لابنتها البارة هذه هى المرة الأخيرة التى فيها أراك
يا ابنتى . فما أمر هذا الوداع إذ لم يعد لى أمل فى أن أراك فيما بعد والابنة الشقية
تقول لأُمها التقية وداعاً لك يا أُمى . هنيئاً لك أنت قد حصلت على الراحة وأما
ابنتك ففى عذاب دائم فالى أراك لا تذر فى دمعة واحدة على ابنتك متى تعلم قلبك
هذه القساوة على وقد كنت فيما مضى تتألمين لأقل ألم يصيبنى !!

أيها الوالدون . هوذا جثث أولادكم فى توابيتها ، وستغيب عما قريب فى القبر .
أنظروها تملوا منها قبل أن توارى فى الثرى ولكن لا تعتبروا أن هذه هى آخر نظرة
تلقونها على فلذات أكبادكم فأمامكم مجال آخر ترونها فيه فى اليوم الأخير فاما
تجتمعون بها اجتماعاً أبدياً أو تفارقونها الى ما لا نهاية . فالوداع المر لا يكون هنا بل
هناك والفراق الأبدى لا يتم فى هذا العالم بل فى العالم الآخر . كم من كثيرين
فارقوا الحياة عقب موت محبيهم لشدة تحسرهم وحزنهم فإذا نتصور إذا حزن الهالكين
حينما يرغمون على مفارقة من يحبونهم الى الأبد ، حينما تنقطع العلاقات وتبطل المحبة
بين الأب وأولاده والام وأبنائها والأخ وأخوته . لقد بكى يعقوب على يوسف مع
أنه مؤمن يعتقد أنه سيلاقيه . فإذا نتصور عويل الخطاة فى يوم الفراق الذى ليس
بعده لقاء .

انظر تر جمهوراً غفيراً مجتمعاً حول شخص مسافر ، وهم بين بك ومنتهجب لأن
هذا الانسان سيفارقهم شهراً أو سنة أو أكثر ، أنظر الى مشهد ميت تراه مؤثراً لأن
الميت سيفارقهم مدة وجودهم على الأرض وسيلاقونه بعد موته . الفراق كلمة مرة
ثقيلة على الطبيعة البشرية . أنظر لمن يقف على قبر ابنه كثيراً وهوى ذكر كلماته
الحلوة وعياه الجميل يحزن عميق . أنظر لمن يبكى زوجته الراحلة معدداً فضائلها
وحسانتها . أنظر لمن يبكى أبويه بجنونائذ ذاكراً عطفها عليه وعبتها له . ولكن هذا

الانفصال الذى يؤتد كل تلك الحسرات هين بالنسبة للانفصال الأبدى .

ماذا يعمل الشرير حينما يرى أهله وأقاربه فى صف اليمين وهو فى صف الشمال . ماذا يكون حاله عندما يرى ابنه الذى كان يعبه فى هيئة الأبرار وهو مضطرم بالشوق اليه ليسلم عليه و يقبل وجنتيه ولكن ليس من يسمح له . وكيف يكون حزنه إذ يحمل الى جهنم وابنه الى السماء وهو يلتفت الى الوراء شاخصاً الى الى أن تفصل بينهما هوة عظيمة و يفارقه الى الأبد . واحسراته أيها الذين تبكون بحرقة على موتاكم .. إن البكاء الحقيقى لا يصح عليهم إلا إذا تم الفراق بينكم ، لا فى هذا العالم بل فى العالم الأبدى .

حينما يرى الأشرار فى اليوم الأخير مجد الصديقين وعظمتهم و يشاهدون تصرف الملائكة معهم و يرون الاحتفاء الذى يوجه اليهم والضياء الذى يسر بلهم ثم يذكرون أن هؤلاء الصديقين كانوا أناساً مثلهم و كانوا لابسين أجسادهم وساكنين فى العالم معهم . منهم من عاش ببؤس عظيم ولكنهم بالتوبة والايان خلصوا واستحقوا هذه الغبطة الدائمة . فأى حسد محرق يمزق قلوبهم و يعذب احشاهم .

ما أشد الغيظ الذى تضطرم به قلوب الأشرار حينما يرون أنفسهم فى عذاب و يرون الأبرار فى نعيم . أجل سيغطون عيونهم حتى لا يرون الأتقياء فى السماء . وسيكون ألمهم مرأ وغيظهم شديداً عندما يذكرون أنهم كانوا بشراً مثلهم و كان فى أمكانهم أن يسعوا لينالوا السعادة نظيرهم ولكنهم انهمكوا فى لذة وقتية وخسروا المجد السرمدى . قال الكتاب « هناك يكون البكاء وصرير الاسنان » (مت ١٣ : ٥٠) كم تألم أخوة يوسف لما رأوا أباهم يفضل عليهم يوسف ونجبه أكثر منهم حتى أنهم عزموا على قتله (تك ٣٧) .

فيكون حسد الأشرار للأبرار حينئذ بالغاً حده . أية حسرة ملكت قلب الغنى عندما رفع عيشيه فى الهاوية وهو فى العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر فى حضنه ! لا ريب أنه استعرض فى مخيلته حاله وحالة لعازر قبل الموت وحالتها بعده ، وكيف تغير الحال وارتفع الفقير الحقير وسقط الغنى العظيم ، قد كان يتمنى أن يضاعف عقابه فى جهنم ألف مرة ولا يرى لعازر ذلك الحقير ممجداً ولا يجد نفسه

وهو العظيم محترماً مهاناً (لوقا : ١٦ : ٢٣) . قال أحدهم « قد كان الغنى يتعذب من شدة حسده للعازر عذاباً أشد من عذاب النار » .

نعم سيحزن ملوك العالم الذين اتكلوا على قوتهم ونسوا الههم لأنهم يرون عبيدهم في السماء وهم في الجحيم . سيتحسر عظماء الدنيا الذين قضوا حياتهم في الملذات والشور حينما يرون البائسين في حضرة الله وهم في قبضة ابليس . سينتحب الأغنياء الذين عاشوا لأنفسهم حينما يرون الذين كانوا يستعطفونهم وقد أصبحوا في ذرى المجد وهم في وسط اللهب . ومما يزيد عذاب الأشرار أنهم يرون الأبرار ينظرون اليهم باحتقار ويقول الرب « وأنا أيضاً أصفق كفى على كفى وأسكن غضبي . أنا الرب تكلمت » (حز ٢١ : ١٧) إن الذي يخسر في اللعب لا يزداد غمّاً إلا حينما يرى الغير يضحكون عليه ، ولا شيء يزيد الخطاة في جهنم عذاباً أكثر من رؤيتهم الأبرار يشخصون اليهم و يضحكون عليهم فيضحك إيليا على آخاب ، ويوحنا المعمدان على هيرودس ، ولعازر على الغنى .

هذا من جهة انفصال الانسان عن أهله وعارفيه ولكن هناك ما هو أشد هولاً وأعظم صعوبة وهو انفصال الانسان عن الله وخالفه وفاديه والمحسن اليه . قال القديس أوغسطينوس « اننا لا يمكن أن نقول إن النفس تكون حية حيث تكون منفصلة من النور الالهى ولا الجسد أيضاً يكون حياً وهو موضوع تحت العقاب الأبدى » .

لما قال الرسول بولس للمؤمنين في ميليتس وأفسس « والآن ها أنا أعلم انكم لا ترون وجهي أيضاً » انتحبوا انتحاباً شديداً كما يقول الكتاب وكانوا « متوجعين ولا سبياً من الكلمة التي قالها لهم انهم لن يروا وجهه أيضاً » (اع ٢٥ : ٢٠ و ٣٨) فإذا كان فراق أحد الرسل قد اضرم في قلوب المؤمنين نيران الحزن والغم بهذا المقدار فماذا تكون حالتك أنت حينما تنفصل ، لا أقول عن أهلك وأصحابك ، أو عن الأنبياء والرسل ، أو عن الملائكة والجنود السماوية ، أو عن السماء نفسها والنعيم ذاته بل عن أبليك السماوي . إن كل عذاب سمعت أنه سيكون في جهنم مهما كان شديداً لا تقاس شدته بشدة انفصالك عن الهك . كيف تكون حسراتك وتأوهاتك

حينما تعلم أن محبة الهك لك قد فرغت وأنه وهو الاله الذى كان يجود عليك بالخير قد
نزع من قلبه كل عطف عليك وامتلاً قلبه قساوة وشدة يزيدان هول الشقاء الذى
يوقعه بك .

إِعدم مشاهدة الله هو الذى عناه المخلص بقوله عن الخاطئ « لن يرى حياة بل
يمكث عليه غضب الله » (يوحنا : ٣٦) . وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن عدم
مشاهدة الله هى أشد من كل نيران جهنم » وقال أحد اللاهوتيين « إن الله يظهر
للمفدين أشعة يسيرة من وجهه الالهى لكى يعرفوا أى خير عظيم جعلتهم الخطيئة
يفقدون » .

إعلم أنه وإن كانت الطبيعة الآن تجود عليك بالنعم بالرغم من شرك فتعطيك
الشمس نورها وحرارتها ، والأرض أثمارها وغلاتها ، والهواء نسيمه والمياه قوتها
فذلك لأن الله مازال يشفق عليك ويمهلك راجياً إن ترجع عن ائتك تائباً ، ولكن
هذه الحال لا تدوم ، تأمل فيما جرى وقت صلب المخلص كيف أن الله حينما سخط
على الخليقة لتعديها عليه حجبت الشمس نورها ومنعت الأرض سكونها فسادت
الظلمة على وجه الأرض واضطربت الأرض وماجت (مت ٢٧ : ٤٥ - ٥٤) فهذا
عينه سيتم عليك حينما يتم الانفصال بينك وبين خالقك ، ينزع النور من قلبك
والسلام من نفسك والراحة من ضميرك فتحس بعذاب لا يوصف ولا يبقى عندك
أى أثر من الفرح والسرور . فإذا كانت الطبيعة تحسن اليك فلأنها تعرف إن الله لم
ينفصل عنك ولكن حينما ينفصل عنك تتحول الطبيعة المحبة الى عدو لدود بل
و يصبح ما كنت تسريه علة حزن لك . كتب العلامة أوريجانوس يقول « حينما كان
مغلقتاً على نوح داخل الفلك كانت الأرض عقيمة لا نبات فيها أو ثمر وذلك لأن
الشمس لم تكن تطلع على الأرض فى ذلك الحين » فإذا كان احتجاب هذه
الشمس الحية صار سبباً لا تلاف الأرض وبوارها فكم يصيبك أنت أيها الانسان
الشقى حينما تفقد شمسك الحقيقى ونورك الأسمى الله خالقك . قيل أيضاً عن
شمشون الجبار إن الفلسطينيين لم يهتموا بخلق شعر رأسه بعدما نبت مع علمهم بأنه
سرقوته لتأكدهم من أن الرب فارقه . فإذا تكون حال الجيلة التى تنفصل عن
جابلها ؟ إلا يرخى عليها الظلام سدوله ! إلا يصبح الانسان حينئذ كمين غاضت

مياها وككرمة جافة يابسة وكجسد فارغه الحياة ؟

لما سب شمعى داود الملك لم يحتمل ذلك ابيشاي بن صروية بل التفت الى الملك وقال « لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدى الملك . دعنى أعبر فأقطع رأسه » (٢ صم ١٦ : ٩) هكذا أنت أيها الخاطي يا من أهنت الهك ستثور ضدك مخلوقاته وتطلب الانتقام منك . سيسمع صوت الأرض يقول دعنى أفتح فى لأبتلع هذا الخائن الخالقى . وتقول المياه اتركنى أخنق كل عديم الوفاء لمن أوجدنى . ويطلب الهواء أن يسحقك . وتطلب النار أن تحرقك ذلك لأنك أيها الخاطي المسكين قد انفصلت عن الهك فانفصل عنك كل الخير .

إن الفخر الذى رفع الله الانسان اليه باتصاله به لا يستطيع وصفه يقول الرسول بطرس « كما أن قدرته الالهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذى دعانا بالمجد والفضيلة اللذين بها قد وهب لنا المواعيد العظمى والثينة لكى نصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بط ١ : ٣ و ٤) فكم هو عظيم شرف الفضيلة الذى يوصل الانسان بل يجعله شريكاً له فى طبيعته الالهية وبالعكس كم هو شنيع عار الخطية التى تسقط الانسان من هذا السمو غير المتناهى فيصير مجهولاً عند الله بالكلية حتى أنه يقول له لست أعرفك (مت ٢٥ : ١٢) إن عيسو حينما علم أن بيعة البكورية قد سلب منه بركة أبيه اغتم غماً جسيماً ورفع صوته وبكى بمرارة (تك ٢٧ : ٣٤) فبأى حرقة يبكى الخاطيء حينما يعلم أن خطيته لا تفصله عن بكوريته ولا عن موهبة بنوة وضعية بل تفصله عن الهه وتبعده عنه بالكلية . أن الله وعد أن يكون هو والمؤمن واحداً بالمحبة ، فالله الموجود فى كل مكان حال فى المؤمن على نوع خاص كما قال المخلص « ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الاب فى وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (يو ١٧ : ٢١) ولكن الخاطي لا يكون بينه وبين الله أدنى اتصال كما قال سليمان الحكيم « الرب بعيد عن الأشرار » (ام ١٥ : ٢٩) .

كم كان الله يعتبر أن من أحسن حالات السعادة والطمأنينة للمؤمنين أن يصرح لهم أنه هو معهم ، فكان يقول لهم لا تخافوا أنا معكم . وهذا القول شدد

اسحق (تك ٢٦: ٢٤) و يعقوب (تك ٣١: ٣) وموسى (خر ٣: ١٣) و يشوع (يش ١: ٩) و ارميا (ار ١: ٨) و باقى القديسين فى كل العصور، وبالعكس إذا انفصل الله عن الانسان حلت به الويلات كما انفصل عن منسى الملك فعدم ملكه (٢أى ٣٣: ١١) وعن شاول فعدم حياته (١ صم ٣١: ٦) وعن على الكاهن فعدم أولاده (١ صم ٤: ١٨) فقل لى أيها الخاطئ كم من المزايا تفقد إذا عندما ينفصل عنك الله انفصلاً أبدياً؟

إن الذى يفقد خروفاً واحداً يحزن عليه و يبحث عنه والذى يفقد درهما واحداً لا ينفك طالباً إياه، والحال أن الخاطئ لا يعدم شيئاً زهيداً هكذا بل سيحرم من السماء و يفقد الملكوت. يروى أن أحد الكتاب الأولين عن اليهود أنه بعد أن طردهم الرومانيون من أورشليم بعد صلب مخلصنا كانوا يجتمعون من بلدان مختلفة و يأتون الى أورشليم فى العام دفعة واحدة فى يوم معلوم لكى يبكوا على سبى أورشليم و خراب الهيكل إلا أن الحكام الرومانيين لم يكونوا يسمحون لهم بالدخول الى المدينة إلا بعد أن يرشوهم بأموال وافرة فكانوا يجتمعون كلهم معاً أمام باب أورشليم الرجال والنساء، الشيوخ والشباب، العذارى والأرامل، وهم لابسون أثواب الحداد ويمشون حفاة مكشوفى الرؤوس مكمدى الوجوه مدمعى العيون ويدورون حول اطلال الهيكل الذى صار أثراً بعد عين و يسكبون عبراتهم على بقايا أساساته، وكان قوم منهم يرمعون شعورهم على رماده المقدس، وآخرون يقرعون صدورهم أمام الخزانة المنهدمة، والجند من الجهة الأخرى يلحون عليهم لىبكوا طويلاً. فلماذا كان أولئك اليهود يظهرون مثل هذا الأسف والتحسر؟ ليس من أجل مدينة صارت خراباً! فالى أراك جامداً لا تحتلج فى عينيك دمة واحدة وأنت تعرف أنك بائمك لم تفقد الهيكل فقط بل اله الهيكل أيضاً. ليت الخطاة يتأملون فى ذلك ليعلموا مقدار الخسارة الباهظة التى تفقدها إياهم لذة الخطيئة الوقتية. عند ذلك يصرخون مع الرسول بولس «لكن ما كان لى رجحاً فهذا قد حسبه من أجل المسيح خسارة. بل انى أحسب كل شئ أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى الذى من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكى اربح المسيح (فى ٣: ٧، ٨)

الفصل الخامس والعشرون

فى النهاية المربعة

« وماذا تعملون فى آخرتها » (ار ٣١: ٥) « فأنا أيضاً أختار مصائبهم ومخاوفهم أجلبها عليهم . من أجل انى دعوت فلم يكن مجيب . تكلمت فلم يسمعوا بل عملوا القبيح فى عيني واختاروا ما لم أسره » (اش ٤٦ : ٤) .

« أيضاً من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي أفعل ومن يرد » (اش ٤٣ : ١٣) .

إن النفس ستتحد بالجسد بعد الانفصال وتتعلق به والجسد ثقيل ومن شأن الأشياء الثقيلة أن تجذب الى أسفل . إذا فالنفس تنحدر مع الجسد الى أسفل . واعلم أيضاً أن ذلك المكان الدائم هو جوف الأرض وهو قاع عميق مظلم الى الغاية . مكان لعنة مخوف جداً . حبس مريع مفعم بالعذاب المبرح والعقوبات الشديدة . منفى أبدي دائم لا خلاص منه أبداً وسلطان تلك الأرض وحاكمها المغتصب ابليس وسكانها الخطاة المدانون فلا تؤمل أيها الانسان أن تنظر شيئاً من الاشياء المفرحة ، انك لا تنظر الشمس مشرقة ولا القمر منيراً ولا النجوم ساطعة . قال المرتل « يمطر على الأشرار فحماخاً ناراً وكبريتاً وريح السموم نصيب كأسهم » (مز ٦١ : ٦) وقال اشعيا النبي « لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فهاها بلا حد فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها . ويذل الانسان ويخط الرجل وعيون المستعطين توضع » (اش ٥ : ١٤ و ١٥) .

ها قد ارتفع حجاب الأبدية فتقدموا أيها الناس . ما لى أرى الكثيرين منكم واجين خائفين ، ما لى أراكم ترتعبون إذ رأيتم عرش الله ، ما لى أراكم تودون لو يعود الباب الى مكانه ما لى أرى خوفكم شديداً . الأقدام التى كانت تسرع للشرب ما لى أراها تسلى . الأيدي التى كانت تحطف الاثم لماذا ترتحن . الأعين التى

كانت تحرق في الاباطيل ما لها تعمي . الاذان التي كانت تطرب لسماع ردى القول لماذا تصم . اللسان الذي كان يتكلم بالفحش ما له يخرس . ما لى أرى المتكبرين يذلون والمتشاكخين ينحطون . ما لى أرى أغنياء يفتقرون وملوكاً يسقطون . أين عزكم . أين مجدكم ،- أين فخركم ؟ تقدموا ما بالكم جزعون . ما عهدناكم تخافون . أين قوتكم أين جاهكم وسلطانكم .

وأسفاه إن الخطيئة تبسود علينا والخطيئة عدو الله فخوفنا من الله يمنعنا من التقدم . نود لو نعود الى العالم مرة أخرى لنعيد سلطتنا وجلالنا أو نصلح خطانا وعيوبنا . أين أيامنا الأولى . أين الأوقات التي كنا فيها مسيطرين وأصحاب نفوذ وسلطان ؟ لقد انتهت ولم يبق لنا إلا إن نحاكم ونعاقب .

أيها الأشرار يا من لا تستطيعون التقدم سيحكمكم ملائكة الله الى المحل المعد لكم . نعم سيحكمكم ملائكة الله ولكي يزيدوكم عذاباً يرون بكم أمام باب السماء فتحاولون الدخول فيمنعكم الملائكة قائلين « هذا الباب ضيق لا يمكنكم الدخول منه ، لانكم تحملون أحمالاً لا يمكنكم أن تدخلوها » فتقولون لقد جردنا الموت مما غلك فلم نحمل معنا شيئاً مما كان لنا فيقولون لكم ومن هذا قام نقصكم انكم ترون كل شئ إلا الخطيئة فالخطيئة لم تترككم . انها لم تزل بكم . اننا نراها ثقلاً عظيماً على أعناقكم . نرى عليكم شروراً عديدة وذنوباً كثيرة . تقولون لنطرح الخطايا حتى ندخل مع الأبرار . فيقولون لكم لقد فاتكم أوان طرحها فانها الآن لاصقة بكم . أترون ذلك الباب الواسع الذي تضطرم النار في داخله ؟ انه مثواكم ومقركم . فيالتعاستكم !!

وأسفاه عليك أيها الخاطي فإن آخر نظرة تودع بها الدنيا الباطلة تعقبها أول نظرة في جهنم . تبطل آخر حركة لك في الأرض لتبدأ أول حركة في الجحيم . تصم اذنك عن سماع آخر كلمة في العالم لتفتح لسماع زئير المذنبين في النار الأبدي .

إن الطفل إذا تكلم أول كلمة تعرف أنه سيلفظ آخر كلمة ، وإذا نظر أول نظرة تعرف أنه سينظر آخر نظرة . أما الخاطي في جهنم فهو إذا فتح عينيه ليرى العذاب

فلا يغلقهما ليستر يح نظره لحظة واحدة بل يفتحهما الى الأبد .

فكيف تنجو أيها الخاطي من يد العدل الالهى الرهيب وكيف تخلص نفسك من ذلك الحزن والنعيب ؟ هل تفكر فى الهروب ؟ اهرب إن كنت قادراً . كلا بل ينبغى إن تصرخ مع المرتل « أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت الى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فما أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر . فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك . فقلت إنما الظلمة تغشائى . فالليل يضى حولى . الظلمة أيضا لا تغلم لديك والليل مثل النهار يضى . كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩ : ٧ - ١٢) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم : — « أما أنا فانى أنوح دائماً واندب متواتراً من هول ذلك اليوم الذى فيه تجتمع جميع الأمم واللغات وتوج بحار العبرات وتظلم العيون الرائعة وتخرس الألسن الناطقة وتذل عطاء الجبابرة وتخضع رقاب الأكاسرة وتغل أعناق الظالمين و يكثر ضجيج الخاطئين حيث لا مال ينفع ولا محب يشفع ولا عذر يقبل ولا خلاص يؤمل بل سماع أصوات ملائكة يوبخون وربوات أجناد يبكثون . وأعوان يتسابقون وخاطئون يعذبون وعصاة يصرخون و ينوحون ولا يرحمون حيث يسمعون الديان حينئذ قائلاً : أين هم أولئك المطيعون لشهوات نفوسهم المخالفون لأوامرهم . أين هم الذين كانوا يتنعمون و يذخون وهم عن الآخرة معرضون ، أين هم قادة الجيش ومقدمو العساكر والجبابرة والقساء ، أين هم الذين كانوا يظلمون عبيد ربهم ومخافة الله ليست فى قلوبهم ، أين الذين كانوا يسرقون ويحلفون و يكذبون وهم مسرورون ، أين الذين كانوا يخرجون باكراً و يسعون فى أثر النجاسات و ينهبون متاع الأيتام وهم عن أحكام ربهم معرضون . أين عظمة الملوك وتحير السلاطين وسطوة الجبابرة وتعظم المتكبرين . أجبنى أيها الملك ما بالك هنا ذليلاً وما لك خاضعاً كثيراً وما بالك طريحاً قتيلاً ، أين الحلل والتيجان ، أين العشائر والأصحاب ، أين العبيد والحشم ، أين الدعوات والهمم ، أين الخائفون من رد الجواب ؟ كيف خذلتك الآن عساكر المملكة وخانتك رجال المعركة وكيف لم تحرس حياتك الجيوش ولا صانت جبروتك القلاع المشيدة وكيف غفلت عنك الحراس فى الليل ولم هجعت عيون حفظة النهار حتى خرجت من ملكك عارياً

وجذبت من قصرِكَ ذليلاً وأصبحت طعاماً للحشرات وأنيساً للفلوات وصائراً الى
رذيلة هذا عظم مقدرها؟ فيجيب ذلك العاجز ويقول ارحم ياسيد من اغتر بطول
الأجل واعتز بامتداد الأمل واشتغل بالماكل الفانية والتهى باللذات المتلاشية
وتفاخر بالملابس البالية وتباهى بالجموع الخائبة حتى تركته عبرة للناظرين وتذكرة
للعافلين . فيقول له الديان حينئذ أنت نلت خيرائك في الحياة الدنيا وأخذت حظك
من نعيمها فإذ قد سررت باللذات الزائلة زماناً قصيراً ستعذب ههنا عذاباً
طويلاً» .

فإذا تقول أيها الخاطي إذا؟ ها أنت تنادي ديانك قائلاً . لماذا تحكم على هذا
الحكم القاسي . هل لأنني تركت العبادة ولم اهتم بالصلاة؟ اتركني لأعود الى
العالم فأقضي ليالي وأيامي جائئاً أمامك؟ هل لأنني غضبت على غيري ، اسمح لي
فأعود لأركع أمام كل من أسأت اليه غنياً كان أم فقيراً . هل لأنني ظلمت الغير؟
دعني أذهب وأعوض كل من سلبته شيئاً أربعة أضعاف . هل لأنني لذت جسيمي
ونعمته؟ ارجعني فأذله وأقعده واعذبه عذاباً شديداً .

ولكن لا . لا . لقد فات الوقت الذي كان يمكنك فيه أن تصلح خطأك . إن
زكا حينما دعاه السيد المسيح لم يقل له فيما بعد « اعطى نصف أموالى للمساكين وأن
كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف » بل قال « ها أنا يارب » (لو ١٩ : ٨)
وأما أنت فامتدت اليك الأيدي وهي ترتعش من الخوف منك فكنت تردها خائبة .
وكم نصح لك كتاب الله وخدام الله لكى تقلع عن اثمك وتطرح خطيتك وكم قيل
لك إن « أجرة الخطية هي موت » (رو ٦ : ٢٣) ولكنك لم تسمع ولم تبال بما قيل
لك فتبعك الخطية الى هنا ولن تفارقك الى الأبد .

أجل عندما يطرح الأشرار فى ذلك الأتون المرعب ويشعرون بعذاب النار ولدغ
الدود يدركون أن كل العلاقات البشرية قد انقطعت ، فلا يشفق الاب على ابنه
ولا الأم على ابنها ولا الصديق على صديقه لأن كلا منهم يكون مشغولاً بعذابه متقللاً
بالآلام نفسه كما قال اشعيا النبي : « بسخط رب الجنود تحرق الأرض ويكون
الشعب كماكل للنار . لا يشفق الانسان على اخيه » (اش ٩ : ١٩) وقال المسيح

« ويسلم الأخ أخاه الى الموت والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم
ويقتلونهم » (مت ١٠ : ٢١) فلا يسمع إذ ذاك سوى صياح وعويل وتحذيف
عندما يفتح بئر العمق ويصعد دخانها الى السماء وتصرخ الأبالة والأشرار بأصواتها
المرعبة وترتجف الأرض وتفتح الجحيم فاهها لتبتلعهم وينقطع الرجاء وتبتعد الرحمة
وتحكم العدل . في ذلك الحين يلتفت الابن الى أبيه ويقول « لم شفقت على ولم
تؤدبني لم تركني الى أهواء نفسي حتى وصلت الى هذا اليوم الرهيب » فيلتفت
اليه أبوه ويقول « ليت أمك ما حبلت بك ليتك ما كنت ولدت ولا بشرتني بك
المقابللة . أحببتك عن نفسي ولم أرد اصلاحك خوفاً عليك من انكسار خاطرك ولم
أت بك الى بيت الله لأتني لم أرد أن أزعجك باستماع كلمة الله قائلاً في نفسي هذا
الطريق ضيق وعسر عليك سلوكه وخير لك أن تسر وتفرج مع أصدقائك وأحبائك .
ولكن واحسرتاه قد انقطع جبل الرجاء ولا نقدر أن نعود الى يوم الحياة لنفي عن
مآثمنا . ها الجحيم فاتح فاهه لابتلاعنا » وتقول الابنة لأُمها « ليتك كنت عاقراً
وليت عيني لم تبصر نور الحياة ولا قلبي تصور في احشائك التي منها خرجت لأفعل
المسكر على وجه الأرض فمن يخلصني من يد هذا الديان العادل . ولا واحد . وها أنا
أتحدر باثمي الى أعماق الجحيم ».

وهكذا ترى كل واحد يلقي التبعة على غيره ويقوه ضده بضجيج و يصب عليه
لعنات ما أمرها ولكن أين اللائم والملوم وأين العدو والصادق . لم يبق شئ سوى أن
كل انسان يحمل وزر نفسه ويجازي حسب عمله (رؤ ٢٢ : ١٢) .

أجل ! سيكون بغض الأشرار بعضهم لبعض عظيماً لأنه بقدر كثرة عدد
الهالكين يكون عذابهم قد نسمع كثيرين من الخطاة العاصين هنا يقولون عندما
نكلمهم عن عذاب الجحيم « اننا إن مضينا الى جهنم لن نكون هناك وحدنا بل
نجالس وزراء وملوكاً وعظماء ، ولكن يالشقاوة هؤلاء فإن كثرة الهالكين معهم هي
التي تزيدهم عذاباً وألماً وذلك لكثرة رائحة أجسادهم النتنة وأصواتهم المزعجة
فيكون ازدحامهم شديداً كالحيوانات التي تتزاحم على بعضها (مز ٤٩ : ٢٠) وكما
قال ناحوم النبي « فانهم وهم مشتبكون مثل الشوك وسكرانون كمن خرهم يؤكلون
كالكش اليابس بالكمال » (نا ١ : ١٠) .

ولكن بغض الأشرار لبعضهم يحتسب يسيراً أمام بغضهم للشياطين الذين كانوا علة سقوطهم فى الخطية . بل أن الشياطين الذين كانوا يمتلكونهم ويتوددون اليهم ليحجروهم الى الأثم يكونون فى جهنم قساة عليهم فيز يدونهم عذاباً بأشكالهم المربعة وأصواتهم المفزعة حقاً لقد خاب أملك أيها الخاطئ من كل مارجوته فالعالم الذى أحببته قد فارقك . والجسد الذى لذذته تتعذب فيه نفسك والخطية التى اشتيتها سلطها الله عليك لتعذب ضميرك ، والشيطان الذى أطعته يقوم ضدك . ولا يكون بغض الأشرار للغير فقط بل يبغضون حينئذ أنفسهم ، ومن ذا الذى يستطيع أن يصف عظم شدة القتال الذى يحدث حينئذ بين نفس الإنسان وجسده ومحاولة كل منهما فى القاء التبعة على الآخر وهذا التنازع نفسه يحدث فيما بين بقية الأعضاء فإن اليمين تشلبان الرجلين بأنها كانتا تقتادانها الى طريق الخطية ، والرجلان أيضاً تشلبان اليدين على طاعتها هما ، وكذلك العينان تشلبان اللسان على دفعة اياهما الى مثل هذا العذاب بارتكابه خطية الوقعة والدينونة والغيبة والتجديف والافتراء وغير ذلك من الخطايا التى تصدر عن اللسان الخبيث . واللسان يسلب العين لأنها كانت علة عذابه إذ هى التى نظرت الشر وتطلعت الى الخطية وعلقت القلب بها .

فإذا تريد أن تبلغ البشر أيها الخاطئ المقيم فى جهنم وأية رسالة ترسلها لهم عليها ترجع بهم من الغى الى الصواب ؟ إن الغنى طلب الى ابراهيم أن يرسل لعازر الى بيت أبيه لأن له خمسة أخوة ليشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً الى موضع العذاب وذلك بقوله « إذا مضى اليهم واحد من الأموات يتوبون » (لوقا : ١٦ : ٣٠) أرسل الينا أيها الخاطئ الذى سكنت جهنم رسالتك ماذا تريد أن تقول لنا !

« اسمعوا أيها البشر وانتبهوا يا أهل العالم . أنتم تعيشون فى ضلال ووهم . فكل ما تعتبرونه ذا قيمة عندكم تسقط قيمته هنا ، وكل من تعظمونه لكثرة ما ملكت يدها ينحط هنا ويذل . أرى حولى كثيرين ممن كانوا يسمعون فى العالم ملوكاً وأمراء وشرفاء تدفعهم هنا النيران وتدوسهم الشياطين تحت أقدامها . أرى هنا أناساً ممن لم يكونوا يألفون غير المديح والتقرىظ لا يسمعون سوى اللعنات القاسية . أرى هنا غنياً كان فى الأرض يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً ،

ينقلب هنا عارياً . أرى فقيراً كان على باب الغنى ولم يكن سمح له بقليل من الفتات الساقط من مائدته . هوذا الغنى يطلب من كان فقيراً إن يبل طرف أصبعه بماء و يبرد لسانه لأنه معذب في اللهب (لو ١٦ : ١٩ - ٢٤) .

وقد وجدت بجانبى انساناً لا أستطيع أن أصف مقدار ذله فسألته عن نفسه من أنت ؟ فأجابنى أنا فرعون ملك مصر الذى أتانى موسى يطلب منى اخراج اسرائيل فدفعنى جهلى واغترارى بملكى أن أقول له « من هو الرب حتى أسمع لقوله فاطلق اسرائيل ؟ لا أعرف الرب واسرائيل لا أطلقه » (خر ٥ : ٢) أما الآن فقد عرفت من هو الله لأنه جازانى عن كبر يائى بالذل الذى تشاهدونه .

ورأيت انساناً آخر فسألته من أنت ؟ فأجابنى « أنا أحد ملوك بابل الذى كانت الناس ترتجف من ذكر اسمى وكنت أأمر الناس بعبادتى . ومن كان يتجاسر بكلمة واحدة كنت أقطع رأسه . وكانوا يخترعون لى كل يوم ملذات جديدة وكنت من ذوى الهوى فحملنى جهلى على ارتكاب المعاصى التى أدت بى الى الهلاك وبعد موتى شعرت إن الذين كانوا يعبدونى أخذوا يتسامرون بسيرتى القبيحة فلم انتفع شيئاً مما تلذذت وتمجدت به سوى هذه النيران التى تراها تضطرم فى جسمى .

وشاهدت آخر منحنياً الى الأرض فسألته من أنت ؟ فأجابنى « أنا الذى أحببت المال وجمعته وكثرته فهلكت بسببه وأحس كأنه تجمع الآن فوق ظهرى وثقل حمله على فلا أستطيع أن أرفع رأسى . وشاهدت كثيرين من هذا النوع فقد رأيت أناساً كانوا فى العالم من ذوى اللطف والظرف واناساً كانوا من أهل اللهو والطرب وهم يرقصون الآن هنا رقصة الطير المذبوح . فقولوا عني لأبناء البشر أنتم مساكين لأنكم الآن فى راحة وعيون جسدكم لا تستطيع أن ترى أكثر من ذلك ، ولكن ليتكم تفتحون عيون قلوبكم لترى أن هذا العذاب الذى لا يطاق هو نتيجة لازمة للخطية .

فليتنا نتنبه الى هذا النداء ونسمع قول الرب « اعطوا الرب المحكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً » . قال أحدهم « ويل للأشرار ثم ويل لهم لأن دودهم لا يموت

ولا نارهم تطفأ وهم أحياء وأموات الى الأبد ضمائرهم جلادهم أفعالهم تعذبهم يضيق الكون بوجوههم وأرض الأحياء لا يقدر أن يعودوا اليها فينحدرون الى الجحيم ليخفيهم من وجه العلى وعن هيبة الذى رفضوه ورفضوا تعليمه المقدس فيغلق حينئذ باب الجحيم ويغتم بابه بختمه الأزلى فلا يصعدون منه الى الأبد فويل وويل لهم ماذا أفادتهم نعم هذه الحياة الفانية كالظل أو ماذا نفعتهم حكمتهم الانسانية الباطلة التى جرتهم وراءها الى هاوية العمق طغوا وتكبروا فقطفوا ثمر عجرتهم العذاب الأليم . حسبوا أنفسهم حكماء وهم غارقون فى بحار الجهل ظنوا أن من العار عليهم أن يصدقوا أن يسوع المسيح هو ابن الله حقاً لأن حكمتهم القاصرة لم تقدر على معرفة الحق ، ولأن بصائرهم المظلمة لم تكن إلا تراباً ورماداً خاوية وخالية من الاتكال الصحيح على يسوع المسيح الصادق وحيد أبيه الأزلى ولم يعتبروا كلمة انجيله المقدس التى تحتوى على كل التعليم الصحيح وتؤدى الى الحياة الأبدية . ترى ماذا أفادتهم حكمتهم الانسانية ؟ هل ردت عنهم القضاء أو صدت عنهم وقوع العذاب انهم ظلموا أنفسهم وراحوا ضحية اثمهم يتذكرون وهم فى جهنم ما تلقوه الى العالم من الانذارات والتعاليم من أفواه المبشرين ولكن ذلك لا يزيدهم إلا ألماً شديداً وعذاباً مريراً فيقولون ليتنا سمعنا وحفظنا تلك العظة التى بشرنا بها ذلك المبشر الذى أفرغ جهده فى نصحننا ونادانا قائلاً توبوا والا فجميعكم تهلكون ولكننا كننا نهزأ به باطناً ونحتقر أقواله الصحيحة . بأعيننا نظرنا الانجيل وبأيدينا لمسناه رددت أفواهنا كلماته وسمعت آذاننا أقوال الحق ولكننا عوجنا بارادتنا من سبل الاستقامة ، رفضنا التعليم والانجيل وأقوال الحكمة والعلم وكلمة الله يسوع المسيح فحسرنا المواعيد التى استحقها لنا بدمه . فياله من جنون فظيع أدى بنا الى هذه العاقبة المؤلمة حيث يحيط بنا العذاب من كل ناحية . نقول للجبال اسقطى علينا فهرب من امام الجالس على الكرسي وخاف ونذوب كالشمع ، أنكرتنا الأرضى ورفضتنا السماء لأننا رفضنا خالقها وعرفتنا الجحيم وفتحت أحضانها وابتلعنا لتفى العدل الالهى . فيما اخوتى الأحياء إن كانت هذه هى حالة الذين رفضوا يسوع المسيح وانجيله الطاهر أفليس مجنوناً ذلك الذى يعرض نفسه للوقوع فى الهاوية التى لا يصعد منها النى الأبد ؟ أليس عارياً من كل فطنة ذلك الذى يرى ويسمع الأقوال التى تخلصه من العذاب الأبدى لو أطاعها وعمل بها و يرفسها ويميل عنها

معوجاً و يرفضها و يرفض واضعها ويحتقر البشرين بها ؟ أين حكمتك أيها الانسان ؟ أين فطنتك أيها التراب ؟ قاومت خالقك ورفضت أن تحمل نيره الطيب على عنقك التي قد حررها من رق العبودية . أنتتظر مخلصاً أعظم من ابن الله الوحيد الذى خلقتك من العدم . فويل لك أيها التراب والدود الذى تمردت على خالقك ومخلصك .

أما نحن الأحياء أيها الاخوة فيجب علينا إذا سمعنا صوته اليوم إن لا نقسى قلوبنا لئلا يسخط علينا برجزه و يغلق امام وجوهنا أبواب رحمته بل لنبادر مسرعين مادام معنا النور ولنسجد للرب خاشعين مذرفين دموع التوبة لئلا نهلك ونخسر الجوهرة الثمينة التي اشتراها لنا بدمه الكريم وقدها بالروح القدس وطهرها بنار محبته الالهية يكفى يا أحبائى ما سمعتم مراراً من كلمة الله إذا كانت ارادتكم صالحة ونيتكم سليمة وكنتم ترغبون خلاص نفوسكم . لأن من لا يرشد نفسه و يبتغى الصلاح من تلقاء ارادته يكل عن ارشاده الواعظون ويخفق الكلمة الالهية بأشواك أفكاره وحب ملذاته و يرى لنفسه طرقاً جديدة يسلك فيها و ينسى الناموس المكتوب و يتناسى الناموس المطبوع فى قلبه . ويزأ بما يقوله المبشرون بالانجيل لأن الارادة لا تغتصب والانسان لا يخلص إلا بارادته واختياره ، فمن أراد الخلاص والحياة فليقبل الى المسيح المصلوب ملك الملوك ورب الأرباب ، وليحتسرس من أن يرفضه كاليهود الذين برفضهم اياه حملوا أنفسهم أثقل الخطايا ووضعوا على رؤوسهم أثقل الذنوب . وليتحاشى أن يرفض انجيله الطاهر المبشر به بالحق من أفواه خدامه لأن الرب عظيم .

فمن أراد خلاص نفسه والخلود فى الحياة الأبدية فليؤمن بابن الله يسوع المسيح لأن بدوننه لا يمكن الخلاص لأنه هو وحده الشفيع والفادى الحقيقى والوسيط بين الله والناس ومن لا يؤمن به يدان وأما الذى يؤمن و يعتمد فيخلص ، ومن كانت خطيئته كالجبال الشامخة أو أكثر من رمل البحر فليؤمن وليتب عن السير فى طريقه الرديئة المعوجة فيحيا و يرث الحياة الدائمة مجاناً لأنه هو وحده الفادى الحبيب و فاتح أبواب رحمته فى هذا الزمان المقبول ليشفى جراحات الخطايا و يريح جميع المتعبين

إذ يقول تعالوا الى وأنا أريحكم وإن كانت خطاياكم كالقرمز فانها تبيض كالثلج .
ولكن و يبل لكم إن سمعتم صوته وقسيت قلوبكم ورفضتموه كما فعل اليهود
أو احتقرتم انجيله الطاهر وكلمته الصادقة لأن له النعمة وهو يجازى فى يوم الدين .

فمن أراد إذا أن يخلص من النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت فليأت بايمان
حتى وتوبة صادقة الى المخلص المصلوب ، الفاتح يدي رحمة ليهطل ندى المغفرة على
خطايا الذين أساءوا اليه وليقل :

ارحمنى يا مخلصى ارحمنى ، ارحمنى يا ابن الله يسوع المسيح المتحنن على جنسنا ،
ولا توبخنى بغضبك ولا تؤدبنى برجزك لكيا تحيا نفسى وتمجدك .

الفصل السادس والعشرون

فى انه لا رحمة بعد الحكم

« تطلع من السموات وأنظر من مسكن قد سك ومجدك . أين غيرتك وجبروتك . زفير أحشائك

ومراحك نحوى امتنعت » (اش ٦٣ : ١٥)

كثيرون يطمعون فى رحمة الله و يظنون أنه فى تلك الساعة الرهيبة يسمع لهم نداء أو يقبل لهم توسل ، ولكن هؤلاء فى ضلال مبين لأن حكم الله عادل ومتى نطق به فلا قول ولا كلام يفيد ، فلا يفتّر أحد برحمة الله ، فقد علمنا الكتاب المقدس أن الله فى وقت المجازاة لا يشفق ولا يرحم . من الذى أغرق العالم بالطوفان ؟ من الذى دمر مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حوّلها بالنار ؟ من الذى أغرق فرعون وجنوده ومركباته ؟ من الذى اهلك اليهود بالحيات . من الذى أحرق محلة ابيرام من الذى أمر الأرض أن تفتح فاهها وتبتلع قورح وقومه . هوذا تعالى يقول « لا تشفق عيني ولا أعفو وإن صرخوا فى أذنى بصوت عال لا أسمعهم » (حز ١٨ : ١٨) .

أجل انى أعلم أيها الخاطئ اين تعلق آمالك . انها متعلقة بلجة تحن الله تعالى . وأنه من هذا الوجه ينبغى بالأكثر أن تخاف وتخشى لأنك تجازى بالأخص لأجل عظيم خيانتك وقلة شكرك وعدم وفائك الذى أظهرته من نحو وفرة غنى المواهب والنعيم التى نلتها من لجة تحننه تعالى . فالذى تطمع فيها من صفات الله ينبغى لأجله أن يزداد خوفك لأنك إذا تصورت انه حكيم ، فالحكمة تطلب معاقبة الخائن . وإذا تصورت أنه قادر ، فالقدرة تستوجب تعذيب المنافق ، وإذا قلت انه عادل ، فالعدل يستلزم أن يعاقب المجرم .

فلا يمكن أن نجد الخطاة هناك أدنى رحمة ولا شفقة ولا مغفرة ولا ينخل بهم سوى الغضب الشديد والانتقام المريع وسماع الحكم الأخير «خذوهم من أيديهم وأرجلهم واطرحوهم فى النار الأبدية» وسرعان ما يتقدم ملائكة جبابرة عتاة ويحملون المالكين الى المكان المعد لأبليس وجنوده . فيألفها من رعدة جسيمة تمتلك الخطاة فى تلك الساعة . ساعة يختفى عندها الصوت ويمتنع اللسان عن الكلام والعين عن النظر والأذن عن السمع . ساعة لا يستطيع فيها هابيل بتقواه أن يخلص قايين ، ولا صموئيل أن يشفع فى شاول . ولا داود أن ينقذ إيشالوم . بل حينئذ يطلب الغنى من لعازر رحمة فلا تكون له ، و يلتبس هيرودس من يوحنا المعمدان شفقة فلا يجدها ، يتوسل حنان وقيافا الى قليل من الرأفة فلا يسأل أحد عنها لأن كل غادر أثيم لا يرحم (مز ٥٩ : ٥) .

وبعد أن يطرح الأشرار فى جوف ذلك اللهب يحاولون الخروج من باب الجحيم فيجدونه قد أغلق وكتب عليه بأحرف من نار « لا يخرج أحد ولا يدخل أحد » فيرجعون بالخيبة وأجسادهم تنقلب فى أمواج اللهب المشتعلة ولا راحة لها . إن علت بهم تيارات النيران الى فوق فالاضطرام يلهب كما هو وإن غاصت بهم فى لجج الأعماق يحرق كما هو . وإن دفعتهم الأمواج المشتعلة الى هنا أو هناك فحرارة النيران كما هي . وعندما يرون أن لا سبيل الى نجاتهم يصرخون بمرارة و ييكون بدموع حارة و يقعون فى أشد الندامة و يتفوهون بأحزن العبارات قائلين :—

أين الموت ! أين الهلاك ! لماذا يهربان منا ؟ النار تحرقنا ولا نموت . والدود يلدغنا ولا يبيدنا . يا ليت أجسادنا كانت وقوداً فتأكلها النار وتنتهى . يا ليت أرواحنا كانت مواداً قابلة للالتها ب فتشتعل باللهب وتنقضى . و يلاه من يشفق علينا ! من ينجينا من الموت ومن يرحمنا فيهبنا الاعدام . يا للشقاوة المؤبدة ! يا للعذاب الحار ! أين رحمتك يا الله ؟

ما هذا التسغير الذى طرأ عليك يا الهنا . أين ذلك القلب العطوف . أين ذلك الاله الذى كان يرق على الخطاة مهما أثموا . أين الاله الذى كان يبذل كل خير حتى لأشر الناس . أين ذلك الاله الذى كان يقول « ذوقوا وانظروا ما أطيب

الرب « (مز ٣٤ : ٨) .

فيجيهم الديان العادل والمنتقم الجبار قائلاً :-

وأنسفاه عليكم . ألم تكن الرحمة في أيديكم والنعمة قريبة منكم والخلاص
مقدم لكم . لقد دعوتكم الى ذلك بيدي التي ثقت بالمسامير حباً فيكم فازدريتم
برحمتي واستخففتكم بالنعمة واحتقرتم الخلاص وكم من مرة قرعت أبواب قلوبكم
كسائل فأوصدتموها في وجهي . أطلت أناتي عليكم فتقسيتم ، أظهرت غنى لطفي
فعصيتم ، قدمت لكم فيض نعمتي فتمردتم ، ولأنني عالم بأن قساوتكم ستجركم
الى هذا العذاب الأليم تخننت عليكم وزرقت عيناى الدموع لأجلكم ورق قلبي
لكم فاستهزأتم بمحبتى واستهنتم بالآلمى حتى تحولت رحمتى قساوة ورقى جفاوة
وحنانى جبروتاً فتعذبوا الآن بلهب تهاونكم وبنار قساوتكم . اننى لم أغير أيها
الاشرار ولكنكم أنتم الذين قد غيرتمونى بمساوئكم وخيانتكم . اننى كنت لكم
محباً ومحبتى كانت تغلب على عدلى ، أما هنا فعلى تغلب على محبتى . ولأنكم
احتقرتم هذا الاله الجواد الذى أحبكم ومال اليكم فهو كذلك الآن يحقركم
و يوجه محبته الى غيركم .

أنظروا الى أولئك الأبرار والقديسين فعلهم وحدهم أفيض حبى وأسكب
رحمتى وحنانى .»

فيجيب الأشرار . ولكن أتركنا يا الله هكذا فى وسط هذه النار ! إن العذاب
شديد لا يطاق . ألسنا نحن صورتك وعمل يديك ! وكيف لا ترق لدموعنا وزفراتنا
ولا تنظر لحالنا وترثى لشقاوتنا . أنظري الاله الرحمة بعين الرأفة الى أجسادنا كيف
تتقلب فى نار لا تحتملها حتى الحجارة الصلدة . تعطف علينا أيها السيد . امنحنا
يسيراً من حنوك وقليلاً من مراحك ، أندوم هنا فى هذا الشقاء ؟ مظلومون يارب .
أنت معروف بالرأفة أتدفعنا الى الأبد فى نار متقدة ملتهبة ودود لداغ لا يموت وظلمة
خارجية قاتمة ؟ « أين مراحك الأول » يارب (مز ٨٩ : ٤٩) ارحم يا أرحم
الراحمين .

فجيهم الديان العادل قائلاً :

أجل لقد خلقتكم على صورتي ومثالي . ولكنكم أهنتم صنع يدي وأفسدتموه حيث لا أرى فيكم الآن السمة التي كنتم متممين بها حين خرجتم من بين يدي . عوتم الصورة التي كانت تميزكم عن سائر المخلوقات . جعلتكم أبناء فصيرتم أنفسكم عبيداً للخطية . ولذلك فاني لا أنظر لكر بكم ولضيقتكم لا أهتم فكما قسيت قلبكم على كذلك تقسى قلبي عليكم فعبثاً تكون وتنهدون .

« يا قوم اني ما ظلمتكم قط بل أنتم الذين ظلمتم أنفسكم . لقد رحمكم أبي وأشفق عليكم ولم يشفق على أنا ابنه الحبيب ولما أتيت لخلاصكم لم تشفقوا على بل رفعتمونى على صليب العار وفي ضيقتي لم ترقوا لحالي بل زدت قساوة . ولبثت أتحمل عذاب أيديكم وعذاب سيف العدل الالهى الذى كان يمزق أحشائي حتى تقطع قلبي فى داخلى وذابت أمعائى من حرارة العذاب الأليم كما يذوب الشمع أمام النار . كل ذلك احتملته لأجل فدائكم وجباً فى خلاصكم من عذاب الجحيم .

فمن أجلكم أنتم يا ناكري الجميل قاسيت كل ذلك فما الذى فعلتموه لمكافأتى ! بل أى شئ لم تفعلوه من الخطايا والشرور لتبينونى به ، ألم تذروا باسمى ؟ ألم تستهزئوا بكلامى ؟ ألم تدنسوا دمي الكريم الذى سفك لأجلكم ؟ هل طلبت منكم أمراً صعباً ؟ هل سألت منكم أشياء عظيمة مكافأة لى على عملى هذا ؟ لا . إنما طلبت منكم أن تمجدوا اسمى فقط .

وطلبت منكم فى أثناء فاقتى ثوباً بالياً أترربه ، وسألت منكم عند جوعى رغيضاً واحداً أسد به رمقى فبددت خيراتكم فى الملاعب والملاهى والمعاشرات الرديئة ولم ترضوا أن تعطونى ما طلبته منكم وهوزهيد . فهل كنت أستحق منكم هذه المكافأة ؟ أهكذا كان ينبغي أن تكافؤوا عبتى بأن تحبوا كل شئ أكثر منى ؟ من أجلكم تجسدت . من أجلكم مشيت على الأرض ظاهراً . من أجلكم جلدت . من أجلكم بصق على وجهى . من أجلكم صلبت مرفوعاً على خشبة العار . من

أجلكم سقيت خلاً . وهبت لكم الملك الذى لى . أعطيتكم الفردوس . دعوتكم وأحضرتكم لى . قربتكم الى الله الآب وأرسلت لكم الروح القدس « ماذا يصنع أيضا لكرمى وأنا لم أصنعه له » (اش ٥ : ٤) فقولوا لى ماذا احتملتكم من أجلى وماذا قدمتم اكراماً لى ؟

« لم أطلب منكم تلقاء ذلك أشياء صعبة لا تطبقون القيام بها بل توبة خالصة بايمان صحيح فلم تميلوا الى ولم تتوبوا ولم تشفقوا على أنفسكم بل احتقرتم كلامى واستهزأتم بمواعيدى وتوعداتى . قلت لكم « إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٥ و ٣) وأعلنت لكم رهبة الدينونة وشدة العقاب فهزتم رؤوسكم وقلتم « يوم الله يعين الله » . صرحت لكم بوجود نار أبدية معدة للخطاة فضحكتم وتجاهلتم وقلتم إنما هو كلام . أين تكون تلك البحيرة النارية أفى الأرض أم فى السماء ؟ فما أجهلكم هل تأكدتم الآن أنه توجد نار أبدية ؟ هل تحققت العذاب فعلاً ؟ إذا فاحضعوا للقضاء واحتملوا هذا الشقاء الذى جلبتموه على أنفسكم بالقساوة والتهاون : هل أنتم مظلومون ، كلا بل أنتم للقصاص بعدل مستحقون .

فإذ يعلم الخطاة أنهم مستوجبون العقاب ، ولا حق لهم فى المناقشة والجواب ، يقولون : نعم يارب انك لم تظلمنا بل نحن الذين ظلمنا أنفسنا . نعرف أننا قضينا حياتنا غير عارفين احسانك كم قسونا وتصلبت قلوبنا حتى اننا لم نكن نرضى أن نقبل باسمك فقيراً واحداً فى منزلنا ولا نتصدق عليه ، بل صرفنا حياتنا فى اغاظتك واهانتك . وعلى ذلك فنحن مستعدون الآن أن نقف أمامك ونبكي بحرقة على ذنوبنا ونندم على خطايانا ونغسلها بدموع غزيرة . أفلا نستحق تلقاء ذلك رافة ولو جزئية ، وحنواً لو كان يسيراً للغاية ؟ ألا يكتفى العدل بما احتملناه من لهيب النار وبما قاسيناه من اضطرامها ويخرجنا من هذا العذاب . أشفق علينا يارب كل الشفقة .

فيقول الرب لهم « آه أيها الناس . انكم تريدون أن تقدموا ثمرأ فى غير أوانه وتطرحونه فى غير وقته . كم طلبت منكم أن تصنعوا أثماراً تليق بالتوبة (مت ٣ : ٨) فأبيت . وكم أمهلتكم سنة بعد أخرى عليكم تثمرون قبل إن اقطعكم

(لو ١٣: ٩) فكنتم لى كشجرة يابسة بينا كنتم للخطية شجرة حية . تظهرون
البخل من نحوى والسخاء من نحو الشيطان ؟ صلواتكم الآن لا أقبلها . وتضرعاتكم
لا أسمعها . ودموعكم لا ألتفت إليها .

«وكيف أخرجكم من مكان عذابكم ؟ هل ينبغي أن أجمع لفيماً مشوهاً بكل
أدناس الخطايا ونجاستها وأدخلهم الى مكان قدسى الطاهر ليسكنوا مع الأتقياء
الاطهار التائبين و يقيموا بين الملائكة والقديسين . ألم تعلموا أنه لا يدخل ملكوت
السموات شئ دنس ولا ما يصنع رجساً أو كذباً (رؤ ٢١: ٢٧) فكيف أرحمكم
وأنتم عاملون بقداسة المكان وقد تقرر أنه بدون قداسة لن يرى أحد الرب
(عب ١٢: ١٤) .

فيقولون : «نعم أيها السيد نقر اننا لا نستحق الرحمة واننا لسنا أهلاً لها وخطايانا
تشهد علينا ، إنما نتوسل اليك فى أمر واحد وهو أن تسحقنا وتردنا الى العدم إن
كنت لا تشأ أن تخلصنا . انزع أرواحنا من أجسادنا ومزقها ارباً وكذلك افعل
بأجسادنا حتى تتلاشى وتنتهى دفعة واحدة ولا تتركنا فى هذا العذاب . نتوسل
اليك يارب أن تستجيب . نسألك أيها السيد الرحمة . أأنت أنت الصديق
الامين ؟» .

فيجيبهم الاله «أيها القوم انى خلقتكم لمجدى لمجد رحمتى ولمجد عدلى . فبما انكم
احتسبتم أن تمجدوا رحمتى فلا بد لكم من أن تمجدوا عدلى الى الأبد . انى أعلم
شدة عذابكم ولو أجبتكم الى طلبكم لكان ذلك منتهى الرحمة منى عليكم . ولكن
هيات ثم هيات أن يحجب طلبكم ، أنا الرب لا أغير وعدى ولا أنسخ توعدى وكما
انى لا أغير فقضائى لا يتغير . ألم أبذل نفسى كى أخلصكم من هذه النيران . ألم
أدعوكم للتوبة مظهراً لكم أهوال الهلاك وعذاب جهنم فكيف يلتمس الآن لكم
عذر ؟ لولم أكن قد جئت وكلمتكم لم تكن لكم خطية وأما الآن فليس لكم عذر
فى خطيتكم (يو ١٥: ٢٢) أما أخبرتكم إن الدينونة لا تتوانى والهلاك لا ينعس
(بط ٢: ٣) كل ذلك وأنتم فى غيكم تعمهون غير مباليين ولا مكترئين . لو كان
عدل الله ينسخ أو حكمه يتغير لجرى ذلك بالأحرى معى أنا ابنه الوحيد موضوع مسرة

فؤاده ولذة قلبه حينما تطوعت لأتحمل عقاب خطاياكم . انه حجب وجهه عني عندما وضعت موضعكم ومع أن طلباتي لديه كانت مقبولة إلا أنه حينما دنت ساعة الدينونة لم يلتفت الى مع أن صراخى كان يذيب الجمد وأنا أدعو على الصليب مستغيثاً قائلاً « إلهى إلهى لماذا تركتني » فلم يسمع ندائى وتوسلى بل تركنى أشرب الكأس حتى الثمالة . فإذا كنت أنا حبيبه القدوس المطيع له لم يرض عدله إلا أن ينفذ حكمه فى فماذا تنتظرون أنتم يامن قضيتم حياتكم تتمرّدون عليه وتعصون أوامره ؟ أنتم الذين جرحتم فؤداى بأثامكم وأحزنتم روحى بهتانكم .

فيقولون : ولكن إذا كنت أنت أيها السيد الكريم قد تفضلت بالموت عنا لعدائنا وسفكت دمك الكريم مطهراً ومخلصاً من الخطية ومنحتنا نعمتك بلا ثمن ، فلماذا — هذه القساوة علينا الآن ونحن لم نعهدها فيك ؟ ».

فيجيبهم قائلاً « نعم . إن دمي يطهر ونعمتى تخلص ، وكثيرون تطهروا بالدم وخلصوا بالنعمة ولكن بالتوبة والايمان . أما أنتم فلم تهتموا بالتوبة ولم تبالوا بالايمان فخسرتم التطهير وحرمت الخلاص . وهل كنت أطهركم وأنتم منغمسون فى دنس الزنا والسكر والنجاسة التى لم تشاءوا تركها ؟ وهل كنت أخلصكم بينما أنتم متهافون على المطاعم وغرور الغنى وأباطيل العالم ولم ترغبوا الخلاص منها ؟

فيقولون : ولكن ألا يمكنك بما لك من سعة الرحمة وعظم الشفقة أن ترسل لنا الآن ولو قليلاً من الماء لتبريد ألسنتنا المعذبة فى هذا اللهيب ؟.

فيجيبهم : لقد كان أمامكم وفى استطاعتكم أن تنالوا الخلاص من هذا العذاب وتتمتعوا بما يتمتع به أبرارى فى ملكوت سمواتى ولكنكم اخترتم لأنفسكم الشر مع العذاب فستدومون فيه ، رفضتم الخير مع المجد الأبدى فحرمت منه . جعلتمونى أنا الحبيب خصمكم واتبعتم غواية ابليس وخداع الخطية وغرور العالم ومن الغريب أنه ليس أحد يتوب عن شره قائلاً « ماذا عملت ؟ » (ار ٨ : ٦) استهنتم بلطفى وطمعتم فى طول أناتى . هذه صنعتموها وسكت . ظننتم انى مثلكم . أو بخكم واصف خطاياكم أمام عينيكم . افهموا هذا يا أيها الناسون الله لئلا أفرسكم ولا منقذ (مز ٥٠ : ٢١ و ٢٢) .

فكما أصدعتم الى أذننى صراخ خطاياكم وصياح آثامكم واغظتمونى بدمى
أفعالكم وذنس لذاتكم فليصعد الآن صراخ عذابكم وصياح الآمكم « لأننى دعوت
فأبىتم ومددت يدى وليس من يبالى . بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبىخى .
فأنا أيضاً أضحك عند بليتكم . اشمتم عند بجى خوفكم . إذا جاء خوفكم كعاصفة
وأنت بليتكم كالزوبعة إذا جاءت عليكم شدة وضيق حينئذ يدعونى
فلا أستجيب . يبكزون الى فلا يجدونى لأنهم أبغضوا العلم ولم يختاروا مخافة
الرب . لم يرضوا مشورتى . ردلوا كل توبىخى . « لذلك يأكلون من ثمر طريقتهم
و يشبعون من مؤامراتهم . لأن ارتداد الحمقى يقتلهم وراحة الجهال تبيدهم »
(ام ١ : ٢٤ - ٣٢).

« ما كان أحكمكم فى الشر والخبث والمكر والرياء والحقد والمذمات حتى
ملاكم مكيال آثامكم أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم
(مت ٢٣ : ٣٣) لماذا تتضجرون من عقاب ما جنته أيديكم ومن احتمال دينونة
الشر الذى ارتكبتموه ضد ارادتى .

قد صورتكم وأبدعتم وأنتم التصقتم بغيرى . خلقت لكم السموات والأرض
وما فيها وأنتم صيرتموها لاحتقارى خلقت لكم سمعاً لتسمعوا ما تقوله الكتب
المقدسة وأنتم اصغيتم الى الأغاني السمجة والخرافات الباطلة . أبدعت لكم نظراً
لتبصروا نور أوامرى وتعملوا بها وأنتم فتحتم أعينكم الى كل دناءة وقبح . وضعت
لكم فأساً لتمجدونى وترتلوا المزامير الروحية وأنتم تصرفتم به للولائم والشرهة والخبث
والتجديف وأصلحت لكم الأيدى لتبسطوها الى التضرع وعمل الخير وأنتم
مددتموها الى الخطف والضرب والسلب .

« كانت أبواب كنائسى مفتوحة على الدوام ووصاياى تتلى فيها كل يوم فلم
تسمح لكم شروركم ومطامعكم بالذهاب اليها لتسمعوا كلامى وتحفظوا أقوالى .
ولكن عندما كنتم تدعون لعرس أو وليمة كنتم تركضون اليها مسرعين وتذهبون اليها .
كنتم تفضلون السعى وراء خيرات العالم عن سماع مشورتى فأين الأموال التى
اقتنيتموها وأين البيوت المشيدة التى أفتوها ؟ أين الترفه والتبعم . أين الملذات

والمأكول والمشرب التى تمتعتم بها ؟ بالشقاوتكم .

والنساء أيضا كن يسمعن خدام كلمتى فلا يهمن من ذلك شئ ولكنهن كن يسرعن فى مشتري الملابس والحلى وكامل أسباب الزينة . فأين الآن الملابس الأنيقة المزخرفة وأين الحلى والجواهر الكريمة ؟ أين الجمال الفتان والبهجة ؟ يالتعاستن .

« وأنت أيها الشيخ بماذا تعتذر وبأى كلام تحيب . هل لم يكن لديك وقت كاف لكى تتوب وترجع الى . لقد صبرت عليك وقتاً طويلاً وأظلت فى أجلك ولكنك قضيتته فى مزاوله الأعمال التى لا ترضينى فارتكبت المعاصى وأتيت الموبقات . فكيف تلتمس رحمة الآن . ألا تخجل ألا تستحي !!

وأنت أيها الشاب . ألم أقل لك على لسان الحكيم « أذكر خالقك فى أيام شبابتك قبل أن تأتى أيام الشر أو تحيى السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا ١٢ : ١) .

لماذا أهملت ؟ قد كنت تؤجل وقت التوبة منتظراً أيام الشيخوخة لكى تتوب فيها . قد كنت تروم أن تعطى ابليس زهرة شبابتك وأما أنا فتقدم لى فضلة عمرك . هل لك حجة على . ألم أوفر لك أسباب القوة والصحة لكى تستخدمها لارضائى فخدمت بها رغائب الشيطان . هل يوجد عندك جواب على ذلك !

وأنت أيها المرأة أى شئ أعاقك . هل تقولين اننى كنت مشغولة بالزينة والأمور الفارغة ألم أقل لك إن الزينة الحقيقية هى طهارة القلب . هل لك عذر !

وأنتم أيها الاغنياء بماذا تعتذرون . لعلكم تقولون إن انهماكنا فى جمع المال لم يسمح لنا أن نتوب . انعطفوا الى أموالكم إذا ، بما انكم اتخذتموها إلهاً لكم عوضاً عنى فلمماذا تطلبون منى رحمة ؟ التمسوها من أموالكم لعلها تخفف لوعتكم . ياويلكم ألم أوضح لكم خطر محبة المال . ألم أقل لكم إن محبة المال عداوة لى (يع ٤ : ٤) « هلم الآن أيها الأغنياء ابكوا مولودين على شقاوتكم القادمة . غناكم

قد تهرأ وثيابكم قد أكلها العث . ذهبكم وفضتكم قد صدنا وصدأهما يكون شهادة عليكم و يأكل لحومكم كنار» (يع ٥ : ١ - ٣) .

أفلا تستحقون اذن الجزاء عدلاً والقصاص حقاً . هل فى قضائى ظلم ! .

فَعِنْدَمَا يَسْمَعُ الْأَشْرَارُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الْحَزْنَـةَ الْحَقِيقَةَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَدْ انْقَطَعَ كُلُّ رَجَاءٍ فِي نَجَاتِهِمْ وَيَبْلُغُ الْيَأْسَ مِنْهُمْ مَبْلَغُهُ وَيَتَأَكَّدُونَ أَنَّهُ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ نَهَائِيًّا بِالْعَذَابِ الْمُؤَبَّدِ وَيَذْكُرُونَ قَوْلَ اللَّهِ : « اضْحَكْ عِنْدَ بَلِيَّتِكُمْ وَاشْمَتْ عِنْدَ مَجْنَى خَوْفِكُمْ » وَيَتِمُّ قَوْلُ الْمُرْتَلِ « السَّاكِنُ فِي السَّمَوَاتِ يَضْحَكُ . الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » (مز ٢ : ٤) يَرْفَعُونَ عَيْنَهُمْ إِلَى اللَّهِ وَهُمْ فِي هَاوِيَةِ الْعَذَابِ وَيَسَاهِدُونَ اللَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ضَاحِكًا مُسْرُورًا وَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي النَّارِ عِنْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ حَزْنُهُمْ وَيَكَادُونَ يَتَمَزَّقُونَ مِنَ الْغَيْظِ فَيَصْرُخُونَ حِينَئِذٍ نَائِحِينَ بِأَكْبَرِ مِنْ أَعْمَاقِ أَفْئِدَتِهِمْ قَائِلِينَ « أَنْحَنُ نَحْزَنُ وَاللَّهُ يَضْحَكُ عَلَيْنَا . أَنْحَنُ نَتَعَذَّبُ وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بَنَا : أَيُّهَا إِلَهِ ضَاعَفَ النَّارَ أَضْعَافًا : قَوَّاجِجَهَا مَا شِئْتَ وَاعْدِلْ عَنِ الْاِسْتِهْزَاءِ بَنَا فَإِنَّ هَذَا الْاِسْتِهْزَاءَ أَمْرٌ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَأَشَدَّ وَخْرًا مِنْ لَدَغِ الدِّيدَانِ ، لِمَاذَا لَا تَحْوِي جَهَنَّمَ أَبَارًا أَعْمَقَ نَسْقُطُ فِيهَا وَنَهْرَبُ مِنْ وَجْهِ أَهْلِهَا الْعَادِلِ . لَقَدْ غَرْنَا كَثِيرًا مِنْ قَالَ إِنَّ عَذَابَنَا الْاِعْظَمَ سَيَكُونُ فِي مَشَاهِدَةِ إِلَهٍ غَضُوبٍ وَكَانَ الْاَوَّلَى بِهِ إِنْ يَقُولُ لَنَا أَنَّهُ سَيَكُونُ فِي مَشَاهِدَةِ وَجْهِ إِلَهٍ ضَاحِكٍ . إِنَّا نَرِيدُ الْآنَ أَنْ تَقَعَ الْجِبَالُ عَلَيْنَا أَوْ تَنْفُتِحَ الْأَرْضُ وَتَبْتَلِعَنَا لِنَسْتَتِرَ عَنْ وَجْهِهِ : أَيْنَ هِيَ الظُّلْمَةُ الَّتِي قِيلَ لَنَا عَنْهَا « مَحْفُوظٌ لَهَا قِتَامُ الظُّلَامِ إِلَى الْاَبَدِ » (يه ١٣) لِمَاذَا لَا تَغْطِينَا مِنْ وَجْهِ اللَّهِ الْهَازِئِ بَنَا . آهَّا لَشِقَاتِنَا لِأَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يُؤَلِّمُنَا نَرَاهُ جَلِيلًا وَالَّذِي نُرِيدُهُ لَا نَرَاهُ مُطْلَقًا .

وَإِذَا لَا يَجِدُ الْأَشْرَارَ بِأَيْدِيهِمْ سِلَاحًا يَحَارِبُونَ بِهِ إِلَهَ السَّيِّئِ يَنْعَكِفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَقْطَعُونَ شُعُورَهُمْ وَيَصْفَعُونَ وُجُوهَهُمْ وَيَضْرِبُونَ أَجْسَادَهُمْ وَيَصْرُخُونَ عَلَى أَسْنَانِهِمْ بِمِرْقَةٍ وَكُلِّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي عَذَابِهِمْ وَآلَامِهِمْ . وَفِي ذَلِكَ قَالَ الرَّائِي « وَكَانُوا يَعْضُونَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْوَجْعِ » (رؤ ١٦ : ١٠) بَلْ يَتَفَوَّنُونَ أَنْ يَقْرُوا عَيْنَهُمْ حَتَّى لَا يَبْصُرُوا مِنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْذِيبَهُمْ وَهُوَ يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ مَعَهَا بَكَوْا وَوَلُولُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجْبِئُوا عَنْ نَظَرِهِمْ مَشْهَدَ عَرْشِ اللَّهِ وَوَجْهَهُ يَتَلَأَّلُ بِالْاِسْتِهْزَاءِ بِهِمْ .

فكم يشتد غيظهم وكم يعظم تحديفهم . أكثر فأكثر لا سيما كلما يرون ذلك الاله العادل جالساً على عرشه المهيب لا يلين ولا يضجر من عذابهم وتمررهم بل يستمر ضاحكاً ومستهنئاً بهم هكذا تم قول موسى النبي « وكما فرح الرب لكم ليحسن اليكم و يكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم و يهلككم » (تث ٢٨ : ٦٣) .

وماذا يفعل الأشرار حينئذ . سيصرخ كل واحد منهم قائلاً « لأن أيامي قد فئت في دخان وعظامي مثل وقيد قد بيست . ملفوح كالعشب و يابس قلبي حتى سهوت عن أكل خبزي . من صوت تنهدي لصق عظمي بلحمي » (مز ١٠٢ : ٣ ، ٥) أجل : سيصرخون قائلين « ماذا كسبنا من كثرة التمتع والترف ؟ وماذا انتفعنا من التلذذ والتنزه سوى هذا الدود الذي لا ينام . وماذا ربنا من تذليل هذه البشرة وملاطفتنا اباها و اراحتنا لها ؟ ماذا استفدنا من الترف والمجد الفارغ . وماذا كسبنا من الثروة والغنى الزائد ؟ ها هي عبرت وجازت كال دخان و بقيت لنا الخطيئة التي ولدنا فيها وهوذا نحن نلتهب الآن محترقين من جرائمنا . أية فائدة استفدناها من هذا الجسد الملعون النتن الذي خضعنا لارادته وهواه منذ حدثتنا . وكنا نرفعه ونخدمه بالسكر والزنا والفسق والمشاحنات الكثيرة والعداوة المستديمة . ماذا استفدنا من خدمته سوى هذا اللهيب الذي نتقلب فيه الى ابد الابد .

« يا ليتنا كنا خلقنا بلا عيون ولم ننظر نظرة شريرة . أوجبلنا بلا آذان ولم نسمع كلمة باطلة . وبلا ألسن ولم ننطق كلمة رديئة . يا ليتنا ولدنا مقعدين ولم نخط خطوة واحدة في سبيل الخطيئة . ليت ما كانت لنا قلوب اشتت الشر بل ليتنا ما خلقنا أصلاً وليت أمهاتنا ما ولدتنا لأجل عذابنا هذا ، فإذا كان أيوب من آلام هذه الحياة الهينة القصيرة ضج وصرخ قائلاً « ليت هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبيل برجل . ليكون ذلك اليوم ظلاماً : لا يعن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار . لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني لم لم أمت من الرحم . عندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح » (أي ٣ : ٣ و ٤ و ١٠ و ١١) فبماذا تتصور يكون ضجيج و صراخ ندامة الأشرار في الجحيم .

سيلعنون البطون التى حملتهم والأيام التى ولدوا فيها واللبن الذى رضعوه
والشمس التى أشرقت عليهم والنسيم الذى استنشقه والوالدين الذين تغاضوا عن
تربيتهم والشيطان الذى أغراهم والخطية التى خدعتهم ويعترفون بخطاياهم التى
أوصلتهم الى هذا العذاب . سيسمع قايين يعترف للهالكين باثمه الفظيع حينما قتل
أخاه وقد كان أنكره على الله ، وسيعترف كل خاطئ بفظاعة الشر الذى ارتكبه
وهو لم يكن يدري أنه شنيع .

قال السيد المسيح عندما كان حاملاً صليبه ورأى نسوة كن يطمئن و ينحن
عليه « يابنات اورشليم لا تبكين على بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن لأنه
هوذا أيام تأتى يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع »
(لو ٢٣ : ٢٨ و ٢٩).

أجل : وستكون ندامة الأشرار بالأخص على نعمة الله التى وهبت لهم
واقتربت منهم ولكنهم رفضوها واحتقروها . سيصرخون بمرارة « لقد كان الخلاص
بين أيدينا وكان نواله سهلاً علينا فاستهنا به ، وكانت التوبة مدروكة لنا
فاستخففنا بها . لم نكثر بالآخرة ولم نبال بالعقاب ، ولكن ماذا تفيدنا الندامة
الآن ».

قال خدام : انى رأيت فى حياتى مجنوناً لا يتكلم إلا كلمة واحدة وهى
« ياليتنى » فإذا تكلمت يحدق اليك بنظره حتى تظن أن مقلتيه كادتا أن تخرجا
من وجهه وحينئذ يصرخ بصوت عظيم « ياليتى . ياليتى » فهذا المجنون كان قبل
أن يحس حارس جسر فى الطريق الحديدية وكانت وظيفته أن يفتح الجسر لمرور
المراكب ويغلقه لمرور مركبات البخار . ففى أحد الأيام أتت اليه بركة بأنه فيما بين
الساعة كذا والساعة كذا سيمر على الجسر قطار يحمر عددان من المركبات فعليك أن
تسقى الجسر مغلقاً ولكن لم تحدد له اللحظة التى سيمر فيها القطار بالتام . وكان
هذا الحارس أميناً فى عمله مطيعاً لأوامر رؤسائه فأتى اليه كثير من أصحاب السفن
يطلبون منه إن يفتح الجسر لتمر سفنهم فلم يجيبهم الى طلبهم وأخيراً أتى اليه أحد
أصحابه الذى كان رباناً لسفينة صغيرة وطلب اليه بالحاح شديد أن يفتح الجسر

لمرور سفينته فأستمع له وشرع بفتح الجسر وبينما هو يعمل ذلك إذا بصغير القطار قد
دوى فاضطرب ولم يمكنه حينئذ أن يعمل شيئاً ما ، فلا هو بقادر أن يفتح الجسر
لمرور السفينة ولا أن يقفله لمرور القطار والمركبات لأن الرعب أخذ منه مأخذاً
وربط يديه عن العمل وكان يصرخ قائلاً « ياليتنى . ياليتنى » ومن ثم كانت
النتيجة أن سقطت جميع المركبات وتحطمت وهلك جميع من فيها . ومن ذلك الوقت
أصيب ذلك المسكين بالجنون وكانت نهايته سيئة جداً .

ليت كل انسان تغريه الخطية على الاستمرار ولو لحظة واحدة من الزمان
يعرف ذلك حتى لا يبدع نفسه تصرخ بلا فائدة فى قاع الجحيم « ياليتنى .
ياليتنى » .

الفصل السابع والعشرون فى صعوبة العذاب الأبدى

«من منا يسكن فى نار آكلة ، من منا يسكن فى وقائد أبدية» (اش ٣٣ : ١٤)

لما أراد الله أن يظهر رحمته أظهرها بطريقة أذهلت الناس حتى أن كثيرين لم يصدقوها . هكذا إذا أراد أن يظهر عدله فسيظهره بطريقة تخفى على عقول الناس . فلا تتصوروا أن عذاب جهنم سينحصر فى الخسارة والعار والسجن والأسر والجلد والموت ، تلك الأمور التى لا نتحملها فى هذا العالم ولا نطقها . لأن كل عذاب العالم اخترعه البشر لا يقاس بالعذاب الذى أعده الله للاشرار الهالكين . إن الثيران النحاسية اخترعها بارتس ، والكراسى الحديدية استنبطها ثكليس ، وأوجد المصرىون نوع العذاب المروى ونقب الأظافر بقصب محرف . واخترع نيرون تلبس البشر جلود الوحوش والقاءهم الى الكلاب الكاسرة . واخترع مكنتيوش ربط الأحياء بجثث الموتى ليأكلهم الدود وهم أحياء . هذه كلها كانت آلات للتعذيب من اختراع البشر . وإذا كنا نعتبر ما يخترعه الانسان للتعذيب قاسياً ، فكم تكون قساوة تلك العذابات التى يعدها الله للاشرار إن أنواع العذاب الموجودة فى العالم لو اجتمعت كلها فوق رأس انسان تكون كنقطة صغيرة من بحر إذا ما قورنت بعذاب الآخرة .

قال الله على لسان حزقيال النبى «فلا تشفق عبنى ولا أعفويل أجلب عليك كطرقك ورجاساتك تكون فى وسطك فتعلمون انى أنا الرب الضارب» (حز ٧ : ٩) فما أعظم العذاب الذى سيحل بالخطاة لاسيما لأن الله أعده ليكفر بمعاقبتهم عما تناول مجده من الاهانة بسبب خطاياهم وإذا أردنا أن ندرك شدة عذاب جهنم فعلينا أن نتأمل فى باقى الكلمات الالهية . وكما أن عقولنا أقصر من

أن تدرك صفة واحدة من صفات الله فهي أيضا أضعف من أن تدرك كيف يعاقب الله الأشرار . إذا تجاسر رجل ولطم رجلاً فقيراً يكون عقابه خفيفاً . أما إذا لطم رجلاً شريفاً يكون عقابه أشد وأعظم . ولكن إذا اتصلت به الجسارة فلطم الملك فكم يكون انه سيرهم بشدة ذلك العقاب مقدار عظمة مجده وكم كان ينبغي أن يطيعوا أوامره .

أجل أن الأشرار حينما يطرحون في جهنم يستحوذ عليهم العذاب و يملكهم امتلاكاً لأن حواسهم وأعضاءهم وكل قوى نفوسهم الروحية تستولى عليها المرارة والألم والشقاء واللعة . وكل عضو من أعضائهم يصيبه من الألم ما لا حد له . قال الرائي «فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله المصوب صرفاً في كأس غضبه و يعذب بنار وكبريت أمام الملائكة والقديسين وأمام الخروف» (رؤ ١٤ : ١٠) .

فالاعضاء التي كانت آلة في يد الخطيئة تكون آلة في يد العذاب ، وكل شهوة كانت تلذ لأي عضو من أعضاء الجسد تحل محلها نقمة وشدة تعذباته ، فحاسة النظر التي كانت أثنى حواس الانسان والتي كان يشتهي بها إن يتطلع الى كل جميل وبهيج ستبتلى بالظلام المدهم «أرض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب و اشراقها كالدجى» (أى ١٠ : ٢٢) .

قال القديس يوحنا ذهبي الفم «لأنه من شدة الظلام الحالك المستحوذ هناك لا يقدر المقيمون أن ينظروا شيئاً أو أن يتبينوا من فى جانبهم بل كل واحد يعاقب على حدة ، ولوقيل إن هناك ناراً ولهبياً فانه لا اشراق لها بالفعل بل الكائنون فيها يحترقون فى ظلام وهم لا يستنيرون ولا يحمدهم عنهم اللهب» فيتم عليهم قول أيوب الصديق «يتلمسون فى الظلام وليس نور و يرغمهم مثل السكران» (أى ١٢ : ٢٥) إن الذين يحكم عليهم بالبقاء فى مكان مظلم ولوسنة واحدة يفضلون الموت على الحياة فكم بالحرى الذين يحكم بقائهم الى الأبد فى ظلام دامس !

العيون التى طالما تطلعت الى الوجوه الحسنة ستنفجر منها هناك ينباع دموع

دائمة لا تنضب . قال أحدهم : « ولكن النيران تحرق تلك الدموع فيكون الشرير باكياً ومعتزلاً في آن واحد » وقال آخر « إن الله يعطى الهالكين بين آن وآخر شيئاً من الضياع في جهنم لكي يروا بواسطته صور الشياطين الخيفة وأشكالهم المريعة وأدوات عذابهم المريعة ليزداد شقاؤهم وحزنهم وألمهم » .

وحاسة الشم التي كان يلد لها أن تتنسم الروائح الزكية والطيبات النقية سيكون عذابها عظيماً لشدة ما تشمه من النتانة المتصاعدة من جثث المعذبين وإذا كان التصاق إنسان حي بجثة إنسان ميت كافياً لهلاكه نظراً لشدة نتانة رائحته فإذا يعمل الخاطئ والروائح النتنة التي تصعد من جثث الهالين تحيط به من كل ناحية . « لو أخرجت جثة من جهنم لأفسدت رائحة المسكونة كلها » .

وماذا أقول عن عذاب اللسان الذي نرتكب به خطايا كثيرة كالكذب والوقعة والمكر والسب والذي طالما أطلقناه يغنى ويطرب . إن الغنى بقوله « يا أبى إبراهيم ارحمنى وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويرد لساني لأني معذب في هذا اللهب » (لو ١٦ : ٢٤) يصف لنا أن العضو الذي سيصيبه من العذاب أشده هو اللسان .

أولئك الذين تنعموا في هذه الحياة بالغنى والمرتبة ، أولئك الذين كانوا إذا طلبوا طعاماً أحضرت لهم المأكولات على اختلاف أنواعها شهية ودسمة . وإذا طلبوا شرباً قدمت لهم الأقداح المملوءة بما لذ وطاب ، تراهم حينئذ يلتمسون قليلاً من الخبز فلا يجدون ويتوسلون إلى نقطة ماء بارد فلا يعطيهم أحد .

وحاسة اللمس التي بها نضرب غيرنا ونشهر الأسلحة على بعضنا ونسفك دماء الأبرياء ونوقع بها الصكوك المزورة سيكون عذابها شديداً بلامسة كل شئ جرح ومؤلم ومخيف .

وكذلك يتعذب الإنسان في قوة ذاكرته وفكره . ذلك الفكر الذي كان يطلق له العنان ليتأمل في لذة الخطيئة سيتعذب هناك كلما تذكر الزمن الذي أضاعه ، والنعمة التي فقدوها ، والنعم الذي خسره .

وأخيراً يتعذب فى أنه لن يجاب الى طلب ما ، فإذا أراد الخروج فمتنع عليه وإذا طلب الراحة فلن يدركها وعليه أن يقضى هكذا فى العذاب الى أبد الآبدين . النار تحرقه والدود يلدغه . هناك ينوح و يتوجع وليس من يرحم . هناك الآلام المبرحة وليس من يشفق . هناك الحريق المعبذ وليس من مرهم يخففه . العطش الشديد وليس من يرويه ، الجوع الكالب وليس من قوت يسده . الحزن العميق وليس من رقاد يسكنه . العار الفاضح وليس من نقاب يستره .

أسفاً على أولئك الذين أرخوا لأنفسهم هنا عنان الشرور والشهوات فانهم هناك يقيدون بقيود أبدية تحت الظلام (يه ٦) لقد قضى قديماً على مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حولها بالاحتراق بالنار والكبريت . ولكن الذين أحرقتهم النيران فى سدوم وعمورة ماتوا واستراحوا من العذاب ، والنار بالطبع انطفأت . ولكن ما أمر نار غضب القدير . فانها فى جهنم لا تطفأ على الدوام وأجساد الخطاة تتلظى بها الى الأبد . لما غضب الله على هيرودس الملك ضربه ملاك الرب بدود فصار يأكله الدود ومات (اع ١٢ : ٢٣) فإن كان الذى قضى عليه بأن يموت على هذه الحالة اعتبر موته هذا تعذيباً له فما بال الذين يأكل فيهم الدود الجهنمى ولا يموتون كما أن الدود نفسه لا يموت .

وفى المستقبل يقضى الله على العالم بضربات شديدة معينة من ضمنها ضربة جراد لداغ يعذب الناس وعذابه كعذاب العقرب إذا لدغ انساناً . وحرارة لدغاته يطلب الناس الموت فيهرب الموت منهم ولا يجدونه . ثم ضربة خيول رؤوسها كروؤوس الأسود وتخرج من أفواهها نارا وكبريتاً تعذب الناس بها ولها أذنان تشبه الحيات ولها رؤوس وبها تضر (رؤ ٩ : ٣ - ١٩) فإن كان عذاب الجراد الذى يلدغ بأذنايه الحادة وعذاب الخيول التى تحرق بما تخرجه من أفواهها من اللهب ، يؤلم ويعذب حتى يحمل الناس على طلب الموت مع أن الموت عدو مخيف يخشاه الناس وهربون منه فما بال عذاب اللهب الذى لا يطفأ والدود الذى لا ينام .

إن الأطباء قد أعدوا لكل مرض دواء ولكن لا دواء لعذاب الجحيم وليته كان

هناك سبيل الى الموت فالعذاب متواصل ، والموت مستحيل . كثيرون كرهوا الحياة فى الدنيا لأمراض أصابهم أو لخسارة فادحة لحقت بهم فتحصلوا منها بالانتحار ولكن هناك لا خلاص من العذاب بأى حال من الأحوال . إن أعظم عذاب فى هذه الأرض هو عذاب النار . فالموت احتراقاً من أعظم المיתات المرة . ولكن نار هذا العالم لا تذكر إذا ما قورنت بنار جهنم ، لأن نار هذا العالم تحرق الجسم وتلاشيه ثم تنطفئ وأما نار جهنم فانها تحرق الجسم ولكن لا تلاشيه ولا تنطفئ كما انها لا تقضى على شعور الخطاة واحساسهم بل يبقى الهالك متيقظاً منتبهاً لكل عذاب شاعراً به شعوراً تاماً . فلا تحرق نار جهنم العظام والقلب والأحشاء وترمدها ولكنها تؤلم الحاطى وتعذبه ولكنها لا تميته .

إن نار هذا العالم تحرق الجسد دون النفس ولو أنها تعذبها لاتحداها بالجسد ولكن الله يعطى النار فى جهنم فوق طبيعتها لتكون آلة انتقام أى أنه يسلطها على النفس فتعذبها عذاباً أشد لأنها هى العلة الأولى للخطية . قال قديس « إن نار هذه الأرض بالنسبة الى نار الجحيم برد وزمهرير » .

وقال أحد الأفاضل « لا تتصوروا أن نار جهنم هى مثل نار هذا العالم لأن هذه خلقت لمنفعتنا أما تلك فقد خلقت للتعذيب وهى أشد رعباً لثلاث صفات كميتها وكيفية وقوة فاعليتها . أما من جهة كميتها فكلما زاد الأتون عظم لهيبه ولا يستطيع انسان إن يصف مقدار اتساع جهنم الذى يجمع جميع الخطاة فى كل زمان ومكان . ومن جهة كيفية فقد اخترع العلماء ناراً تشتعل فى وسط المياه ولا تنطفئ . ولكن نار جهنم لم يصنعها البشر بل صنعها الله فلا بد أن تكون شديدة للغاية . أما عن قوة فاعليتها فذلك واضح من أن جميع الخطاة سيكونون فيها وقد أغلقت عليهم أبواب الجحيم فيظل اللهب مرتفعاً ونازلاً وملثفاً بأجسام الهالكين من كل ناحية بشدة .

وفى تلك النار الشديدة الالتهاب يكون مسكن الهالكين الى أبد الآبدين و يكون كل من الأشرار مطروحاً فى جوفها وهى لا تحرقه من الخارج فقط بل تدخل الى الداخل أيضاً فتحرق عقله وتشتعل فى أحشائه وتلتهب فى اعائه لتعذبه باطنياً وخارجاً . قال الكتاب « تجعلهم مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب

بسخطه يتلعمهم وتأكلهم النار» (مز ٢١ : ٩).

قال بولس الرسول «الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب (٢ تس ١ : ٩) وقال ميخا النبي «من أجل نجاسة تهلك والهلاك شديد» (مى ٢ : ١٠) فلو وجه الانسان فكره لذلك العذاب الرهيب والعقاب الشديد للذين قضى بها على الأشرار لفرغ قلبه وارتعدت فرائضه من هولها المرعب ولصرخ قائلاً «آها وحسرة من العذاب المقضى به على الخطاة الهالكين» .

إن بعض الخطاة يخدعون أنفسهم ويقولون «دعنا فلا نار ولا عذاب إنما هو كلام» واخرون ظنوه عذاباً فكرياً أو أنه مجرد البعد عن الله . وفى هذا قال القديس يوحنا ذهبى الفم «حقاً إن جهنم شر لا يطاق وعذابها مخيف ومرعب جداً غير أنه لو أرانى أحد ألف جهنم فلا أخاف منها ولا أرتعب كما أجزع وأرهب من فقد المجد الأبدي واستماع صوت السيد المسيح القائل لى بوجه غضوب «لا أعرفك» وتوبيخه اياى لأننى لم أطعمه فى حين احتياجه وجوعه ولم أسقه فى حين عطشه .

قيل إن سنايسوس الجليل كان عنده عبد وكان ذلك العبد رذلاً سكيراً مسرفاً فهرب من وجه سيده فكتب سيده الى أخيه رسالة يقول فيها «يأخى لقد هرب من عندى من هو عبد قلباً وقالباً . ولذلك أرسلت اليك لتفتش عليه ، وإذا وجدته كفته وقيده ولا ترسل الى بل الى بلدته ، لأن تلك المدينة التى ولدت الشرينغى إن تضمنه . وإما من جهتى فلست أؤدبه لأن الرذيلة التى فيه كفؤ لتأديبه . ولا أجد له عذاباً أشد من الرذيلة المستحوذة عليه ولست أريد أن أقصص منه لأن الشر كاف ليقصص من الشرير» فإن كان الشرير لا يعتبر أن عذاب الفكر فى جهنم أشد من عذاب النار فما أجهله وإن وجد من لا يؤمن بهذه الحقيقة فلا بد أن يكون فاسد الفكر ولا يريد أن يعتقد هذا الاعتقاد لكى لا ينغص عليه عيشه ويكدر صفوه . يروم الأشرار أن لا يكون وجود لجهنم النار وأن تبقى آثامهم بدون أن يتناولهم عليها تأديب أو قصاص . ليت شعرى كيف يتأتى هؤلاء أن يتعابوا ويحاولوا اقناع أنفسهم بعدم وجود جهنم . فإن قالوا لا وجود لها فما هم إلا كذبة مملوون سفاهة وضميرهم يكذبهم . قال القديس أوغسطينوس «انك تتجاسر وتنفوه بذلك لكنك

لا تتجاسر على الاعتقاد بصحة ما تقول لأن ضميرك يشهد لك بالخلاف . فعياً
تروم محاولاً اخفاء نخس هذا الضمير فانه يعلمك دائماً بأن جهنم تتوعدك وأنت
نفسك تظهر بأنك تستوجبها .»

لكن الواقع الذى لا ريب فيه أنه توجد نار للعذاب لأن الوحي قرر هكذا مراراً
وعلى الأخص فى تصريح السيد المسيح له المجد إذ قال عنها انها نار ممتزجة بدود
لداغ فدعكم من الظنون الباطلة فانه ولا شك عندما يرى الخطاة اضطرام اللهب
وزفير اللظى وهم مساقون ليطرحوا فيها تحق قلوبهم ندامة و يستولى عليهم الرعب
وعندما يتحققون انها نار مضطربة يصرخون متحسرين ومستجيرين ومستغيثين
ومستنجدين .

أنه لا يجراً على انكار حقيقة وجود جهنم إلا كل مكابر فاسد السيرة سقيم
الرأى والعقيدة . وهب أنه لا توجد جهنم فعلاً وانه لا عقاب يكون للأشرار سوى
طرحهم بعيداً عن الله فكفى بالبعد عن الله عذاباً وآلاماً . لأن الرسول يقول «لأن
الخوف له عذاب» (١ يوحنا : ١٨ : ١٨ ورؤيا : ١٠) وإذا قيل أليس الله رحوماً فلماذا
هذا القصاص المريع الذى لا يطاق ! فأجيب أن الاثمة لم يكتفوا بأنهم اضجروا
الناس بل أضجروا الله أيضاً (اش ٧ : ١٣) وأغاظوه وأهانوه بل أثاروا غضبه فن
ثم استحقوا دينونة عادلة لا ظلم فيها ولا جور .

نعم ما أهول الشقاء الذى توعد به الله غير التائبين
(اش ١ : ٤ ، مت ١١ : ٢٠) سيكون عذابهم عظيماً ولا تكون له نهاية . قال أحد
الأفاضل . «إن جهنم بلية شديدة حتى أنه لو فرض أنه سيحكم على انسان واحد
فقط من بنى البشر كافة بالعذاب فيها لكان يلزم كل منا أن يخاف من أن يكون هو
ذلك الشقى المنكود الحظ » ولا يستطيع العقل البشرى أن يتصور مقدار شناعة حالة
المالكين فإن دوى صراخهم يشق الصخور الصلدة وأوجاعهم كاوية مرة حتى أن
ساعة واحدة فى هذا العذاب لأشد هولاً من وقوع الانسان بين مخالب المرض
القاسى سنين طويلة فى الحياة .

هذا هو مدفن لذات العالم وهذا هو حد الشهوة والطمع فما أصعب وما أمر
عذاب تلك الأجسام التي تعامل في الحياة بكل لطف وتتنعم مترهفة فإن كنت
تخاف من بلايا هذه الحياة التي لا تدوم سوى مدة وجيزة فلم لا ترتعب من بلايا
أشد وأصعب مكتوب لها بالدوام . إن كنت تتألم هنا من لدغ نحلة فكيف تتحمل
هناك تلك النار المفترسة ؟ لما أحضر نبوخذنصر علماء الكلدانيين لأجل تفسير حلمه
وضع لهم هذا الشريط المحدد بوعده ووعيد وهو إن بينتم الحلم وتعبيره تنالون من
قبلى هدايا وحلاوة وكراماً عظيمة وإن لم تبينوا الحلم وتعبيره فقصاؤكم واحد
تصيرون أرباً أرباً وتجعل بيوتكم مزبلة (د ٢١ : ٥ و ٩) وهكذا السيد المسيح قد
حدد شرطاً للخلاص من العذاب الأبدى بوعده ووعيد . فقال فى وعده « فكن
غيوراً وتب هأنذا واقف على الباب واقرق . إن سمع أحد صوتى وفتح الباب ادخل
اليه وأتعشى معه وهو معى » (رؤ ٣ : ١٩ و ٢٠) ثم قال فى توعدده « وأعطيها زماناً
لكى تتوب عن زناها ولم تتب . ها أنا ألقيا فى فراش والذين يزنون معها فى ضيقة
عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أفعالهم . وأولادها أقتلهم بالموت فستعرف جميع
الكائنات انى أنا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطى كل واحد منكم بحسب
أعماله » (رؤ ٢ : ٢١-٢٣) .

وهكذا جاءت وعود وتوعدات لقضائه عدلاً . فقال « إن شئتم وسمعتكم تأكلون
خير الأرض وإن أبيتم وتسمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم »
(اش ١ : ١٩ و ٢٠) وقال أيضاً « قولوا للصديق خير . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم .
ويل للشري شر . لأن مجازاة يديه تعمل به » (اش ٣ : ١٠ و ١١) .

الفصل الثامن والعشرون فى الأبدية الخيفة

« و يصعد دخان عذابهم الى أبد الأبدين ولا تكون راحة نهراً وليلاً » (رؤى ١٤ : ١١)

بينما فى الفصل السابق « صعوبة العذاب الأبدى » وأوضحنا كذلك أنه فوق - طاقة الانسان ، ونقول هنا انه لو كان ذلك العذاب الى أوقات معينة ولو ملايين السنين لما بكست العيون ولا انهمرت العبرات من الجفون ولكانت عاقبة ارتكاب الشر من أهون الأمور . ولكن ما يولد الخوف والاضطراب ويملأ القلب جزعاً وفزعاً هو أن ذلك العذاب لا حد ولا نهاية له ، وتلك الأبدية لا قرار لها .

إن أبدية الخطاة ظلام دامس دائم لا يضى فيه نور الشمس أبداً . وأفق عذابهم لا يلمح فيه برق على الدوام . وكل ساعة يقضونها فى جهنم المظلمة يخالونها ألوقاً من السنين . هذا هو الذى يجعل العذاب على ما هو عليه من الهول والشدة .

لقد مضى على قايين أكثر من خمسة آلاف سنة وهو يتعذب فى الجحيم ومع ذلك لم يتقدم ولم يخط خطوة واحدة فى أبديته بل كأن هذا اليوم هو اليوم الأول من دخوله فيها . ولقد مر أكثر من ألف وتسعمائة سنة وذلك الغنى الشريرين و يتند ولم تستطع دموعه السخينة أن تسكن عذابه دقيقة واحدة .

ولقد ضرب أحدهم مثلاً على دوام الأبدية فقال : « لو كان أحد الهالكين فى جهنم يقطر من عينيه كل مائة سنة دمعة واحدة وتحفظ دموعه كلها ليتكون منها بحر عجاج فترى كم من آلاف الدهور وريوات السنين تمر ولا يتكون من دموعه بحر بل ولا بحر ماء صغير ، ولو فرضنا إن تكون الأبدية حينئذ قد بلغت نهايتها ؟ كلا بل

تكون كأنها فى دور الابتداء ، ولو تكررت عملية استجماع دموعه آلاف المرات وتكونت منها بحور أخرى فى ربوات أضعاف الدهور التى تكون فيها البحر الأول فلا تكون الأبدية قد قاربت من الانتهاء بل لا تكون إلا فى بدايتها فقط .»

وقال آخر « وما معنى قول الكتاب الى أبد الآبدين » هل معناه أن الخطاة يتعذبون مدة تساوى المدة التى فيها يستطيع عصافير أن يحفف جميع مياه البحار إذا أتى كل سنة مرة واحدة وشرب نقطة واحدة لا غير ؟ هل معناه أنهم يتعذبون زمناً يقدر بالزمن الذى تتمكن فيه دودة صغيرة من أن تفنى كل أشجار الأرض إذا قرضت كل سنة قرصة واحدة فقط ! هل معناه أنهم يتعذبون دهوراً تقدر بالدهور التى تتمكن فيها نملة من الطواف بالأرض بأسرها إذا مشيت كل سنة شبراً واحداً فقط ! لا بل هم يتعذبون الى أمد أطول من ذلك بكثير جداً . حتى لو فرض إن العالم كله مملوء بالرمل ونقلت منه كل مائة سنة ذرة واحدة لأنتهى ما فى العالم من رمل ولما انتهت الأبدية .

يقدر البروفسور « دانا » العالم الجيولوجى إن العصر الذى وجدت فيه آثار الحياة بدأ على الأقل منذ ١٦ مليون سنة مضت وإن العصر العظيم المسمى بعصر الظلام الذى وجد قبل ذلك لا بد أنه يرجع الى أمد أبعد من ذلك بمراحل كثيرة منذ أن أوجد الله الكرة الأرضية ، ومع ذلك فلوقضى الخاطئ مثل هذه المدة فى الأبدية لكان لا يزال فى أولها فقط ، وقد قدرت المسافة الشاسعة التى تفصل أبعد كوكب يمكن للمرء أن يراه بأقوى منظار فى الأرض باثنين ونصف كوادريون ميل ، ومع ذلك فإن هذا النجم البعيد ليس هو نهاية الفضاء وهو مستمر فى الدوران بلا نهاية ، هكذا الأبدية فإنها تشبه محيطاً زاخراً لا حدود له . والشقى يكون فيه دائماً الدوران .

كل ذلك لأن النفس غير قابلة للفناء فلا يقدر القاتل على ملاشاتها ولا السكير على اغراقها ولا محب العالم على دفنها بالمال فهى اعجب وأبقى من كل العوالم السابحة فى الفضاء الذى لا نهاية له فيتحول القمر الى دم وتحترق الأرض بنار وتنطوى السموات كدرج وتنتهى كل هذه المشاهد العظمى . النفس البارة تبقى فى النعيم دائماً الخلود والنفس الخاطئة تبقى فى العذاب الى الأبد .

على هذا الحال يقيم أولئك الأشقياء فى وسط هذه النار الآكلة والعذاب المؤبد الى مالا نهاية . لست جميع البشر يأملون فى ذلك ولودقائق قليلة فانهم لوعرفوا ذلك جيداً لأصلحوا سيرتهم وتغيرت حالتهم .

أيها الأشرار اشفقوا على أنفسكم . تصوروا ذلك العذاب الأبدى وذلك الالتهاب الدائم ، وان كان لا يستطيع أحد منا أن يتحمل وضع شظية من النار على أى عضو من أعضاء جسمه ولولمدة دقيقة واحد ولا يطبق صبراً على تحمل مرض أو ألم يحل به فيسارع باستدعاء الاطباء لاغاثته ، فما بالناس لا نجزع إذا ما تصورنا آلام الجسد وعذاباتها التى تتناول الجسد والنفس معاً ؟ إن ليلة واحدة تمر علينا فى الحمى أو فى ملاطمة أمواج البحر ونحن بين الحياة والموت تظهر لنا طويلة جداً . فالشمس تظهر للمتألم كأنها نسيت دورانها وكأن كل شرايع الطبيعة قد انقلبت . فبإذاً ماذا تكون حال أولئك الأشقياء الساقطين فى هاوية الغضب الالهى بعدما يقضون أجيالاً ودهوراً لا عد لها لا يمكنهم إلا أن يعترفوا قائلين « إن هذه كلها ليست إلا دقيقة واحدة من دقائق شقاءنا وسنبقى فى مثل عذاب هذه الأجيال الطويلة بعيدين عن السعادة السموية معذبين بعذاب اللهب الآكل وتوبيخ الضمير المؤلم ونزيد خطايانا بكثرة تجديفنا على الله ونبقى فى اللعنة الى الأبد والى أبد الأبدىين » .

بقدر ما تطعم النار مواداً ووقوداً هكذا يستمر التهابها ، والمادة التى تشتعل بها نيران جهنم هى الخطية وكما أن الخطية لا تزول عن أهل المعاصى لأنهم هبطوا بها الى النيران فستظل النيران مستعرة تعذبهم ليلاً ونهاراً بلا انتهاء ، وكما أن حشائش الأرض بعد أن تأكلها الحيوانات تنبت ثانية ، كذلك الخطاة تأكل فىهم نار جهنم فى كل وقت ولكنها لا تفتنهم .

قيل إن أحد الاسبانين الشرفاء المدعو ويداكس لما أن أبلغ فى احدى الليالى وهو فى سجنه بالحكم عليه بالاعدام شاب شعره فى تلك الليلة ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر ولاح كأنه قد تجاوز الستين . فإن كان يمكن أن يقال عن تلك الليلة ما أطولها على ذلك التعس وما أشد هولها حتى جعلت شبابه يتحول الى شيب

فإذا يقال عن ليلة جهنم التي ليس لطولها نهاية والتي تشيب الهالك في كل لحظة بأهوالها . وفي الوقت نفسه تستبقيه وسط النيران شاباً يتعذب ولا ينصهر . ويرعى في جسمه الدود لادغاً منه آكلأ ولكنه لا يفنى ولا يضمحل .

أيها الخاطئ . انك تمنى أن يطول عمرك في هذه الحياة كما طال عمر متوشالح ليكون لك من التمتع بالملذات القسط الأوفر . ولكن هناك في الجحيم ستطلب الموت فلا تجده . اصغ الى صوت أبيمالك يصرخ من أعماق الجحيم قائلاً أين السيف الذي قتلت به نفسي فتخلصت من العار الذي كنت أخشى أن يلحق بي في الحياة لأهلك به نفسي هنا (قض ٩ : ٥٤) ويقول زمرى أين النار التي أحرقت بها نفسي لأموت بها ثانية (١ مل ١٦ : ١٨) ويقول اخيتوفل أين الحبل الذي خنقت به نفسي لأعيد الكرة عليها (٢ صم ١٧ : ٢٣) وهناك سيدفن الأشرار أنفسهم في أشد أنواع العذاب دفناً لعله يقضى على حياتهم ولكنهم لا يجدون الى ذلك سبيلاً .

ياله من ملل عظيم يستحوذ على الخطاة . وإذا كان الأشرار هنا كثيراً ما يملون من لذاتهم فكم بالحري يكون ملل المعذبين من عذابهم ؟ قال القديس أوغسطينوس « ياله من جنون عظيم وهو انك تخاف من أن تتوب لثلاث تقضى الحياة القصيرة معارضاً لشهواتك ولا تخاف من أبدية النيران . فإن كنت تحترس احتراساً عظيماً من الموت . ومن مرض لا يدوم سوى زماناً يسيراً فلم لا تحترس لكي تجتنب موتاً وعذاباً بيقيناً » .

فإن كنت تخاف وتكتئب إذا مكثت بين أجساد الموتى بغير مصباح فكيف تحتمل أن تمكث دائماً في القتام والظلام المدلم بين جملة الهالكين حيث لا ترى نوراً ولا شمساً ولا قرأ ولا نجوماً . وإن كنت لا تحتمل مشاهدة شيطان واحد فكيف تستطيع أن تعاین جماهير الأرواح الشيطانية الكثيرة العدد المختلفة الأشكال والهيئات المزعجة الخيفة ؟ وإن كنت لا تحتمل أن تبقى اصبعك دقيقة في النار فكيف تحتمل أن تكون ملقى بجملتك طريحاً الى الأبد في هوة جهنم التي لا يحتمل سعيها ؟ وإن كانت نازلة من النوازل الهينة أو مصيبة من المصائب البسيطة تجعلك تمنقت هذه الحياة فكيف يمكنك أن تصبر على تلك الشدائد والأمراض المتباينة التي

تعذبك وتمتلك جسمك ، والتي لا ينفع فيها دواء ولا طبيب ؟

قال أحد الوعاظ فى عظة له عن « الأبدية » . أيها الأخوة : ما أهول هذه الكلمة ولو فى هذه الحياة الدنيا وما أشد البلية التى لا نجاة منها وما أصعب سمع كلمة الأبدية فى حال العذاب الأليم . فقيود أهل النار أبدية ، وسلاسلهم أبدية ، وسجنهم أبدى ، وكل اذلال وتعير وعذاب دائم الى الأبد .

أيها البشر الأشقياء ما أجهلكم ألا تعلمون أن الحياة ليست إلا أسرع من الوشيعة (أى ٧ : ٦) وانها تزول كسنة فهى ليست أبدية ؟ إن الأبدية أيها الغافلون لا نهاية لها فهى مما لا تدركه عقول المخلوقات ولا نهاية لأبدية المالكين .

اننى أكاد أعيا وأسقط تحت ثقل هذا الموضوع وانى حين أرى نفسى وأصحابى وأقربائى وشعب رعيتى وكل هذا الجمع وأفكر فى اننا كلنا مهددون بذلك العذاب العظيم وأرى أننا مستخفون بالمقاصد الروحية ، أشعر بأن سماً قاتلاً قد توزع فى أزمئة حياتى وجعل الفة أصدقائى نفوراً ولذة الطعام ألماً وأفراح الحياة أحزاناً والحياة نفسها مرة ولا أتعجب حينئذ لما أسمع أن الخوف من جهنم جعل البعض عابسين وغيرهم مجانين ، وهذا الخوف قد حمل البعض على أن يهربوا من مخالطة كل بشر وجعل غيرهم يحتملون أشد الآلام الجسدية .

فاحذروا أيها الاحباء واعلموا أن ليس لكم فرصة للخلاص من ذلك العذاب العظيم إلا فى هذه الحياة القصيرة . أما بعدها فلن تلقى عليكم خطب ولا عظات ولن يكون هنالك محل لقبول التوبة ولو كانت بالدموع والتنهدات ففكروا فى قصر الحياة وفى أنكم ربما تفارقونها بعد سنة واحدة أو شهر واحد أو يوم واحد أو ساعة واحدة أو دقيقة واحدة واعملوا حالاً للخلاص من ذلك الشقاء الأبدى . تأملوا وانظروا فى شفقة الله عليكم ومحبهه لكم فانه يحثكم و يسألكم بكل لين ورفق أن تهربوا من تلك الأهوال قائلاً : ليت شعبى يصغى الى . فتعلموا أيها الناس لئلا تفارقكم نفسى فلماذا تموتون يا بيت اسرائيل (مز ٨١ : ٨ ، ار ٦ : ٨ ، حز ١٨ : ٤١) .

قال الكتاب « و يصعد دخان عذابهم الى ابد الآبدين ولا تكون راحة نهاراً ولا ليلاً » فائريض معها ثقل مرضه قد يرتاح وقتاً ما وأما هناك فلا راحة مطلقاً .
ما أطول الليل على العليل ولكنه عندما يرى انبثاق الفجر يستريح ، أما ليل جهنم فلا فجر له بل هو ليل لا نهاية له بالمرة .

فلنترك القساوة ولنرجع الى عقولنا . إن كثيرين قد يتفوهون بجسارة ويقولون انهم مستعدون للذهاب الى جهنم وأنهم عالمون أن مثواهم النار وأن ذلك لا يهمهم ولا يعرهم فهو لاء أشبه باللصوص وقطاع الطرق والقتلة الذين يتظاهرون بأنهم لا يخشون الاحكام فيقولون « السجن للأبطال الموت للرجال » ولكن إذا قبض عليهم وأودعوا السجن أو حكم عليهم بالاعدام فانهم يقضون الأيام والليالي يتقلبون على أحر من الجمر في الندامة والتحسر . وهكذا الخطاة في الدنيا فانهم لا يبالون بالعقاب ولكن لما يأتى وقت القضاء يقولون « آهأ » (اش ٣٣ : ١٤ ، لو ١٦ : ٢٦) .

وكما أن عذاب الأشرار في جهنم لا ينتهى فهو أيضاً لا يتغير ولا تخف حدته بل كما يكون فى بدنه هكذا يكون الى الأبد فالنار هي هي لا تتغير . والدود هو هو لا يموت . ولعمري إن هذا الأمر يملأ قلوب الخطاة خوفاً ورعباً لا سيما حينما يعلمون إن عذابهم لا مفر منه ولا علاج له ولا مخفف لشدة .

يعترض البعض قائلاً « كيف يوافق عدل الله أن يقضى على الانسان بالعذاب الأبدى مقابل خطية صغيرة ارتكبها فى زمن وجيز » فنجيب بأن الله رحيم حقاً ولكنه غيور على القداسة فالذى يموت بخطيته لا يمكن أن يخلص منها فى الجحيم وبالتالى لا يتجاوز الله عن عقابه لأجلها باعتبار أنها ضد صفته الكاملة « القداسة » وهوذا اشعياء النبى يصرخ قائلاً « ها ان يد الرب لم تقصر عن ان تخلص ولم تشغل أذنه عن ان تسمع بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين الهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع » (اش ٥٩ : ١ و ٢) قال أحدهم « إن الله لا ينظر الى الأفعال بل الى النية فيعدل يحق له أن لا ينهى عقاب جميع الذين كان فى نيته أن لا ينتهوا عن فعل الخطية فى جميع أيام حياتهم وألا يعمل

حداً لعذاب الذين لم يجعلوا حداً لخطيتهم . نعم إن ارتكاب الخطية كان قصيراً
منتهياً إلا إن حب الخطية كان دائماً غير متناه لأن الخاطئ كان يتمنى أن يحيا بلا
انتهاء ليخطئ بغير انتهاء ، وقال القديس أوغسطينوس « أنه بكل وجه من الحق
تتعذب النية الشريرة ولو لم يلحقها الفعل الشرير فينتج إذاً أنه إن مات الانسان
فى خطية يكون راعباً فى فعلها الى الأبد لوافق له أن يحيا الى الأبد فإن الله يعذبه
الى الأبد » .

وقال العلامة ترتوليانوس « إن الله يحتمل فى هذا الزمان آثام الناس بطول أناة
لأن الأبدية بتمامها فى قبضة يده فيقاصصهم بها . صبور لأنه أبدى . على انه تعالى
إذا ما صبر فانه بصبر كاله وإذا ما عاقب فى الجحيم فانه أيضاً يعاقب كاله » وعلى
هذا المنوال يستحق الخاطئ الخلود فى العذاب لأن عظم الذلة إنما يقاس بحسب
عظمة قدر من صدرت فى حقه . والحال أن المجد الالهى غير متناه . والخطية هى ذلة
صادرة ضد الجلال الالهى فهى غير متناهية ، وبالتالي تستحق أن تعاقب عقاباً غير
متناه .

قال أحدهم تحت عنوان « الى أين ! الى أين ! » مات فى القرن الثامن عشر
أحد الشيوخ فى أمريكا وترك لابنه وصية تتضمن هذه الكلمات : « أذكر أنه
توجد أبدية طويلة » فحفظ هذه الوصية جميع أفراد عائلته وأثمرت ثمراً حسناً فى
تحسين سيرتهم . وقال أحد السياح « دخلت منزلاً فرأيت فى إحدى غرفه ورقة
مكتوباً عليها هذه الكلمات « يارجل أعرف هذه الأشياء . الله والدقيقة والأبدية »
وقال رتشارد بكستر إن أحد معاصريه القسوس جعل محور وعظه طول حياته عن
الأبدية . فزار مرة امرأة مشرفة على الموت وحالماً دنا منها صرخت « ادع الوقت
ليرجع - ادع الوقت ليرجع » فأجابها عبثاً ما تبغين فإن رجوع الوقت مستحيل
كتقصير الأبدية .

اسأل نفسك أيها الانسان « الى أين أنا ذاهب ؟ الى أين أيتها الأوراق
المتساقطة ؟ لا أعلم . الى أين أيتها الريح ؟ لا أعلم . الى أين أيتها الأمواج
المربدة . لا أعلم ، لكن الانسان ليس ورقاً ولا ريحاً ولا أمواجاً ولا شيئاً من مثل

هذه يجيب « لا أعلم » بل عليه أن يعلم أنه منطلق اما إلى سعادة أبدية او إلى شقاء أبدى .

« الى أين ؟ » قال أحدهم وهو على فراش الموت وكان ممن لم يبالوا بهذا السؤال طول مدة حياتهم « أرى ظلمة دامسة محدقة بى من كل ناحية » وقال آخر ممن كانوا على شاكلته فى مثل حالته « اننى خائف جداً » وقال آخر وهو على حافة الأبدية « أنا مائت ولا أعلم الى أين أنا ذاهب ، فيالها من ساعات مخيفة حينما يبلغ الانسان الدقيقة الأخيرة من الحياة و يرى أن الفرض الثمينة قد انتهت وإن الظلام الأبدى قد أقبل وإن أنوار الرجاء قد انطفأت .

فلينتبه الخاطئ من غفلته وليفتح عينيه وليهتم بما هو قادر عليه الآن فيداوى ما لا يقدر على مداواته فيما بعد . إن الزمان الحاضر مناسب ومقبول . الآن فى دقيقة واحدة يمكننا أن نكسب ما لا يمكن أن نكسبه فى الأبدية كلها .

الفصل التاسع والعشرون

فى سعادة الأبرار ومجد القديسين

« ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩)

قال الله لملاك كنيسة سميرنا « كن أميناً الى الموت فسأعطيك اكليل الحياة » (رؤ ٢ : ١٠) وهذا الوعد هو لكل انسان . فمن كان أميناً فى محبة المسيح وخدمته وعهوده الى الموت فسينال منه اكليل الحياة ويحظى بالشركة معه فى الميراث السماوى والأبجاد الأبدية . وعلى ذلك فالجهاد والآلام هى طريق الوصول الى الأبجاد وكذلك احتمال الضيقات والأمانة الى الموت فانها سبيل التمتع بنوال اكليل الظفر ، فالمسيحى الأمين متى فارق هذه الحياة يلقى ربه باسم الثغر وضاح الجبين ، و يكون كالجندى الباسل الأمين عندما يعود من ساحة الحرب منتصراً لينال جزاء جهاده وأمانته . إن يوسف حصل على خاتم الشركة والسلطان بعد خروجه من السجن ، وبولس يقول « جاهدت الجهاد الحسن .. وأخيراً وضع لى اكليل البر » .

فلا تضجر أيها المؤمن إذا أصابتك البلايا وتراكت عليك المخاوف والأحزان بل اثبت على ما تعلمت وأيقنت لكى تتمجد فى السناء بالأبجاد التى يعجز اللسان عن وصفها . تلك الأبجاد التى لما عاينها بولس الرسول لم يقدر أن يتكلم عنها ولم يجد فى قواميس اللغة ألفاظاً تساعد على وصفها فاكتمى بقوله « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » .

ولعمري أنه كفى بالقديسين أن يتمتعوا بالوجود فى حضرة الله فهذا هو منتهى الفخر والمجد والسعادة التى تفوق كل سعادة . والغنى الذى هو أعظم من كل غنى

العالم ، ولا ريب أنه ما من كنز يضاهى هذا الكنز ولا امتلاك أعظم من هذا الامتلاك ، أى امتلاك الانسان لله سبحانه وتعالى . أية وراثة أكثر قيمة من ملك السموات والأرض . وأيما ذهب أغلى من خالق الذهب وهو يقدم لنا كل غنى للتملكة .

وفى ذلك يقول المرتل « يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بتورك نرى نوراً » .

اننا هنا لا نرى الاله الذى خلقنا وافتدانا والذى يحيطنا دائماً بالחסنات و يقدم لنا فيض نعمته لتملكها ولكننا هناك سنراه كما هو بل ونجلس معه ونشابهه فى جسد مجده قال بطرس الرسول « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨) فاعظم الفرح الذى يملأ المؤمن عندما يشاهد رب البرايا يحتفى به و يضمه الى صدره بمحبة وحنان . ومن هو الانسان الذى يكون موضع اهتمام مبدع الوجود وخالق الكائنات ؟ وأى سرور أعظم من سرور النفس التى تتمتع بجمال الخالق وبجميع كمالاته ؟ وإذا كان يعقوب لبث يخدم لابان مدة أربع عشرين سنة لأجل جمال راحيل . فأية خدمة يجب أن نقدمها لله تعالى لكى يكون لنا حق التمتع بجمال من هو أبرع جمالاً من البشر ، ولهذا يقول داود « أما أنا فبالبر أنظر وجهك . أشبع إذا استيقظت بشبهك » (مز ١٧ : ١٥) .

هناك يتمتع المؤمنون بخيرات لا عد لها وأفراحهم لا تحصى . فليتهج إذا المؤمنون المدعون الى هذه الخيرات العظيمة و يتהלوا لأن الله تعالى قد خلق السماء لأجلهم ولتفرح قلوبهم ولتتقرب رجاء هذه الأفراح الأبدية .

أيها المؤمنون . يامن التحفتم بالضيق وتسربلتم بالتجارب ابتهجوا الآن « لأن الله ليس بظالم حتى ينسى تعبكم وعمل محبتكم » انكم ستنالون جزاء أمانتكم وجهادكم وأعمالكم الصالحة ، وها الكتاب يبشركم « قولوا للصديق خير . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم » .

أجل « إن عيشة الصديقين فى هذا العالم مملوءة من الأحزان والمشقات والأنين

والالتعاب . ولكن ايمانهم بأن سيدهم سيجازيهم على أتعابهم ويخفف أحزانهم .
فلولا رجاء السماء لكانوا أشقى جميع الناس (١ كو ١٥ : ١٩) إن عزاء رجال الله
المتضايقين فى هذا العالم هو أنهم سيحظون بالأفراح العظيمة فى أورشليم الجديدة
حيث عرسهم الرب يسوع المسيح .

قد نجد رجال الله فى هذا العالم فقراء ومزدري بهم بينما نجد الكثيرين من
الأشرار أغنياء وأصحاب جاه . ولكن غنى هذه الأرض لا يعتد به ولا قيمة له وإنما
الغنى الحقيقى هو فى المسيح الذى اشترانا بدمه . ومن كان المسيح نصيبه فهو حائز
على جميع الأبعاد والمقتنيات الفضلى والسعادة العظمى والهناء والسرور . فأغنياء
هذا العالم الأشرار يحل بهم الفقر المدقع فى العالم الآتى ، أما المؤمنون فانهم يعنون
اسماً عظيماً ومجداً (رؤ ٢ : ١٧) « هناك يكف المنافقون عن الشغب وهناك
يستريح المتعبون . الأسرى يطمئون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر »
(أى ٣ : ١٧ و ١٨) .

هذا ما جعل الرسول بولس يهتف قائلاً « لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو
ربح . لى اشتاء إن انطلق وأكون مع المسيح . ذاك أفضل جداً »
(فى ١ : ٢١ و ٢٣) وكما أن أحسن ما يبتغيه الابن هو أن يكون فى بيت أبيه
حاصلاً على كل احتياجاته فإن أفضل شئ وأكمل نصيب للمؤمنين هو أن يكونوا
فى بيت الأب الحنون نائلين الاجتماع الذى لا يعقبه فراق فى بيته السماوى ، فى
ذلك المكان الذى ذهب اليه وأعدده لهم المسيح ليأخذهم اليه فيتمتعون بلقاء
الحبيب ويحظون بفرح ذاك العرس المجيد . إذ تجتمع العروس بعريسها المحبوب يسوع
مخلصنا وتشترك فى القداسة الالهية فى السماء ، لابسـة ثياب المجد والبهاء ، حاصلة
على الجمال العجيب لأنها اكتسبت الجمال والكمال من حبيبها يسوع . ذاك الذى
حلقه حلالة وكله مشتهيات وهو مشتهى كل الأمم . وهذا ما كان يتمناه داود
و يتوق للحصول عليه بقوله « واحدة سألت من الرب وأياها ألتمس . أن أسكن فى
بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر الى جمال الرب وأتفرس فى هيكله »
(مز ٢٧ : ٤) .

فما أعظم السرور الذى يشمل المؤمنين إذ ذاك عندما يرون أن أتعابهم قد انقضت وانهم انتصروا على أعدائهم وفازوا بالخلاص الأبدى . إن كان موسى الكليم وبنو اسرائيل هتفوا مسبحين ورنمت مريم النبية مع نسايتهم بنغمات شجية وألحان مطربة على دفوفهن راقصات فى احتفال عظيم عندما نجوا من فرعون وجيشه وعبروا البحر على الأقدام كأنه أرض يابسة ووصلوا الى شاطئه بسلام . نعم إن كانوا فى لحظة نسوا كل عبودية مصر المرة ومشقاتها الصعبة التي تكبدوها مدة سنين عديدة وفرحوا فرحاً هذا مقداره مع أنهم لم يكونوا قد تمتعوا بعد بأرض الموعد بل أتوا الى بركة مقفرة (خر ١٥ : ١ - ٢١) أفأ نبتج نحن بالأولى ونفرح عندما نعبى بحار مصائب العالم ونتخلص من كل تجاربه المرة وننتهى من ديار نجيبه ومن محاربات الأعداء المقاومين لنا فيه . كيف لا نبتج عندما نصل الى فردوس النعيم حيث ننسى كل ما قاسيناه فى هذا العالم من أتعاب شديدة وأحزان عديدة ونكون ساجدين فى بحار أفراح لا يعرف قرارها كأننا محمولون على أفلاك السماء على أجنحة حمامة مغطاة بفضة ور يشها بصفرة الذهب فنرغم ترانيم النصرمة وترنيمه موسى والخروف قائلين « عظيمة وعجيبة هى أعمالك أيها الرب الاله القادر على كل شئ . عادلة وحق هى طرقك ياملك القديسين . من لا يخافك يارب ويعبد اسمك لأنك وحدك قدوس لأن جميع الأمم سيأتون ويسجدون أمامك لأن أحكامك قد أظهرت (رؤ ١٥ : ٣ و ٤) ثم نشترك مع الذين قالوا « مستحق هو الخروف المذبح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة ، وكل خليفة بما فى السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان الى أبد الآبدين » (رؤ ١٢ : ٥ و ١٣) ولا سيما حيناً « نكون كل حين مع الرب » (١ تس ٤ : ١٧) .

إن موسى لما عاين لمحة صغيرة من وراء مجد الرب تلاًأ وجهه بالنور حتى لم يستطع بنو اسرائيل أن يروا وجهه فكان يغطيه ببرقع (خر ٣٣ : ١٨ - ٢٣) وكذلك بطرس ويعقوب ويوحنا عندما تجلى المسيح لهم ذهلوا بمجد ذلك النور العجيب وفضلوا البقاء فى الجبل (مر ٩ : ٢ - ٥) فإ بالنا نحن الذين سنكون على هيئة من النور تضاهى هيئة المسيح نفسه وسنراه كما هو « لأنه سيفير شكل جسد تواضعنا

ليكون على صورة جسد مجده « (فى ٣ : ٢١) وقال الرسول « متى ظهر المسيح حياتنا فحينئذ نظهرون أنتم أيضاً معه فى المجد » (كو ٣ : ٤) « إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢) « ونحن جميعاً نأظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما فى مرآة نتغير الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو ٣ : ١٨).

فتصور أيها المؤمن أسمى الأفراح وأبهج المسرات واعتقد أنك ستعطى أكثر منها . قيل إن الاسكندر الكبير لما اتبس منه فور يلس أحد ندمائه مساعدة لتجهيز إحدى كرمياته أمر له بخمسين وزنة . فاستطعم النديم الهدية وعرض على الملك أن يكتفى بعشرة وزنات فقط فأجابه الملك « إن كانت عشر وزنات تكفيك أنت احساناً فلا تكفينى أنا عطاء » وهكذا فإن عطاء الحياة الأبدية للنفس المختارة هو أعظم من استحقاقها لأنه سيكون بنسبة جود الله وسخائه .

يعلنا الكتاب أن مظاهر مجدنا فى السماء تقوم على أربعة أمور :

(١) ثياب البهاء والمجد البيضاء التى يلبسها أبناء الله المفلدين فى السماء . وهذا يظهر من رؤى يوحنا الحبيب حيث رأى الأربعة وعشرين شيخاً الذين يكنى بهم عن كل المفلدين فقد رآهم متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم الأكاليل من الذهب (رؤى ١ : ٤) وكذلك رأى جميع المفلدين من الشعوب والقبائل واقفين أمام العرش وامام الخروف متسربلين بثياب بيض وفى أيديهم سعف النخل . فقال واحد من الشيوخ ليوحنا هؤلاء اللابسين الثياب البيض من هم ومن أين أتوا ؟ فقال له ياسيد أنت تعلم فأجابه هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيضوها بدم الخروف (رؤى ٧ : ٩ — ١٤) فينتج من ذلك أن الشئ الأول فى مجد القديسين هو أن يلبسوا ثياب المجد والبهاء البيضاء التى تشير الى القداسة والطهارة التى حصلوا عليها بالمسيح يسوع قدوس اسرائيل .

فلا يوجد فى السماء قتام ولا ظلام بل كل شئ أبيض منير . فاعبد وما أبهى تلك الحال وذلك المنظر البهيج فالظلام كله ظلام الحزن والجهل والخطية يترك فى الأرض . ومن أين تكون الظلمة فى المجد السماوى ونور شمس المنيرة التى

لا تغيب ؟ ومن أين المقتاتم والخطية لا توجد هناك ؟ فطوبى لمن نال الثياب البيضاء .

(٢) أكايليل المجد قال بولس الرسول « قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعى حفظت الايمان وأخيراً وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل وليس لى فقط بل لجميع الذى يحبون ظهوره أيضاً » (٢ تى ٤ : ٧ و٨) وقال يعقوب الرسول « طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة . لأنه إذا تركى ينال إكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه » (يع ٢ : ١٢) وقال بطرس الرسول « ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى » (١ بط ٤ : ٥) .

لما كان بولس وبرنابا فى لستره وشفيا المقعد قدم لهما الجمهور أكايليلاً وثيراناً كأنهما من الالهة ولكنها لم يقبلوا ذلك بل مزقوا ثيابها ولم يسمحا لأولئك الجهلاء أن يقدموا المجد لهما لأنها يعلمان أن مجد الأرض باطل وأكايليلها زائلة (اع ١٤) أما إكليل الحياة فمجيد وثمان لا يفنى ولا يضمحل . قال الرسول بولس عن المجاهدين من اليونان الذين يركضون فى ميدان الألعاب انهم يأخذون إكليلأ يفنى وأما نحن فإكليلأ لا يفنى (١ كو ٩ : ٢٥) غير أنه يلزم أن نركض لكى نناله . فما أسعد المؤمنين الذين يلبسون تلك الأكايليل المقدسة من ملك الملوك ، التى يعطيها لعبيده جزاء لغبتهم وانتصارهم .

(٣) عروش المجد . قال الرائي « ورأيت عروشاً فجلسوا عليها وأعطوا حكماً ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة » (رؤ ٢٠ : ٤) إن الأكايليل والعروش إشارة الى الملك السماوى مع ملك الملوك ورب الأرباب يسوع المسيح . فالمؤمنون الحقيقيون بيسوع يلبسهم الثياب البيضاء الزاهية ويكللهم بأكايليل المجد الأبدى ويجلسهم على عروش الساء . فما أعظم مقام المسيحى الحقيقى وما أشرف نسبته . إن الذين ينالون الخطوة بالمثل لدى ملوك الأرض يعظم فرحهم وانشرحهم . فما بالناس نحن

الذين نشترك مع ملك السماء والأرض فى أمجاده وفى دينونة الأشرار؟

(٤) النور السماوى اللامع . وأى مجد نبلغ اليه حينما نجلس حول العريس المجيد ونكون كبدور تتألق فى قبة أفلاك المجد والبهاء بل حينما نجلس فوق الشمس والكواكب البهية على المتكآت السماوية ونتلأل كأنوار باهرة وكواكب زاهرة وشموس ساطعة وأنوار لامعة حول شمس البر الحقيقى بهاء عظيم هذا مقداره .

إن شمس عالمنا هذه تفتخر على بقية الأنواع لشدة سطوع نورها وقوة ضيائها . فانها إذا ما أشرقت توارت جميع الكواكب خجلاً منها وتوارى معها القمر . هكذا نحن حينما نكون فى أوج السماء مضيئين كالشمس (مت ١٣ : ٤٣) يعترى جميع الأنوار الكسوف وتتوارى جميعها بما فيها الشمس خجلاً ، ولا تستطيع أن تظهر أمام العروس التى تدخل دار السماء بمجد عظيم وبهاء لامع حتى يتعجب الجميع قائلين « من هى المشرقة مثل الصباح . جميلة كالقمر طاهرة كالشمس . مرهبة كجيش بالوية » (نش ٦ : ١٥) .

وبالاجمال ما من حالة من حالات الجلال والمجد والعظمة نشاهدها فى هذا العالم إلا وسنكون على أعظم منها . فلا تفتخر أيها الغنى بفناك ولا تغتر أيها الملك بعظمتك . ولا تتباه أيها المتزين بأنواع الزينة . فجد السماء وخيراتها يفوقان كل مجد رأيناه وكل عظمة سمعنا عنها .

ويا له من فرح دائم الى الأبد لأن موضوعه دائم الى أبد الأبد . وإذا كان الانسان فى هذه الحياة يفرح بالمال أو بالصحة أو بالبنين فإن فرحه سيزول بمجرد زوال أسبابه . وعلى ذلك ففرح الانسان الذى أخصبت كورته قد زال فى تلك الليلة التى أفتخر فيها وترع فيها عنه غناه . وفرح آدم وحواء بقاين وهابيل قد انتهى بهقتل هابيل ، وفرح شمشون بقوة زال بزوال قوته وحل بعده الحزن والتعب ، وسرور يعقوب بيوسف انقلب الى أكدار وتهدات . وكل فرح فى العالم لا يدوم . أما أفراح السماء فهى دائمة الى الأبد ولا تزول مطلقاً ولا يمكن أن يتخللها أحزان ولا أوجاع لأنه لا سبيل لها فى ذلك المكان الذى أعد لراحة المؤمنين .

فالإنسان مهما كان مجيداً وشريفاً على الأرض فما هو إلا كعشب يبس وحياته
كالبخار تظهر قليلاً ثم تضمحل (يع ٤ : ٤) أما المجد السماوى فهو أبدي لا ينتهى
ولا يزول وما أعظم الفرق بينهما « فالعالم يمضى وشهوته وأما الذى يصنع مشيئة الله
فيثبت الى الأبد » (١ يوحنا ٢ : ١٧).

كل أجداد العظماء زالت بزواهم ولكن مجد أبناء الله المؤمنين ليس كذلك فانه
يبتدى بزوال حياتهم الأرضية ولا ينتهى الى الأبد لقد حصل موسى على شئ عظيم
من مجد العالم إذ كان معتبراً كابن لابنة فرعون مصر ولكن لما نظر الى المجد
السماوى وقابله بالأرضيات فضل أن يذل مع شعب الله « لأنه كان ينظر الى
المجازاة » وهكذا تمجد يوسف فى مصر، ومردخاى فى شوشن القصر، ودانيال فى
بابل، ولكنهم لم يبالوا بهذا المجد لأنهم كانوا ينتظرون مجداً أعظم وأفضل .

فلا مجد فى العالم يقاس بتلك الأجداد السماوية ولا سعادة تقابل بالسعادة
الأبدية . إن سليمان الملك حالما تبوأ كرسي الملك الاسرائيلى ضربت الأبواق
هاتفه . وقدم له الشعب التحيات اللائقة ضاربين بأصوات الناي المطربة حتى
انشقت الأرض من أصواتهم المرفمة . ولكن هل يعد ذلك شيئاً إذا ما قورن بالفرح
والابتهاج اللذين سيكون عليهما الأبرار عندما يستوون على كراسى المجد و يكللون
رؤوسهم بتيجان المملكة السماوية و يتسربلون بالثياب البيضاء ويحتفى بهم ملك
الملوك وجيوش الملائكة فرحين مرغين مهللين .

وبالجملة فإن المجد السماوى يفوق كل مجد سواه . ولو جمعت كل مفاخر الملوك
من بدء الخليقة الى نهايتها ووضعت على هامة ملك واحد فانها لا تعادل ولا تشابه
ذلك الملك العتيد لأنها جميعها لا تخرج عن كونها ملكاً أرضياً بشرياً زائلاً ، أما ذلك
المملك فهو ملك سماوى الهى أبدي . وكما أنه لا توجد معادلة بين الذهب والتراب
وبين الشرى والثرى فهذا المقدار وأكثر يعلو مجد السماء لما احتواه من الأبهة والجلال
عن المجد الأرضى الذاهب للزوال .

قال أحد الأفاضل « كل فرح عالمى بالنسبة الى الفرح الالهى إنما هو صعب

الاحتمال ، وكل لذة ألم ، وكل حلاوة مرارة ، وبالجملة كلما يطرب الناس ويبهجهم فى هذه الحياة إنما هو بالمقابلة مع ما وصفناه شدة وثقل لا يحتملان . تلك هى الخيرات الألهية الجوهرية التى ينبغى أن نرتاح اليها ونجح الي محبتها وهذه هى الغاية التى لأجلها وجدنا . فأجعل نصب عينيك أيها الحبيب أرض الأحياء واسع اليها كعبد أمين وأعرض عن أمور هذه الحياة الفانية وتنح عن الخطية لتكون أهلاً للتمتع بذلك المجد العالمى الذى لا يزول .»

إننا سنملك فخر مجد لا يوصف حيث نكون جالسين كملوك وعظماء حول عرش الملك العظيم . على كراسى ملكية ومتسربلين بأبهى اللؤلؤ الرابانية متوجين بالأكاليل النورانية . متنعمين بأطياب المائدة الروحية وكؤوس أفراح السماء . ومترفعين بنغمات رخيصة شجية . بينما أصوات الجماهير السماوية تهتف قائلة مباركون ومقدسون ومغبوطون ومستحقون يامن نلت هذا الملك العظيم والمجد الرفيع قدموا بالسيادة مغبوطين بهناء خالد . متنعمين بالسعادة الأبدية . حيث تملكون الى أبد الأبدين ودهر الدهرين (رؤ ٢٢ : ٥) .

ابتهج أيها المؤمن الواصل بخلص نفسك . ابتهج بذلك المجد المعد لك وكيف لا تبتهج وهناك لا تجد شيئاً تكرهه مطلقاً بل لك كل ما تحب وتشتهى . كيف لا وكل ما فى الحياة من ظلمة وآلام سيدفن فى القبر وستغبط وتطوب نفسك حينما تخرج من سجنك الى عرشك .

تأمل طويلاً فى ذلك المجد . تصوره أمامك كل حين . ضعه نصب عينيك فى كل وقت ، وحينئذ تحتقر مجد العالم وتجدد كلاً شئ . أكد لنفسك دائماً أن حواسك ستحصل فى السماء على اللذة الحقيقية التى لا تنتهى ، فلن تمل العين من النظر ولا الأذن من السمع ولا اللسان من التغنى والترنم . أطلب من الهك أن تمتلك هذه الخواطر فؤادك وأن يسكن الشوق الى السماء قلبك وناد هكذا « تعالى الى أيها السعادة الأبدية لأستريح فيك لأنى سعييت الى سعادة العالم فلم أجدها أما أنت فوجوده حقاً . متى يرتفع الحجاب لأطير اليك . متى تأتى الساعة التى أرى فيها حبيبى يسوع وأسجد عند قدميه فيقيمنى بيده المباركة ويملكنى تلك السعادة

امتلاكاً أبدياً».

هنيئاً لكم سكان السماء مجدكم ، هنيئاً لكم سعادتكم وعزكم . نحن على
أنهار بابل نبكى صهيون وأما أنتم فقد جزتم بحر سوف ووقفتم على شاطئه ترغنون
ترنيمات النصره : نعم إن هبة الله ودعوته بلا ندامة فلا بد أن تغلب بقوته ونصل
السماء فنرى بالعيان ما صدقناه بالايان .

الفصل الثلاثون

تأملات روحية

« قف وتأمل بعجائب الله » (أى ٣٧ : ١٤)

تأملى إذا يانفسى تأملاً عميقاً فى كل الحقائق التى مر ذكرها ، وتأملى أيضاً
فى :-

(١) الموت : نعم إن التأمل فيه مخيف ولكن تشجعى يانفسى وتجربى هذه الكأس المرة بثبات . تصورى فى غيبتك انك وصلت الى أبواب الموت وأوشكت روحك أن تفارق جسدك . فكم يكون هذا الانفصال صعباً عليك . كم يؤلمك فراق هذا الجسد الذى كنت مستعدة له فى هذه الحياة . كم مرة خالفت الهك ومصدر حياتك لكى تلذذى هذا الجسد ، والآن حين دنا وقت فراقك له التمسى منه أن يكافئك على خدمتك اياه ! يا لشقاوتك . تأمليه بعد فراقك اياه لتجديه قد صار جيفة كرهة . أين اللذات التى تلذذ بها والتنعم الذى تنعمه ؟.

قومى إذا يانفسى من سباتك وأميتى هذا الجسد وادفنى كل حركاته حتى يمكنك أن تحيى فى البر وقداسة الحق . وهوذا روح الحق ينادى قائلاً « لانه إن عثمت حسب الجسد فستموتون . ولكن إن كنتم بالروح تميئون أعمال الجسد فستحيون » (رو ٨ : ١٣).

تأملى يانفسى أيضاً فى :

(٢) يوم الدينونة : نعم ستلبس الأرواح هناك أجسادها لتدان على أعمالها هنا خيراً كانت أم شراً ففكرى الآن يانفسى وميزى أفعالك . تأملى جيداً فى

تصرفاتك ، هل إذا ذكرت أمام الديان يكون لك فرح أم حزن . هل إذا ذكرت ينظر اليك الهك برضى أم بغضب . قيل إن ملكاً أرضياً نظر شذراً الى اثنين من أكابر مملكته واطهر الغضب فى وجهه نحوهما لأجل ذنب خفيف ارتكباه . فن شدة الرعب والخوف الذى استحوذ عليها سقط احدهما فى الحال ميتاً وألم بالثانى مرض قتال ولحق رفيقه بعد أيام قليلة : فإن كانت نظرة غضب من ملك ارضى فعلت هكذا فكم تكون نظرة ملك الملوك . قولى لى أيتها الشقية التى تميلين الى الكبرياء والتنعيم هل تستطيعين الهروب من أمام وجه الديان ؟ إن ذلك مستحيل . وهل تحتملين الوقوف أمام وجهه الغضوب . هل يمكنك أن تسمعى صوت توبيخه حينما يقول لك لقد طرقت كثيراً أبواب قلبك لكى تدخلينى اليه . ولكنك صميت اذنك وقسيت قلبك ولم ترى أن تدخلينى اليه . وأبلغ من ذلك انك طردتني وأدخلت الشيطان مكانى . لا أظنك تقوين على استماع صوت هذا التوبيخ . إذا قومي من غفلتك وتيقظي من سباتك واطلبي نعمة الرب لتغلبى بها أعداء خلاصك . وهذا تقفين يوم الدينونة غير خائفة ولا وجلة بل واثقة ومطمئنة لأنك سبقت وانتهزت الفرصة وقدمت التوبة ونلت الخلاص قبل موتك .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٣) عذاب جهنم . نعم فى عذاب جهنم تأملى . هنا اللذة وهناك العذاب . هنا السرور وهناك الغم : هنا التنعيم وهناك الشقاء ، فقد تعودت هنا النوم على الفراش الحريرة ولكن هناك ستنامين على أشواك من اللهب المستعر . مسكينة أنت يا محبة اللذات ، عوض الشعور باللذة يكون الشعور بالوجع الذى لا يطاق . إذا انفضى عنك غبار اللذات وإذا حاول الشيطان إن يصور لك لذة أمام عينيك أو يملأها بخاطرك فتصورى أنت عذاب جهنم وآلامها وقولى لأبليس اللعين « اذهب عنى فاللذة التى تغرينى بها وقتية ولكن جزاؤها العذاب الأبدي » .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٤) السعادة الأبدية . ياله من نهار دائم لا ليل له . أى شئ ذلك الذى قال عنه

الرسول « ما لم تره عين » هل يمكن أن تدركى أى شئ هو يانفسى « هو الله نفسه » هو وحده الذى سيكون نصيبك وحظك ، فهل بعد تمتعك به تقولين انى احتاج الى شئ ما . إن قلبك لا يعرف الشبع هنا . ذلك لأنه لا يشبع قلبك إلا الله وحده . لذلك يقول الكتاب عن فرح السماء انه أبدى لأن الله ينبوع الفرح الأبدى . من يستطيع أن يكشف لك يانفسى عن قليل من مجد السماء وسرورها . كفاك أن تعرفى أن هناك يستقر القلب فى مركزه الحقيقى الأبدى وحينئذ يصرخ قائلاً « نعم . نعم . هذه هى السعادة التى كنت اشتتها » .

فهل لا يستحق مجد السماء وسعادتها يانفسى بعد ذلك ان تحترق العالم لأجله ؟ هل يمكن للعالم مهما تلاً أن يعتبر بقيمة لحظة قصيرة فى ملكوت السموات . قولى للعالم إذا اذهب عنى أيها العالم . لتغب عنى كل أمجادك فانى لا أحزن على فراقها . انى أتوقع عند سيدى يسوع مجداً حقيقياً أبدياً . انى أريد أن أخسر كل شئ لأربح المسيح » .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٥) قدرة يسوع على خلاصك . لعلك حينما تتطلعين الى مجد السماء تقتنطين من الحصول عليه لما تشعرين به من الضعف فيك فطبيعتنا حقاً فاسدة ولهذا ليس مما يبهج جسدنا أن نعيش لله . ليس من يدعى أنه بطبيعته وقوته يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى سبيل التقوى فطريق السماء وعرة على الانسان البشرى . ولكن الله أمرنا أن نجاهد ونعهد أن يساعدنا فى جهادنا فنحن إذا سعينا بقوتنا لا نصيب إلا الفشل والسقوط ، ولكن إذا سعينا متكئين على مساعدة نعمة الله كتب لنا الفوز والنصرة ..

ينها : نفس المشتاقة الى مجد السماء ارفعى نظرك الى فوق حيث المسيح جالس : تطلعى اليه لتجدى صورة الصليب مرسومة فى عرشه . اسمعى صوت الروح الالهى ينادى قائلاً بأن الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلكم أجمعين كيف لا يهبكم أيضاً مع كل شئ (روم ٨ : ٣٢) .

« فإن كان أمراً محققاً أننا لا نستطيع أن نخلص أنفسنا فالأمر الأكثر تحقيقاً أن يسوع يقدر أن ينيلنا هذا الخلاص فعلياً أن نسعى ناظرين اليه كرئيس ايماننا وقائد جيشنا . فحينئذ يحول ضعفنا الى قوة ، وفقرنا الى غنى . وحينئذ نصرخ مع الرسول بولس قائلين : نستطيع كل شئ فى المسيح الذى يقوينا (فى ٤ : ١٣)

الخاتمة

طريق السماء

« هذا الباب للرب . الصديقون يدخلون فيه » (مز ١١٨ : ٢٠)

ذكرنا وصفاً موجزاً للأعجاد السماوية بل أن ما قد ذكرناه عنها ليس إلا كنقطة من بحر عجاج لأنه ليس لنا ولا لغيرنا القدرة أو الاستطاعة على ايفاء وصف تلك الأعجاد حقاً ولا يمكن أن يتاح ذلك لنا أو لأحد من البشر حتى نحظى بها ونشاهدها بعيوننا ونستمتع بها . عند ذلك نراه فوق ما كنا نظن أو نقدر .

والواجب علينا إذاً بصفة كوننا مسافرين الى تلك الديار الأبدية أن نسير في الطريق الذى يؤدى الى الأعجاد المذكورة . يوجد فى العالم طريقان كما قال الرب « هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت » (ارا ٢١ : ٨) فطريق الحياة يؤدى الى الحياة والخلود كما قال « المقوم طريقه أريه خلاص الله » (مز ٥٠ : ٢٣) وطريق الموت يؤدى الى الجحيم حيث اللهب والدود وهو الذى قال عنه الحكيم « يابنى لا تسلك فى الطريق معهم امنع رجلك عن فسالكهم » (ام ١ : ١٥) وقد ترك الله للإنسان الحرية فى أن يختار لنفسه أى الطريقين لكى يكون بلا عذر (روم ١ : ٢) .

أما طريق المجد السماوى فهو السيد المسيح لأنه الطريق والحق والحياة (يو ١٤ : ٦) فعلى الذى يرغب الوصول الى المجد أن يترك السير وراء العالم ويتبع المسيح مقتنياً آثاره . وسالكاً سبله . ولا يهتم بمجد العالم ولا يعبا بزخارفه الفانية .

لنتقدم الى يسوع الذى مات لأجلنا ليحيينا ، وليقل كل منا « اختبرنى يا الله واعرف قلبى . امتحنى واعرف أفكارى . وانظر إن كان فى طريق باطل واهدنى طريقاً أبدياً » (مز ١٣٩ : ٢٣ و ٢٤).

إن كنت ترغب الصعود الى المجد السماوى فهذا هو الطريق اتبعه حتى تأتى الى عليية صهيون ، ومن هناك ترتفع الى أعلى السموات فلا طريق للسما غير هذا الطريق . لا يضللك عدو الخير ولا تنخدع وتسير وراءه . قد يظهر لك طريقه بمظهر حسن ويجذبك للسير فيها وراءه ، ولكن تأكد أنها توصلك الى هاوية العذاب . فى بدايتها سرور وانسراح ولكن خاتمتها أحزان وأتراح كما قال الحكيم « توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت » (ام ١٤ : ١٢) . تبصر . لا تتقدم فيها خطوة واحدة احذر لأن الخطر أمامك . وها الحكيم ينصحك قائلاً « لا تدخل فى سبيل الأشرار ولا تسرف فى طريق الأثمة . تنكب عنه . لا تمر به . حد عند واعبر » (ام ٤ : ١٤ و ١٥).

كان الرومان قديماً إذا ما أرادوا أن ينهوا عن خطر عظيم يضر بون الجرس خمس مرات . فإذا تأخر أحد قدمه يكون على رأسه . وهكذا يضرب الله لك الجرس الالهى ليحذرك من خطر الخطية قائلاً لك « لا تسرف فى طريق الأثمة » . اسمعه يناديك بما نادى به الملاك لوط و يقول لك « اهرب لحياتك » (تك ١٩ : ١٧) فحاذر أن يميل قلبك الى الوراء . احترس ولا تنظر الى سادوم لئلا تصير عامود ملح كامرأة لوط » (لو ١٧ : ٣٢) احترس ان تنظر الى الوراء لئلا تهلك « لتتظر عينك الى قدمك وأجفانك الى أمامك مستقيماً . مهد سبيل رجلك فتثبت كل طرفك لا تمل يمنة ولا يسرة . باعد رجلك عن الشر » (ام ٤ : ٢٥ - ٢٧) عليك أن تترك كل شئ وتتبع مخلصك يسوع . أنكر ذاتك واحمل صليبك واسع نحو المجد فى هذا الطريق فتفوز بالحياة الأبدية . وقل مع النبى « تمسكت بخطواتى بآثارك فازلت قدماى » (مز ١٧ : ٥).

قال الرسول « افعل شيئاً واحداً إذ أنا أنسى ما هو وراء وامتد الى ما هو قدام » (فى ٣ : ١٣) فالسعى الى نوال الأنجاد السماوية إنما هو جهاد متواصل وسير الى

الأمم متتابع في طريق البر وسبل التقوى بدون التفات الى الراء . وما أشبه
بحرى العربات خلف القطار على قضيب السكة الحديدية التي إن مالت قليلاً الى
أحد الجانبين انقلبت وانكسرت ولا يمكنها أن تواصل سيرها لأننا إذا كنا أثناء
سعينا وراء المسيح نميل بقلوبنا الى شئ من خيرات هذا العالم فاننا نتعطل عن السير
ونتأخر عن الذين يتسابقون معنا . وما أخبرني اسرائيل في البرية إلا ميلهم لأرض
مصر واشتياقهم اليها ورغبتهم في أكل « الكرات والبصل والثوم » قال الرب
« عيناي على أمتاء الأرض ... السالك طريقاً كاملاً هو يخدمني »
(مز ١٠١ : ٦).

علينا أثناء سعينا هذا إن لا نحيد يمينه ولا يسرة . لا ننظر للأموال ولا نشغل
بالمناصب ولا نتعلق بالأعاجيد الدنيوية ولا نندفع وراء الشهوات العالمية . لا يستهوى
فؤادك مجد العالم الغرار حتى يجعلك تتفكر بالاثم على مضجعك وتقف في طريق غير
صالح ولا ترفض الشر (مز ٣٦ : ٤).

حاذروا حتى تكونوا على الدوام متطلعين نحو المجد الأبدى والجمالة السموية .
جاء في أساطير الأقدمين انه كان يوجد جبل مرصود وضع على قمته كزئمين ،
وجعل هذا الكز جزء لمن يتسلق الجبل ويصل الى قمته بدون أن ينظر الى الراء .
والوصيمة والوعيد لكل شاب يتسلق هذا الجبل هما « لا تنظر الى ما وراءك لئلا
تصير حجراً » وقد حاول كثير من الشبان أن يصلوا الى ذلك الكز فلم يقدروا وصار
كل منهم حجراً . لأن الطريق الى رأس الجبل كانت تتفرع منها طرق أخرى الى
رياض جميلة تكسو جوانب ذلك الجبل وكانت في تلك الرياض طيور تغرد كما
كانت تسمع منها أصوات موسيقية تأخذ بمجامع النفس فتغري المارين لكي يقفوا
ويستريحوا قليلاً فينسوا الوصية و يصيرون أحجاراً حتى اكتظت في وقت قصير
جوانب الجبل بالشبان الذين تحولوا الى حجارة لأنهم لم يحفظوا الوصية .

هذه القصة وإن كانت خرافية إلا أنها تمثل لنا الجهاد والسعى نحو الجمالة
السموية . فانه يوصينا قائلأ : لا تنظروا الى ما ورائكم . اهربوا لحياتكم .
لا تلتفتوا يميناً أو شمالاً . لا تنظروا الى ملذات العالم الجسدية والأغاني العالمية

والشهوات الشبابة التي تحارب النفس . على المجاهد أن يثبت نظره على الإكليل ولا يتحول عنه و يصبر الى النهاية ، ولكن ابليس يأتي في وسط طريق الجهاد ويفرس حديقة الخطيئة ويجعل فيها كل ما هو من شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة ، و بطرق عديدة متنوعة اختبرها فوجدها محبوبة للبشر ، يغريهم ويخدعهم حتى يلتفتوا اليه فيقتصهم لارادته ، فهو كالرجل الظالم يغوى صاحبه و يسوقه الى طريق غير صالح (ام ١٦ : ٢٩) .

وجاء أيضا في تاريخ اليونان « انه كانت هناك في قديم الزمان ابنة مشهورة بسرعة العدو (الجرى) وكانت تحرز في ذلك دائما فصب السبق وأصرت على أن لا تقتصرن إلا بمن يسبقها في العدو فجاء شاب محتال وأعلن أنه يستطيع أن يسبقها وتحدد ميعاد للمباراة بينهما . فذهب الى الميدان قبل الميعاد المحدد ومعه ثلاثة تفاحات ذهبية جميلة المنظر وبطريقة خفية ألقي باحداها في الطريق المقررة للسباق . ولما حان موعد السباق وبدأ الجرى معاً أخذت تسبقه حتى وصلت الى حيث التفاحة فاستلقت نظرها شكل تلك التفاحة فانحنت وأخذتها من الأرض وفي هذه الأثناء كان مناظرها قد سبقها فأجهدت نفسها في العدو وما كادت تلحق به حتى ألقي اليها التفاحة الثانية قالت اليها وأخذتها فسبقها الشاب بمسافة كبيرة فجاهدت لتلحق به وما كادت تسبقه حتى ألقي اليها التفاحة الثالثة فوقفت عن الجرى ومدت يدها وتناولتها فسبقها الشاب . وهذه الحيلة تمكن من الوصول قبلها الى نهاية المسافة ففاز عليها ونال إكليل السبق .

هكذا يوجد من هو أكثر حيلة من ذلك الشاب ، وهو ابليس عدونا الذي يسعى ليلهيها ويؤخرنا عن سعيها وراء المسيح فيطرح أمامنا تفاحاً من محبة العالم وغروره وشهواته وأمواله ومقتنياته . وهذه الوسطة يعطل الكثيرين عن الجهاد كما عطل عازان وجيحزى وديماس وسيمون وغيرهم من الذين خسروا أكابيلهم وجعلالاتهم .

أما الذين لم يتبعوا المسيح الآن ولم يذوقوا لذة السير في طريقه الموصل الى السماء فيجب عليهم أن يسرعوا بالحنى اليه حالاً تانيين ملتسمين منه الخلاص لكي يجتموا به قبل أن يتخذ صورة غضبه .

لنستقدم اليه وهو حبل وديع قبل أن يتحول الى أسد مفترس . يجب أن نسرع الى التوبة ونسعى في الحصول عليها حالاً إذ لا عذر لنا بعد أن عرفنا وتأكدنا شدة وصعوبة عذاب غير التائبين . لنشفق على أنفسنا بقدر ما أشفق ابن الله علينا وقدم نفسه للموت من أجل خلاصنا ، انه يدعونا اليه ويسر هو وملائكته بتوبتنا (لو ١٥: ١-٧) لنشفق على نفوسنا ولنسرع بالرجوع اليه تائبين توبة نقية خالصة . لنرحم ذاتنا ونهرب من الغضب الآتي ولا نتهاون بنفوسنا كما يفعل أولئك الذين بينا هم ملوثون بالخطايا ويريدون البقاء فيها وفي دنسها يخدعون نفوسهم قائلين « إن الله رحوم » نعم انه رحوم ولكن رحمته في التوبة (اش ٥٥: ٧) أو يقولون « إن دم المسيح يطهر من كل خطية » نعم انه يطهر ولكن مع التوبة (ام ٢٨: ١٣ ، ١ يو ١: ٧-١٠) .

قال أحد الأفاضل يوجد نبع مفتوح للتطهير من الخطية (زك ١٣: ١) لكن بشرط الاقبال الى الله بتوبة نقية . أما إذا لم تقبلوا هذا الشرط وعشتم في شروركم وشهواتكم فباطلاً تنتظرون تطهيراً لأن دم يسوع لا يمتزج مع الدنس « أية خلطة البر مع الأثم » لاحظوا أن دم يسوع الكريم لا يتدنس مع الخطايا مطلقاً . قد تجد واحداً يدنس نفسه . بالكبرياء وبالبعضة وآخر بالحقد ، وآخر بالطمع ، وآخر بالغش ، وآخر بالبخل . وأخرى تدنس نفسها بالعجب بملابسها أو حليها أو تفتخر بعظيم نسبها ، وأخرى بالخصام ، وأخرى بالقيمة والمذمة وأخرى بالكذب . فهل بعد ذلك تقولون « أن دم المسيح يطهرنا من كل خطية » لننزع عن نفوسنا أولاً الخطايا والشروور ونبتعد عن الأثم والدنس ونستقدم الى المسيح تائبين نادمين فحينئذ يطهرنا بدمه الذكي الكريم .

أما إذا لم نتقدم بالتوبة فلا طهارة لنا بل يكثر غضب الله علينا فليت الخاطي يتوب أسفاً والأثم يرجع نادماً لكي ينال غفران الخطايا قبل فوات فرصة النجاة وحتى لا يقع تحت الدينونة حيث لا ينفع وقتئذ ندم .

لقد ندم الكثيرون ولكن بعد فوات الفرصة كفايين وعيسو وعاخان وشاول وأمون وأبشالوم وهيرودس فلم ينفعهم الندم . فانهضوا اذن من غفلتكم واستفيقوا

من سكركم واهجروا الخطية لكي لا تبتلعكم وأميتوا حركاتها لكي لا تلقيكم
أحياء في عذاب قصاصها . تجنبوا حب المال لنلا تشتعل فيكم نيرانه الآكلة ،
اهربوا من الطمع لنلا يفترسكم بأنيايه . امتنعوا عن الشهوات لنلا تلدغكم
بسمومها . اطرحوا عنكم حل الشرور لنلا تهبط بكم الى قرار البحيرة المتقدة بنار
وكبريت .

لما قضى على قايين بالثعنة استجار بالرب وقال إن « ذنبي أعظم من أن
يختصم » (تك ٤ : ١٣) فإذا كان قايين لم يَحْتَمِل ذنباً واحداً فما بال الواقعين في
جهنم تحت نير ذنوب لا تعد وخطايا لا تحصى .

أناشدكم يا قوم بحق من فداكم وهو واقف أمامكم ماذا اليكم يديه يدعوكم أن
تقبلوا اليه بالتوبة لتنالوا غفران الخطايا قائلاً لكم « التفتوا لنداء قلبي المحب الذي
ذاب على الصليب كذوبان الشمع لأجلكم : انظروا الى حالتكم وقدروا قيمة
نفوسكم الثمينة . اسرعوا بالتوبة قبلما ينتهي الأجل و يأتى يوم الدينونة . تعالوا اليه
قبلما يغلق الباب فتتضرعون لكي يفتح لكم فلا تجابوا . تقدموا واطربخوا ذواتكم بين
يديه اللتين تمزقتا بدق المسامير . تضرعوا أمام القلب الذي احترق والجذب الذي
طعن . والأحشاء التي تمزقت ، والروح التي ذابت بسيف العدل الالهى
المتقلب ..

لنطلب الرحمة الالهية بتوبة صادقة نقية لكي يطهرنا المسيح بدمه الكريم و يقبلنا
في ملكوته العظيم .

له المجد مع أبيه الصالح وروحه القدوس من الآن والى الأبد أمين .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع	
٥	كلمه عن المؤلف	
١٢	دعاء	
١٣	فى الحياه الفانيه والحياه الباقيه	الفصل الاول :
١٩	فى أن هذه الحياه ليست نصيباً لنا	الفصل الثانى :
٢٣	فى أننا غرباء على هذه الارض	الفصل الثالث :
٢٨	فى حقيقه الموت	الفصل الرابع :
٣٦	فى خداع الدنيا وغرور الحياه	الفصل الخامس :
٤٧	فى ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها	الفصل السادس :
٥٤	فى انه لا سعادة فى العالم	الفصل السابع :
٦٢	فى سرعة زوال هذه الحياه	الفصل الثامن :
٦٩	فى فناء المجد العالمى و بطلانه	الفصل التاسع :
٧٦	فى سرعة اضمحلال ايجاد العالم	الفصل العاشر :
٨٢	فى ضرورة الاستعداد للموت	الفصل الحادى عشر :
٩٠	فى عبر الموت	الفصل الثانى عشر :
٩٧	فى عبره زياره المدافن	الفصل الثالث عشر :
١٠٧	فى عبره الأبدية	الفصل الرابع عشر :
١١٣	فى انتقال الصالح	الفصل الخامس عشر :
١٢٣	فى موت الأثيم	الفصل السادس عشر :
١٣٠	فى أن توبه الخاطيء عند الموت لا تقبل غالباً	الفصل السابع عشر :
١٤٠	فى أن يوم الموت يأتى بغته	الفصل الثامن عشر :
١٤٦	فى وجوب اغتنام الفرصه	الفصل التاسع عشر :
١٥٤	فى قيامه الأموات	الفصل العشرون :
١٦٣	فى يوم يحىء الرب العظيم الثانى	الفصل الحادى والعشرون :
١٧٠	فى الدينونة العامة	الفصل الثانى والعشرون :
١٨٨	فى افتضاح المنافقين	الفصل الثالث والعشرون :
١٩٧	فى صعوبة الانفصال الأبدى	الفصل الرابع والعشرون :

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٢٠٥	الفصل الخامس والعشرون : فى النهاية المريعة
٢١٥	الفصل السادس والعشرون : فى انه لا رحمة بعد الحكم
٢٢٨	الفصل السابع والعشرون : فى صعوبة العذاب الأبدى
٢٣٦	الفصل الثامن والعشرون : فى الأبدية المخيفة
٢٤٤	الفصل التاسع والعشرون : فى سعادة الابرار ومجد القديسين
٢٥٤	الفصل الثلاثون : تأملات روحية
٢٥٧	الخاتمة : طريق السناء

٨٣ / ٣١٤٤

٨ - ٠٢٣ - ١٨٧ - ٩٧٧

٢٥
جموعة مؤلفات "القس منسى يوحنا":

- طريق السماء
- يسوع المصلوب
- شمس البر
- النور الباهر في الدليل إلى الكتاب الطاهر
- فتارورة طيب كثير الثمن
- كمال البرهان على حقيقة الإيمان
- حل مشاكل الكتاب المقدس
- حياة آدم
- تاريخ الكنيسة القبطية



صور ودروس التربية الكنسية والتربية
كتب كنسية ودينية • جوائز مد
صور دينية • أيقونات قبطية • أدو
كاسيت ألحان وتراتيم وهداسات
مناظر طبيعية • هدايا وبرازيس • مر